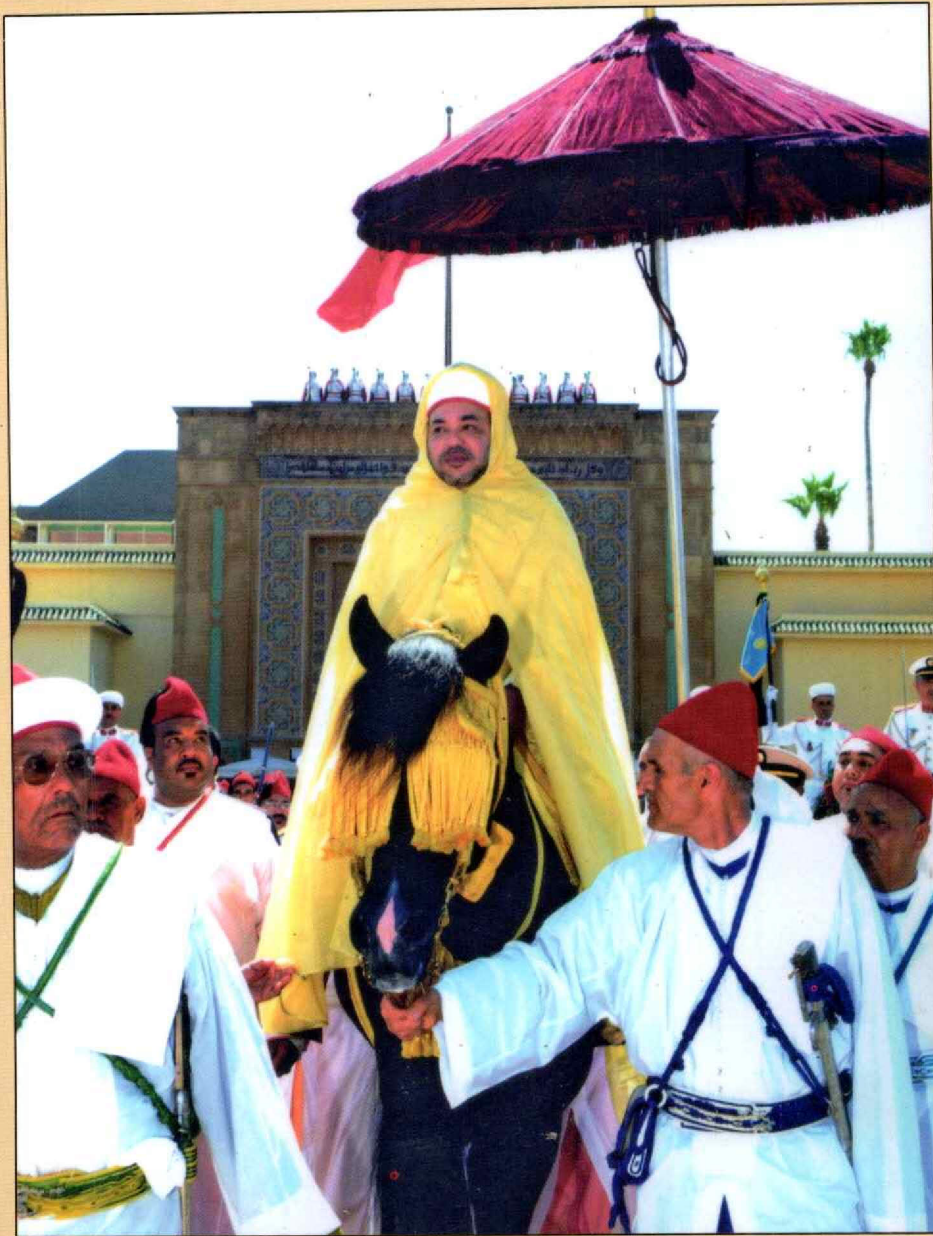


دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالكراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية



عدد خاص بعيد العرش المجيد

السنة السابعة والخمسون - العدد 413 شوال 1436 هـ / يوليو 2015 م

413

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالكراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السابعة والخمسون - العدد 413 شوال 1436 هـ / يوليوز 2015م



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه

سنة 1376هـ / 1957م



”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصفة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولانا عالة العكر والثقافة والإصلاح في مسنده
البلد وغيره لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تملك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاة والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الإسلامية
البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhaj.gov.ma

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 32 10 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

إنه من تمام التبعض والإنعام، أن من الله تعالى علينا بنعمة الإسلام، وخلفنا بهدي القرآن، وجعل من تمام علما انتقل: الامتثال للأحكام، ووجوب الصاعدة لمن بواله الله رعاية الأنام.

والقول بالرعاية مؤذن باستحضار الجهود الموفقة لعائلتنا الهمام أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس أعز الله أمره في الذكرى السادسة عشرة لتربع جلالاته على عرش أسلافه المنعمين.

إنها جهود معبودة بالعناية الإلهية، فصورها دانية، للعيان بالمية، همت في جوهرها متابعة الجهود السنوية لبناء الدولة الحديثة، بهيئاتها العفوية، ومؤسساتها الدستورية، تجلت آثارها في الفصاحات الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وغيرها.

فصار المغرب بفضل جهود جلالاته فبلة للمهتمين، ومونلا للغاصدين من مختلف الدول العربية والإفريقية وغيرها، يمدوهم في علما شرف الثقل من سياسته، والعل من حكمته، بفوقل نيل علما الشرف بموافقة جلالاته، ومباركة سامي رعايته، فتتفتت بعضله الأهداف والغايات، وانصلقت ما تشوقت إليه التطلعات، في مسيرة يشهد التاريخ بحضورها في عهد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس أيماله الله ونصره.

إن احتفائنا بهذا الذكرى العجيبة بجسد مكي تعلفنا بعرش ملكنا، ويؤكد تمسكنا بثوابتنا الضامنة للوحدة الترابية، والكرامة المغربية.

وسيعنى ملاب هذا العهد من مجلة الدعوة الحق بإيراد مقالات تجلي أهم ما ألمعت إليه أعلامه، بمشاركة ثلة من الأساتذة والعلماء، تخليدا لهذا الذكرى العالية على المغاربة أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير

ملف العدد
عيد العرش المجيد

إمارة المؤمنين: تأصيل الشرعية ومقاصد الإقامة

د. إلياس بناني
أستاذ باحث، فاس

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم وبارك وعظم على إمام الأئمة وشفيع الأمة وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض لعمارته وتحقيق عبوديته فيها، وهياً له كل ما في الكون لقيام حياته على استقامة، وأنزل إليه الكتب وأرسل الرسل بما يحقق مصالحه في الدارين، ويدراً عنه الاختلال فيهما. ولما أن كان الناس مختلفين قدراً وشرعاً جعل الله لهم ما يوحدهم ويجمع شملهم، ومما جعله الله باعثاً على تلك الغاية تشريع نظام الملك الذي به تتوثق العرى وتجتمع الكلمة وتصلح الرعية لإيجاد من يحمي حرمتها ويحفظ لحمتها. وتديلاً على صحة هذه الدعوى عاجلت تأصيل شرعية إمارة المؤمنين وبيان مقاصدها في هذا المقال تسويراً لهذا الباب بسوار الشرع، وربطاً للفروع بأصولها.

أولاً: إمارة المؤمنين وتأصيل الشرعية:

إن من نافلة القول تحديد المراد بالقضية قبل الشروع في تحديد محمولها، والقضية هنا إمارة المؤمنين ومحمولها تأصيل شرعيتها، وأعني بتأصيل الشرعية ما يشهد لهذه المسألة بكونها من الشرع من أدلة الوحيين وإجماع الأمة، وما سطره أئمة الفقه في بيان تعلقها بأحكام الشريعة وتفرعها عن كلياتها.

- مفهوم المنصب ودلالة المصطلح:

نعني بإمارة المؤمنين منصب سياسة الأمة بما يرضى دينها ودنياها، وهو نفس مفهوم كافة المصطلحات المتقاربة كالخلافة والإمامة والملك ونحوها.

فمن حيث اللغة قال ابن فارس: "الْحَاءُ وَاللَّامُ وَالْفَاءُ أَصُولُ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا أَنْ يَجِيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقُومُ مَقَامَهُ، وَالثَّانِي خِلَافٌ قُدَّامٌ، وَالثَّالِثُ التَّغْيِيرُ."

فَالْأَوَّلُ الْخَلْفُ. وَالْخَلْفُ: مَا جَاءَ بَعْدُ. وَيَقُولُونَ: هُوَ خَلَفَ صِدْقٍ مِنْ أَبِيهِ. وَخَلَفَ سَوْءٍ مِنْ أَبِيهِ. فَإِذَا لَمْ يَذْكُرُوا صِدْقًا وَلَا سَوْءًا قَالُوا لِلْجَيْدِ خَلْفٌ وَلِلرَّدِيِّ خَلْفٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾¹. وَالْخَلِيفَةُ: الْخِلَافَةُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ خِلَافَةً لِأَنَّ الثَّانِي يَحْيِي بَعْدَ الْأَوَّلِ قَائِمًا مَقَامَهُ. وَتَقُولُ: قَعَدْتُ خِلَافَ فُلَانٍ، أَيَّ بَعْدَهُ. وَالْخَوَالِفُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾².

وقال الجوهري في الصحاح: "والخليفة: السلطان الأعظم. وقد يؤنث. وأنشد الفراء:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى ❁ وَأَنْتَ خَلِيفَةُ ذَاكَ الْكَمَالِ

والجمع الخلائف، جاءوا به على الأصل، مثل كريمة وكرائم. وقالوا أيضا: خلفاء، من أجل أنه لا يقع إلا على مذكر وفيه الهاء، جمعه على إسقاط الهاء، فصار مثل ظريف وظرفاء، لان فعيلة بالهاء لا تجمع على فعلاء. ويقال: خلف فلان فلاناً، إذا كان خليفته. يقال خَلَفَهُ فِي قَوْمِهِ خِلَافَةً⁴.

وقال ابن سيده: "الأمير: الأمر، والأمير: الملك لنفاذ أمره بين الإمارة والأماره، وأمر علينا يأمر أمرا، وأمر وأمر كولي"⁵.

أما من حيث الاصطلاح فقد أورد من ألف في السياسة الشرعية أن من يتولى أمر المسلمين وقع عليهم ألقاب أربعة وهي: عبد الله والخليفة والإمام وأمير المؤمنين⁶.

قال القلقشندي: "أما الْخِلَافَةُ فَهِيَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ خَلَفَ يُقَالُ خَلَفَهُ فِي قَوْمِهِ يُخْلِفُهُ خِلَافَةً فَهُوَ خَلِيفَةٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾"⁷، ثُمَّ أُطْلِقَ فِي الْعَرَفِ الْعَامِ عَلَى الزَّعَامَةِ الْعُظْمَى وَهِيَ الْوَلَايَةُ الْعَامَّةُ عَلَى كَافَّةِ الْأُمَّةِ وَالْقِيَامُ بِأُمُورِهَا وَالنَّهْضُ بِأَعْبَائِهَا...

1 - الأعراف / 169 ومريم 59.

2 - التوبة / 88.

3 - معجم مقاييس اللغة 210/2 المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر 1399هـ - 1979م.

4 - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 1356/4 المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة 1407هـ - 1987م.

5 - المحكم والمحيط الأعظم 299/10 المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى [ت: 458هـ] المحقق: عبد الحميد هندواي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م.

6 - مآثر الإنافة ص 20 قال: "أما ملوك الغرب الأقصى الآن من بني مرين فإنهم يخاطبون بأمر المسلمين جريا على ما استقر عليه أمر تلك البلاد من التلقب بذلك من حين أحدث هذا اللقب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في دولة الملتئمين من لمتونة من البربر"، ص 28.

7 - الأعراف / 142.

وَالَّذِي عَلَيْهِ الْعَرْفُ الْمُشَاعُ مِنْ صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَهَلُم جَرَا إِطْلَاقَ اسْمِ الْخَلِيفَةِ عَلَى كُلِّ مَنْ قَامَ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ الْقِيَامَ الْعَامَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ إِمَّا بِبَيْعَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَإِمَّا بِعَهْدٍ مِمَّنْ قَبْلَهُ"⁸.

يقول ابن خلدون: "حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الأمرين أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري"⁹.

وفي معنى الخليفة كما في مفاتيح الغيب للفخر الرازي: "الخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه"¹⁰.

فمن تولى أمر المسلمين سمي خليفة أو أمير المؤمنين أو الإمام الأعظم أو الملك، وكلها أسماء لمسمى واحد.

- أدلة شرعية منصب إمارة المؤمنين:

أما أدلة شرعية المنصب فأكثر من أن تحصر، وإنما أورد من ذلك ما يقيم الحجة ويوضح المحجة، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، وإن كانت قد دلت عليها حاجة الناس لانتظام أمورهم، وبذلك جاء القرآن والسنة وإجماع الأمة.

أ- من القرآن:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾¹¹.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾¹².

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾¹³.

8 - مآثر الإنافة في معالم الخلافة ص 9 المؤلف: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: 821هـ) المحقق: عبد الستار أحمد فراج الناشر: مطبعة حكومة الكويت - الكويت الطبعة: الثانية، 1985.

9 - المقدمة ص: 272.

10 - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير 388/2 المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1420هـ.

11 - سورة ص/ 25.

12 - الحج/ 39.

13 - البقرة/ 257.

وقال عز من قائل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾¹⁴.

وقال جل في علاه حاكيا عن نبيه سليمان عليه السلام قوله: ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي﴾¹⁵.

وقال تعالى حاكيا كذلك عن نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام قوله: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾¹⁶.

ووجه الدلالة في الآيات وما ورد في سياقات بيان أن الله تعالى يؤتي ملكه من يشاء وأنه نعمة من الله سبحانه في حق من يختاره الله لذلك، أن الله سبحانه أقر على أن من البشر ملوكا يسوسون الناس، وإن كان قد نبه سبحانه على توخي العدل وتوقي الظلم. فدل على شرعية اتخاذ الناس ملوكا يرفعون مصالحهم ويسهررون على وحدتهم. وما كان في آية البقرة من لوم الذي حاج إبراهيم عليه السلام، فإنما يتوجه إلى سوء تدبير ذلك الملك لا إلى ذات الملك. ودل عليه كذلك سؤال نبي الله سليمان عليه السلام له من غير نكير عليه. وقد حكى القرآن الكريم عن أنبياء ملوك كداود وذي القرنين ويوسف عليهم السلام أجمعين.

ب- من السنة:

وردت أدلة كثيرة من السنة على شرعية المنصب أكتفي بإيراد بعضها، فقد دلت تصرفاته صلى الله عليه وسلم بالنبوة والإمامة والفتوى والقضاء على شرف المنصب ومشروعيته كذلك.

ومن أصولها في السنة ما ورد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، بِصَدَقَةٍ أَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهُ خَالِيًا فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ"¹⁷.

فنص على الإمام العادل وبين أجره ومشروعية المنصب كذلك. ودلت مراسلاته عليه الصلاة والسلام للملوك الأرض على عهده على ذلك كذلك.

14 - آل عمران/ 26.

15 - سورة ص/ 34.

16 - يوسف/ 101.

17 - أخرجه البخاري كتاب: الأذان باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة - ح: 660، ومسلم كتاب: الزكاة باب: فضل إخفاء الصدقة - ح: 1031/91.

ج- من الإجماع:

نقل الجويني في الغياثي الإجماع على وجوب إقامة الأمير¹⁸، وقال الإمام الذهبي: "اتفق أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة على وجوب الإمامة وأن الأمة فرض عليها الانقياد إلى إمام عدل، حاشا النجدية من الخوارج فقالوا لا تلزم الإمامة وإنما على الناس أن يتعاطوا الحق فيما بينهم، وهذا قول ساقط. واتفق كل من ذكرنا على أنه لا يكون في وقت إلا إمام واحد"¹⁹. وقال الماوردي: "الإمامة: مَوْضُوعَةٌ لِحِلَافَةِ النَّبُوَّةِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا، وَعَقْدُهَا لِمَنْ يَتَّقُومُ بِهَا فِي الْأُمَّةِ وَاجِبٌ بِالْإِجْمَاعِ"²⁰.

- في حكم إقامة المنصب ووجوده في الأمة:

اتفق كل من قال بمشروعية منصب الإمامة على القول بوجوبها، وذلك لما يتأدى بها من المصالح كما سيأتي عند الحديث عن مقاصد إقامتها، وأخذنا مما أجمع عليه الصحابة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من إقامة من يقوم على رعاية الأمة بعده دون توان، قال الجويني: "أَمَّا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - رَأَوْا الْبِدَارَ إِلَى نَصْبِ الْإِمَامِ حَقًّا؛ فَتَرَكُوا لِسَبَبِ التَّشَاغُلِ بِهِ تَجْهِيزَ رَسُولِ اللَّهِ وَدَفْنَهُ، مُحَافَةً أَنْ تَتَغَشَّاهُمْ هَاجِمَةٌ مَحْنَةٍ. وَلَا يَرْتَابُ مَنْ مَعَهُ مُسْكَةٌ مِنْ عَقْلٍ أَنَّ الذَّبَّ عَنِ الْحُوزَةِ، وَالنِّصَالِ دُونَ حِفْظِ الْبَيْضَةِ مُحْتَمٌ شَرْعًا، وَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ فَوْضَى لَا يَجْمَعُهُمْ عَلَى الْحَقِّ جَامِعٌ، وَلَا يَزْعُهُمْ وَازِعٌ، وَلَا يَرْدَعُهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ رَادِعٌ، مَعَ تَفَنُّنِ الْآرَاءِ وَتَفَرُّقِ الْأَهْوَاءِ لَا تَنْتَشِرُ النَّظَامُ، وَهَلَكَ الْعِظَامُ، وَتَوَثَّبَتِ الطَّغَامُ وَالْعَوَامُ، وَتَحَزَّبَتِ الْآرَاءُ الْمُتَنَاقِضَةُ، وَتَفَرَّقَتِ الْإِرَادَاتُ الْمُتَعَارِضَةُ، وَمَلَكَ الْأَرْدُلُونَ سَرَاةَ النَّاسِ، وَفُضِّتِ الْمَجَامِعُ، وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ، وَفَشَّتِ الْخُصُومَاتُ، وَتَبَدَّدَتِ الْجَمَاعَاتُ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْإِطْنَابِ بَعْدَ حُصُولِ الْبَيَانِ، وَمَا يَزْعُ اللَّهُ بِالسُّلْطَانِ أَكْثَرَ مِمَّا يَزْعُ بِالْقُرْآنِ"²¹.

قال أبو المعالي الجويني: "الإمامة رِياسَةٌ تَامَّةٌ، وَرَعَامَةٌ عَامَّةٌ، تَتَعَلَّقُ بِالْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، فِي مُهِمَّاتِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا. مُهِمَّتُهَا حِفْظُ الْحُوزَةِ، وَرِعَايَةُ الرَّعِيَّةِ، وَإِقَامَةُ الدَّعْوَةِ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ، وَكَفُّ

18 - الغياثي ص: 23-24 وينظر تهذيب الرياسة للقلعي ص 75.

19 - الْمُقَدِّمَةُ الرَّهْرَا فِي إِیْضَاحِ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى ص 12 المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: 748هـ) المحقق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا الناشر: دار الفرقان للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008م.

20 - الأحكام السلطانية ص 15-16 المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) الناشر: دار الحديث - القاهرة.

21 - الغياثي ص 23-24 وينظر تهذيب الرياسة للقلعي ص 75.

الْخَيْفَ وَالْخَيْفَ، وَالْإِتِّصَافُ لِلْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَاسْتِيفَاءُ الْحُقُوقِ مِنَ الْمُتَمَتِّعِينَ، وَإِيفَاؤُهَا عَلَى الْمُسْتَحِقِّينَ.... فَنُصِبَ الْإِمَامُ عِنْدَ الْإِمْكَانِ وَاجِبٌ²².

وقال الماوردي: "وَاخْتَلَفَ فِي وُجُوبِهَا هَلْ وَجِبَتْ بِالْعَقْلِ أَوْ بِالشَّرْعِ؟ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: وَجِبَتْ بِالْعَقْلِ لِمَا فِي طِبَاعِ الْعُقَلَاءِ مِنَ التَّسْلِيمِ لِزَعِيمٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّظَلُّمِ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فِي التَّنَازُعِ وَالتَّخَاصُمِ، وَلَوْلَا الْوَلَاةُ لَكَانُوا فَوْضَى مُهْمَلِينَ، وَهَمَجًا مُضَاعِينَ، وَقَدْ قَالَ الْأَفُوهُ الْأَوْدِيُّ، وَهُوَ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ ❀ وَلَا سَرَاةً إِذَا جُهَا لَهُمْ سَادُوا²³

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: بَلْ وَجِبَتْ بِالشَّرْعِ دُونَ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ يَقُومُ بِأُمُورٍ شَرْعِيَّةٍ قَدْ كَانَ مُجَوِّزًا فِي الْعَقْلِ أَنْ لَا يَرِدَ التَّعَبُّدُ بِهَا، فَلَمْ يَكُنِ الْعَقْلُ مُوجِبًا لَهَا، وَإِنَّمَا أَوْجَبَ الْعَقْلُ أَنْ يَمْنَعَ كُلَّ وَاحِدٍ نَفْسَهُ مِنَ الْعُقَلَاءِ عَنِ التَّظَلُّمِ وَالتَّقَاطُعِ، وَيَأْخُذَ بِمُقْتَضَى الْعَدْلِ فِي التَّنَاصُفِ وَالتَّوَاصُلِ، فَيَتَدَبَّرُ بِعَقْلِهِ لَا بِعَقْلِ غَيْرِهِ، وَلَكِنْ جَاءَ الشَّرْعُ بِتَفْوِضِ الْأُمُورِ إِلَى وَلِيِّهِ فِي الدِّينِ، قَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾²⁴. فَفَرَضَ عَلَيْنَا طَاعَةَ أُولِي الْأَمْرِ فِينَا، وَهُمْ الْأَئِمَّةُ الْمُتَأَمَّرُونَ عَلَيْنَا²⁵.

قال القاضي أبو يعلى الفراء: "نصب الإمام واجبة وقد قال أحمد - رضي الله عنه - في رواية محمد بن عوف بن سفيان الحمصي -: وهي فرض على الكفاية، مخاطب بها طائفتان من الناس. إحداهما: أهل الاجتهاد حتى يختاروا. والثانية: من يوجد فيه شرائط الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة²⁶.

وقال ابن الأزرق في بيان وجوب إقامة الإمام كذلك: "إِنَّ الضَّرُورَةَ فِي الْجُمُوعِ الطَّبِيعِيِّ لِنَوْعِ الْإِنْسَانِ كَمَا تَقْدُمُ تَدْعُو إِلَى الْمُعَامَلَاتِ واقتضاء ضرورات المعاش وحاجياته وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ تَوْلِدُ الْمَنَازَعَاتِ فِي اخْتِصَاصِ كُلِّ بَلَدٍ لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بِمُقْتَضَى الْعُصْبِ وَأَنْفَةِ

22 - الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم ص 22 المؤلف: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: 478هـ) المحقق: عبد العظيم الديب الناشر: مكتبة إمام الحرمين الطبعة: الثانية، 1401هـ.

23 - المنهج السلوك: ص 167.

24 - النساء/ 58.

25 - الأحكام السلطانية ص 15-16 المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) الناشر: دار الحديث - القاهرة.

26 - الأحكام السلطانية للفراء ص 19 المؤلف: القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (المتوفى: 458هـ) صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان الطبعة: الثانية، 1421هـ-2000م.

القوى البشرية وَذَلِكَ مَفْضٌ إِلَى الْمُقَاتَلَةِ الْمُؤَدِيَةِ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَإِتْلَافِ النُّفُوسِ وَكُلِّ ذَلِكَ مُؤَذِّنٌ بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ وَانْخِرَامِ شَمَلِ اجْتِمَاعِهِ وَقَدْ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الْعِنَايَةِ بِهِ أَنْ يُحْفَظَ مِنْ مُحْظُورِ ذَلِكَ بِوَازِغٍ لَا سِتْحَالَهَ الْبَقَاءُ بَعْدَ وَضْعِ الشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَاتِ الْمَصْطَلَحِ عَلَيْهَا إِلَّا بِنَصْبِهِ وَهُوَ السُّلْطَانُ الْمَانِعُ بِقَهْرِ يَدِهِ الْغَالِبَةِ مِمَّا يُؤَدِّي لَوْفُوعِ ذَلِكَ الْمُحْذُورِ وَوَاضِحٌ مِنْ هُنَاكَ أَنَّ الْمَلِكَ مِنَ الْخَوَاصِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ²⁷.

ويقول ابن الأزرَق في بيان هذا الوجوب: "إِنَّ حَقِيقَةَ هَذَا الْوُجُوبِ الشَّرْعِيِّ رَاجِعَةٌ إِلَى النِّيَابَةِ عَنِ الشَّارِعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ وَيُسَمَّى بِاعْتِبَارِ هَذِهِ خِلَافَةٍ وَإِمَامَةٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ الدِّينَ هُوَ الْمَقْصُودُ فِي إِيجَادِ الْخُلُقِ لَا الدُّنْيَا فَقَطْ فَحَمَلُوا عَلَى حُكْمِهِ دُنْيَا وَآخَرَى وَنَصَبَ لَذَلِكَ الْخَلِيفَةَ نَائِبًا عَنِ صَاحِبِ الشَّرْعِ"²⁸.

وقال بدر الدين الكِنَانِي في تحرير الأحكام: "وَيَجِبُ نَصْبُ إِمَامٍ بِحِرَاسَةِ الدِّينِ، وَسِيَاسَةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَفِّ أَيْدِي الْمُعْتَدِينَ، وَإِنْصَافِ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَيَأْخُذُ الْحُقُوقَ مِنْ مَوَاقِعِهَا، وَيَضَعُهَا جَمْعًا وَصَرَفًا فِي مَوَاضِعِهَا، فَإِنَّ بِذَلِكَ صَلَاحَ الْبِلَادِ وَأَمْنُ الْعِبَادِ، وَقَطْعُ مَوَادِّ الْفُسَادِ، لِأَنَّ الْخُلُقَ لَا تَصْلُحُ أَحْوَالُهُمْ إِلَّا بِسُلْطَانٍ يَقُومُ بِسِيَاسَتِهِمْ، وَيَتَجَرَّدُ لِحِرَاسَتِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: جُورُ السُّلْطَانِ أَرْبَعِينَ سَنَةً خَيْرٌ مِنْ رِعْيَةِ مُهْمَلَةٍ سَاعَةً وَاحِدَةً"²⁹.

وقال صاحب الدرّة الغراء: "لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ نَصْبِ إِمَامٍ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ، مِنْ إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ، وَتَنْفِيزِ الْأَحْكَامِ، وَتَرْوِيجِ الْأَيْتَامِ، وَقَطْعِ الْمُنَازَعَةِ بَيْنَ الْأَنْامِ، وَإِقَامَةِ الْأَعْيَادِ وَالْجَمْعِ وَالْحُدُودِ، وَأَخْذِ الْعَشُورِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ، وَصَرَفِهَا إِلَى مَصَارِفِهَا بِمُوجِبِ الشَّرْعِ، وَقَهْرِ الْمُتَغَلِّبَةِ وَالْمُتَلَصِّصَةِ وَقَطَاعِ الطَّرِيقِ، وَقَبُولِ الشَّهَادَاتِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْحُقُوقِ، وَإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ عَلَى الْعَوَامِ، وَالْحِرَاسَةِ لِبَيْضَةِ الْإِسْلَامِ، وَتَجْهِيزِ جِيُوشِهِمْ، وَتَقْسِيمِ غَنَائِمِهِمْ، وَحِفْظِ أَمْوَالِ بَيْتِ الْمَالِ، وَأَمْوَالِ الْغَنَامِينَ، وَأَمْوَالِ الْيَتَامَى، وَإِقَامَةِ هَذِهِ الْأُمُورِ وَاجِبَةً، وَمَا لَا يُمَكِّنُ إِقَامَةَ الْوَاجِبِ إِلَّا بِهِ يَكُونُ وَاجِبًا"³⁰.

27 - بدائع السلك في طبائع الملك ص 68 المؤلف: محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، أبو عبد الله، شمس الدين الغرناطي ابن الأزرَق (المتوفى: 896هـ) المحقق: د. علي سامي النشار النشار: وزارة الإعلام - العراق الطبعة: الأولى.

28 - بدائع السلك ص 71.

29 - تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ص 44 المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكِنَانِي الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: 733هـ) المحقق: قدم له: الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، تحقيق ودراسة وتعليق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد الناشر: دار الثقافة بتفويض من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر - قطر / الدوحة الطبعة: الثالثة، 1408هـ-1988م.

30 - الدرّة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء ص 112 المؤلف: محمود بن إسماعيل بن إبراهيم بن ميكائيل الحَبْرِيَّيْنِي (المتوفى: 843هـ) الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - الرياض.

- في فضل منصب إمارة المؤمنين وأجر متقلده بحقه:

من المعلوم أن الأجور تتبع الأحكام فما كان في مرتبة أعلى الواجبات فعليه أعظم الأجور، وما كان في مرتبة أعلى المناهي فعليه أعظم الذنوب والأوزار، والإمامة بهذه القاعدة لما كانت واجبة لم ترتب في أن متقلدها بشروطها له أعظم الأجور، وقد ورد في الحديث أن الإمام العادل لا ترد دعوته وكفى بذلك أجراً³¹.

قال العز ابن عبد السلام: "أجمع المسلمون على أن الولايات من أفضل الطاعات وأن الولادة المقسطين أعظم أجراً وأجل قدراً من غيرهم لكثرة ما يجري على أيديهم من إقامة الحدود ودرء الباطل قال أحدهم يقول الكلمة الواحدة فيدفع بها ألف مظلمة فما دونها قال فيا له من كلام يسير وأجر كبير"³².

قال الحافظ ابن رجب عند شرحه لحديث السبعة: "وأول هذه السبعة: الإمام العادل. وهو أقرب الناس من الله يوم القيامة، وهو على منبر من نور على يمين الرحمن - عز وجل -، وذلك جزاء لمخالفته الهوى، وصبره عن تنفيذ ما تدعوه إليه شهواته وطمعه وغضبه، مع قدرته على بلوغ غرضه من ذلك؛ فإن الإمام العادل دعت الدنيا كلها إلى نفسها، فقال: إني أخاف الله رب العالمين. وهذا أنفع الخلق لعباد الله، فإنه إذا صلح صلحت الرعية كلها. وقد روي أنه ظل الله في الأرض؛ لأن الخلق كلهم يستظلون بظله، فإذا عدل فيهم أظله الله في ظله"³³.

قال صاحب تهذيب الرياسة في سياق استدلاله بحديث السبعة: "فَبَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْإِمَامِ الْعَادِلِ وَحَقِيقَ أَنْ يَبْدَأَ بِهِ لِأَنَّهُ مِنَ الْعَالَمِ بِمَنْزِلَةِ السَّوَادِ مِنَ الْعَيْنِ بِلِ بَمَنْزِلَةِ السَّوَيْدَاءِ مِنَ الْقَلْبِ بِلِ

31 - مسند أبي داود الطيالسي 310/4 ح: 2707 المؤلف: أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (المتوفى: 204هـ) المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي الناشر: دار هجر - مصر الطبعة: الأولى، 1419هـ - 1999م وسنن الترمذي 672/4 ح: 2526 المؤلف: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض الناشر: مصطفى البابي الحلبي - مصر الطبعة: الثانية، 1395هـ - 1975م.

32 - قواعد الأحكام في مصالح الأنعام 142/1 المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ) راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة 1414هـ - 1991م.

33 - فتح الباري شرح صحيح البخاري 46/6 المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلمي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: 795هـ) تحقيق: مجموعة من المحققين الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية. الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين - القاهرة الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1996م.

هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْقَلْبِ مِنَ الْجَسَدِ فَبِصْلَاحِهِ يَصْلَحُ الْجَسَدُ وَبِفْسَادِهِ يَفْسَدُ كَمَا قَالَ ﷺ إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ... فَسَادَ الرِّعْيَةِ بِلَا مَلِكٍ كَفْسَادِ الْجَسَدِ بِلَا رُوحٍ وَإِنَّمَا كَانَ السُّلْطَانُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ لِأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ إِمَامٌ مُتَّبِعٌ وَفِي سِيرَتِهِ دِينٌ مَشْرُوعٌ³⁴.

وقال بدر الدين الكناني كما في تحرير الأحكام: "وقيل: لَيْسَ فَوْقَ رُتْبَةِ السُّلْطَانِ الْعَادِلِ رُتْبَةٌ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَوْ مَلِكٌ مُقَرَّبٌ"³⁵.

وقال ابن الأزرقي في بيان أجر الإمام العادل: "أشرف منازل الأديمين النبوة ثم الخلافة ويكفي بما يشهد لذلك أمران، أحدهما: أنه بإجماع أعظم ثواباً من سائر من عمل لله بطاعة. وَقَاعِدَةٌ أَنَّ فَاعِلَ السَّبَبِ بِمَنْزِلَةِ فَاعِلِ الْمُسَبَّبِ قَاطِعَةً بِذَلِكَ"³⁶.

وقال أبو الخير التبريزي في بيان مقام الراعي في الأمة وعظم منزلته: "حين ختم الله النبوة والرسالة بخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ؛ استخلف في أمته الأمراء الراشدين، والولاة المهتدين، ليقوموا بنصرة الدين؛ وليعدلوا بين الخلق أجمعين، ويحملوهم على الصراط المستقيم؛ فإن بالعدل يحسن الزمان، وتخصب البلاد وتأمين السبل ويطيب العيش، وتنتظم أسباب الحياة"³⁷.

- في تأريخ المنصب وتسميته:

توالى على منصب رعاية الأمة وإمامة المسلمين خيرة الخلق من الأنبياء فمن دونهم من الصحابة والتابعين من أولي النباهة والرجاحة في العقل والرأي، حيث يقول شهاب الدين القرافي في بيان تقلد النبي ﷺ لهذا المنصب: "اعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ وَالْقَاضِي الْأَحْكَمُ وَالْمُفْتِي الْأَعْلَمُ فَهُوَ - ﷺ - إِمَامُ الْأَئِمَّةِ وَقَاضِي الْقَضَاةِ وَعَالِمُ الْعُلَمَاءِ فَجَمِيعُ الْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ فَوْضَهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ فِي رَسُولَتِهِ وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَنْ تَوَلَّى مَنَصِبًا مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْمَنَصِبِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَمَا مِنْ مَنَصِبٍ دِينِيٍّ إِلَّا وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهِ فِي أَعْلَى رُتْبَةٍ غَيْرَ أَنَّ غَالِبَ تَصَرُّفِهِ - ﷺ - بِالتَّبْلِغِ لِأَنَّ وَصْفَ

34 - تهذيب الرياسة ص 99.

35 - تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ص 50.

36 - بدائع السلك ص 84.

37 - النصيحة للراعي والرعية للتبريزي ص 26 المؤلف: أَبُو الْحَيْرِ بَدَلُ بْنُ أَبِي الْمُعَمَّرِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ التَّبْرِيزِيِّ (المتوفى: 636هـ) حققه وعلق عليه: أَبُو الزَّهْرَاءِ عُبَيْدُ اللَّهِ الْأَثَرِيُّ النَّاظِرُ: دار الصحابة للتراث، طنطا - مصر الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1991م.

الرِّسَالَةِ غَالِبٌ عَلَيْهِ ثُمَّ تَقَعُ تَصَرُّفَاتُهُ - ﷺ - مِنْهَا مَا يَكُونُ بِالتَّبْلِيغِ وَالْفَتْوَى إِجْمَاعًا وَمِنْهَا مَا يُجْمَعُ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ بِالْقَضَاءِ وَمِنْهَا مَا يُجْمَعُ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ بِالْإِمَامَةِ"³⁸.

وفي كتاب «الاستيعاب» لأبي عمر: "كان أبو بكر يقول: أنا خليفة رسول الله، وكان يدعى: يا خليفة رسول الله. وروى بسند عن ابن أبي مليكة قال، قال رجل لأبي بكر: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله، وأنا راض بذلك"³⁹.

فعلمنا بذلك ترادف المصطلحات من جهة وتطور التسمية في المنصب من جهة أخرى، ويدل على ذلك ما ذكره أبو عمر ابن عبد البر في «الاستيعاب»، أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سأل أبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة: لأي شيء كان أبو بكر يكتب من خليفة رسول الله، وكان عمر يكتب من خليفة أبي بكر، ومن أول من كتب من عبد الله أمير المؤمنين؟ قال: حدثتني الشفاء، وكانت من المهاجرات الأول، أن عمر بن الخطاب كتب إلى عامل العراق: أن ابعث إليّ برجلين نبيلين أسألهما عن العراق، فبعث إليهما عامل العراق لبيد بن ربيعة العامري، وعدي بن حاتم الطائي، فلما قدما المدينة أناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم دخلا المسجد فإذا هما بعمر بن العاص، فقالا له: استأذن لنا على أمير المؤمنين يا عمرو، فقال عمرو: أنتما والله أصبتما اسمه، نحن المؤمنون وهو أميرنا، فوثب عمرو فدخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ما بدا لك في هذا الاسم؟ يعلم الله لتخرجن مما قلت أو لأفعلن، قال: إن لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم قدما فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد ثم دخلا المسجد وقالوا لي: استأذن لنا على أمير المؤمنين، فهما والله أصابا اسمك، أنت الأمير ونحن المؤمنون، قال: فجرى الكتاب من يومئذ"⁴⁰.

وبذلك تسمى الخلفاء بعده عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وتواتر الاسم في سائر من تولى أمر المسلمين، وإن كان قد يتغير بين الحقبة والحقبة كأن يتسمى بالخليفة أو أمير المسلمين أو السلطان ونحوها، وقد ذكر أن أول من تسمى بأمر المسلمين - كما قال الخزاعي - يوسف بن تاشفين، وكان أول من دعاه به المعتمد بن عباد، فاستحسن ذلك منه ومرت عليه هذه

38 - الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق 206/1 المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: 684هـ) الناشر: عالم الكتب بدون طبعة وبدون تاريخ ومعه «إدراج الشروق على أنوار الفروق» وهو حاشية الشيخ قاسم بن عبد الله المعروف بابن الشاط (723هـ) ومعهما «تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية» للشيخ محمد بن علي بن حسين مفتي المالكية بمكة المكرمة (1367هـ).

39 - الاستيعاب في معرفة الأصحاب 972/3 المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ) المحقق: علي محمد البجاوي الناشر: دار الجيل، بيروت الطبعة: الأولى، 1412هـ - 1992م.

40 - الاستيعاب 1151/3.

التسمية إلى أن مات⁴¹. وقال ابن خلدون في شأن سلاطين المغرب: "وكذا الأدارسة بالمغرب كانوا يلقبون إدريس بالإمام وابنه إدريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة.... حتى إذا جاء عبد الرحمن الداخل الآخر منهم وهو الناصر بن محمد بن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط لأول المائة الرابعة.... ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وإفريقية وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله، وأخذت من بعده عادة ومذهب لقن عنه ولم يكن لأبائه وسلف قومه. واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصبة العرب أجمع، وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة، وصنهاجة على أمراء إفريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوائف بالأندلس على أمراء بني أمية واقتسموه وافترق أمر الإسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والشرق في الاختصاص بالألقاب بعد أن تسموا جميعا باسم السلطان⁴².

وكل ذلك يدل على أن رعاية الأمة في المفهوم الإسلامي للسياسة الشرعية مغاير لما كان عند الأمم الأخرى من غير المسلمين لأنه ذو أبعاد سامية ومقاصد عظيمة، تدخل كلها تحت أصل إقامة مصالح العباد الدينية والدنيوية كما سيأتي، ولأجل ذلك يقول ابن خلدون: "اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاحتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه فالأحكام الشرعية متعلقة بجمعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها لعموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد"⁴³.

- في شروط الإمامة:

إن تقلد منصب سياسة الدين والدنيا يتطلب توافر جملة من الشروط في المتأهل له، يمكن إجمالها في أنه ينبغي أن يكون ذا دراية بعلوم الشريعة عالما بطرائق سياسة الناس.

وقد ألف العلماء في هذا الباب وجعلوه فاتحة كتبهم، واهتموا في هذا الأمر بالأخلاق والاتصاف بالحكمة حتى إن المطالع لكتبهم يستطيع أن يصنفها في أبواب الحكمة ورعاية همة

41 - تخرّيج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ص 48-51 المؤلف: علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود، أبو الحسن ابن ذي الوزارتين، الخزاعي (المتوفى: 789هـ) المحقق: د. إحسان عباس الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت الطبعة: الثانية، 1419هـ وينظر: التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية 85/1 المؤلف: محمد عبد الحّي بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحّي الكتاني (المتوفى: 1382هـ) المحقق: عبد الله الخالدي الناشر: دار الأرقم - بيروت الطبعة الثانية.

42 - مقدمة ابن خلدون ص 286.

43 - المقدمة ص 294.

الأنفس والترقي عن سفاهات البطالين والتشبه بالعامية. كل ذلك شعورا منهم برفعة المنصب وخطره ووجوب أن يكون متقلده ذا مكانة في أنفس الخاصة والعامية، فلا ينفرون عنه ولا يجروون عليه، بل يكون معظما مهيبا محبوبا لما كان نائبا عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم وخليفة له. يقول ابن خلدون: "وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي"⁴⁴.

واهتماما بهذا المنصب وجدناهم يتحدثون عن حاشية الخليفة وجلسائه وأصحابه والحاجب والوزير وغيرهم ممن يحيط بالسلطان ومواصفاتهم، وكيف يتعامل معهم ومتى ينقبض ومتى ينبسط وغير ذلك مما دونوه، ليكون السلطان في أمته والأمة في انضباط وانسجام مع راعيها، تحقيقا لمقاصد المنصب وغاياته.

ثانيا: مقاصد إقامة منصب إمارة المؤمنين:

يتغنى منصب إمارة المؤمنين تحقيق مقاصد الاستخلاف في الأرض، من عمارة الدنيا وبسط الدين في أنفس الناس، وعبادة الله جل في علاه إعلاء لكلمة الله سبحانه ونيابة عن صاحب الشريعة في جلب مصالح الدارين ودفع مفسدتهما. ولأجل ذلك كانت أعظم المقاصد التي أقيم لها المنصب حفظ الضروريات الخمس: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، سواء من جانب الوجود بما يكفل إظهار شعائر الملة وأمن الأمة، أو من جانب العدم بما يمنع تطرق الخلل إليها على الوجه الكلي والعام.

أ- حفظ الدين:

أعظم ما ينبغي حفظه وإقامته هو كلي الدين الذي هو قوام وجود العنصر البشري، فمتى اختل اختلت الدنيا ولم تستقم حياة المكلفين، فكان أوجب الواجبات على من يتولى رعاية المسلمين أن يحفظ دين الأمة ويسوره من كل جوانبه لئلا يتسرب إليه الخلل فتختل أمور الناس وتختل في ذات الوقت باقي الكليات. يقول صاحب تهذيب الرياسة: "نظام أمر الدين والدنيا مقصود ولا يحصل ذلك إلا بإمام موجود لو لم نقل بوجوب الإمامة لأدّى ذلك إلى دوام الاختلاف والهرج إلى يوم القيامة ولو لم يكن للناس إمام مطاع لانتلم شرف الإسلام وضاع ولو لم يكن للأمة إمام قاهر لتعطلت المحاريب والمناظر وانقطعت السبل للوارد والصادر ولو خلا عصر من إمام لتعطلت فيه الأحكام وضاعت الأيتام ولم يحجّ البيت الحرام ولو لا الأئمة والقضاة والولاة لما نكحت

الْأَيَّامِ وَلَا كَفَلَتِ الْيَتَامَى وَلَوْلَا السُّلْطَانُ لَكَانَتْ النَّاسُ فَوْضَى وَلَا أَكَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَفِي الْحَدِيثِ السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ"⁴⁵.

وقال بدر الدين الكناني في تحرير الأحكام: "ويجب نصب إمام بحراسة الدين، وسياسة أمور المسلمين، وكف أيدي المعتدين، وإنصاف المظلومين من الظالمين، ويأخذ الحقوق من مواقعها، ويضعها جمعا وصرفاً في مواضعها، فإن بذلك صلاح البلاد وأمن العباد، وقطع مواد الفساد، لأن الخلق لا تصلح أحوالهم إلا بسُلْطَانٍ يقوم بسياستهم، ويتجرد لحراستهم؛ ولذلك قال بعض الحكماء: جور السُلْطَانِ أَرْبَعِينَ سَنَةً خَيْرٌ مِنْ رِعْيَةِ مُهْمَلَةٍ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ"⁴⁶.

ويقول ابن خلدون: "فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخله فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم"⁴⁷.

وعلى ذلك فأعظم الفرائض على متولي أمر المسلمين حفظ الدين وسائر خططه، وذلك هو ترجمان وصفه ومظهر نعته أعني أنه أمير المؤمنين لما كان قائماً بأمر الدين، ليضفي على من يتولى رعاية الأمة بالمملكة المغربية عنوان الشرعية من حيث كونه مسمى بما دعا الشرع إليه وأمر الأمة بإقامته تحت ذات المسمى ونفس الخطة. وهو الأمر الذي لم يزل هذا البلد يعيش في أكتافه وتتوالى الدول على تحقيقه. فحفظ الله القائمين على هذا الأمر لما علموا أن في حفظ الدين حفظ الملك، وهو الأمر الذي وعاه عقلاء الأمم وحرصوا عليه من حيث إن الدين يطوع القلوب للطاعة ويستجلب معية الله وتأييده. وفي ذلك يقول أبو الحسن الماوردي في الأحكام السلطانية: "وَقَالَ أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابَكٍ فِي عَهْدِهِ إِلَى مُلُوكِ فَارَسٍ إِنَّ الدِّينَ وَالْمُلْكَ تَوْأَمَانِ لَا قَوَامَ لِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ لِأَنَّ الدِّينَ أَسُّ وَالْمُلْكَ حَارِسٌ وَلَا بُدَّ لِلْمُلْكِ مِنْ أَسِهِ وَلَا بُدَّ لِلْأَسِّ مِنْ حَارِسِهِ لِأَنَّ مَا لَا حَارِسَ لَهُ ضَائِعٌ وَمَا لَا أَسَّ لَهُ مِنْهَدَمٌ. وَكَتَبَ حَكِيمُ الرُّومِ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِ: "ادْفَعْ عَنْ دِينِكَ بِمُلْكِكَ وَلَا تَدْفَعْ بِدِينِكَ عَنْ مُلْكِكَ وَصِيرْ

45 - تهذيب الرياسة وترتيب السياسة ص 95 المؤلف: أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن القلعي الشافعي (المتوفى: 630هـ) المحقق: إبراهيم يوسف مصطفى عجمو الناشر: مكتبة المنار - الأردن الزرقاء الطبعة: الأولى.

46 - تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ص 44 المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: 733هـ) المحقق: قدم له: الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، تحقيق ودراسة وتعليق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد الناشر: دار الثقافة بتفويض من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر - قطر / الدوحة الطبعة: الثالثة، 1408هـ-1988م.

47 - المقدمة ص 272.

دنياك وقاية لآخرتك وَلَا تصير آخرتك وقاية لدنياك" ... حتى يقول: "فَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ وَهُوَ تأسيس الدين فَهُوَ أَثْبَتَهَا قَاعِدَةً وَأَدْوَمَهَا مُدَّةً وَأَخْلَصَهَا طَاعَةً"⁴⁸.

فأعظم المقاصد وأشرف الغايات لإقامة هذا المنصب حفظ الدين، وهو ما أمر به الباري سبحانه في قوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾⁴⁹. فالسلطان وسيلة لأشرف الغايات فيكون بذلك من أشرف الوسائل لما كانت الوسائل تشرف بشرف مقاصدها، وذلك معنى الحديث الشريف: "السلطان ظل الله في الأرض"⁵⁰، أي هو من يقيم أحكام الله تعالى في الأرض وينشر دينه وشريعته، فلا قيام للدين إلا به ولا بقاء له بغير الدين، يقول الطرطوشي: "قال كعب: مثل الإسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد، فالفسطاط الإسلام والعمود السلطان، والأطناب والأوتاد الناس، لا يصلح بعضها إلا ببعض"⁵¹.

ولأجل تلك الحكمة كان منصب إمارة المؤمنين أشرف المناصب بعد النبوة على الإطلاق، ومن ثم قالوا: "لَيْسَ فَوْقَ رُتْبَةِ السُّلْطَانِ الْعَادِلِ رُتْبَةٌ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَوْ مَلِكٌ مُقَرَّبٌ"⁵². وقد مر في بيان فضلها ما يؤيد ذلك ويوضحه.

وقد أكد أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس حفظه الله في خطابه لأئمة المؤرخ مساء الجمعة 17 يونيو 2011 على أن مهمة أمير المؤمنين الحفاظ على دين الأمة وحمائته، حيث بين دعامات دستور المملكة بقوله: "فهو يؤسس لنموذج دستوري مغربي متميز، قائم على دعامتين متكاملتين: وتتمثل الدعامة الأولى، في التشبث بالشوايت الراسخة للأمة المغربية، التي نحن على

48 - تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك ص 153/148 المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) المحقق: محي هلال السرحان وحسن الساعاتي الناشر: دار النهضة العربية - بيروت.

49 - الحج/ 39.

50 - شعب الإيمان 478/9 ح: 6988 من حديث أبي بكرة رضي الله عنه المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ) حققه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة: الأولى، 1423هـ-2003م و السنن الكبرى للبيهقي من حديث أنس رضي الله عنه 281/8 ح: 16650 المحقق: محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنات الطبعة: الثالثة، 1424هـ-2003م مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار 17/12 ح: 5383 المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: 292هـ) المحقق: محفوظ الرحمن زين الله وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة الطبعة: الأولى، 2009م.

51 - سراج الملوك ص 61.

52 - تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ص 50.

استمرارها مؤتمنون ؛ وذلك ضمن دولة إسلامية، يتولى فيها الملك، أمير المؤمنين، حماية الملة والدين، وضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية"⁵³.

وقد أكد جلالته هذا المبدأ الثابت حين تحدث عن الفصل 19 من الدستور حيث قال حفظه الله: "ومن معالم فصل السلط، وتوضيح صلاحياتها، تقسيم الفصل 19 في الدستور الحالي، إلى فصلين اثنين: فصل مستقل يتعلق بالصلاحيات الدينية الحصرية للملك، أمير المؤمنين، رئيس المجلس العلمي الأعلى، الذي تم الارتقاء به إلى مؤسسة دستورية"⁵⁴.

وجاء في تصدير دستور المملكة المغربية: "المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة متشبثة بوحدتها الوطنية والترايبية وبصيانة تلاحم وتنوع مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية الإسلامية والأمازيغية والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية. كما أن الهوية المغربية تتميز بتبوء الدين الإسلامي مكانة الصدارة فيها وذلك في ظل تشبث الشعب المغربي بقيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار، والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء"⁵⁵.

وجاء في الفصل الثالث من الدستور: "الإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية"⁵⁶.

- حفظ ضروريات الوجود البشري وتوفير حاجيات الأمة:

فالدين وإن كان رأس الضروريات فإنما تم إفراده لأهميته، وإنما يتقدم الدين على غيره عند التعارض واستحالة الجمع وإلا فإن الكليات متساوية من جهة طلب الشارع. ذلك ومن مقاصد إقامة المنصب كذلك حفظ أمن الأمة وضمان استقرارها وعمارة الأرض وتحقيق وحدة النسيج المجتمعي ودرء الفرقة والتشردم عن الناس. قال الماوردي: "وأما سياسة الملك بعد تأسيسه واستقراره فتشتمل على أربع قَوَاعِدَ وَهِيَ عِمَارَةُ الْبُلْدَانِ وحراسة الرّعية وتدبير الجُند وَتَقْدِيرُ الْأَمْوَالِ"⁵⁷.

53 - مقتطف من نص الخطاب الملكي بمناسبة صياغة دستور 2011.

54 - المرجع السابق.

55 - تصدير دستور المملكة المغربية ص 14.

56 - دستور المملكة المغربية: الفصل 3 نشر وزارة العدل والحريات إصدارات مركز الدراسات وأبحاث السياسة الجنائية بمديرية الشؤون الجنائية والعفو - سلسلة نصوص قانونية - شتنبر 2011، العدد 9.

57 - تسهيل النظر للماوردي ص 158 ن: درر السلوك في سياسة الملوك ص 89 المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد الناشر: دار الوطن - الرياض.

وفي إقامة السلطان إقامة العدل بين الرعية ودرء الظلم وانتظام الناس وارعواؤهم عن الفساد في الأرض، وذلك بضرب الإمام على يد الظالم والحرص على ما يحفظ بيضتهم، ولعل ذلك من أعظم مقاصد هذا المنصب بعد مقصد إقامة الدين، لما كانت وحدة الأمة وانتظامها واستقرار أمنها يتحصل به كل ما وراءه. وفي تقرير ذلك وبيانه يقول الإمام أبو بكر الطرطوشي: "اعلموا أرشدكم الله أن في وجود السلطان في الأرض حكمة الله تعالى عظيمة ونعمة على العباد جزيلة، لأن الله سبحانه وتعالى جبل الخلائق على حب الانتصاف وعدم الإنصاف، ومثلهم بلا سلطان كمثل الحوت في البحر يزدد الكبير الصغير، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر ولم يستقر لهم معاش ولم يتهنوا بالحياة. ولهذا قال بعض القدماء: لو رفع السلطان من الأرض ما كان لله في أهل الأرض من حاجة. ومن الحكم التي في إقامة السلطان: إنه من حجج الله تعالى على وجوده سبحانه وتعالى، ومن علاماته على توحيده، لأنه كما لا يمكن استقامة أمر العالم واعتداله بغير مدير ينفرد بتدبيره، كذلك لا يتوهم وجوده وتدبيره وما فيه من الحكمة ودقائق الصنعة بغير خالق خلقه وعالم أنقنه وحكيم دبره، وكما لا يستقيم سلطانان في بلد واحد لا يستقيم إلهان للعالم، والعالم بأسره في سلطان الله تعالى كالبلد الواحد في يد سلطان الأرض. ولهذا قال علي بن أبي طالب: أمران جليلان لا يصلح أحدهما إلا بالتفرد، ولا يصلح الآخر إلا بالمشاركة وهما الملك والرأي، فكما لا يستقيم الملك بالشركة لا يستقيم الرأي بالانفراد به"⁵⁸.

وقال صاحب الدرة الغراء: "لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ نَصَبِ إِمَامٍ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ، مِنْ إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ، وَتَنْفِيزِ الْأَحْكَامِ، وَتَرْوِيجِ الْأَيْتَامِ، وَقَطْعِ الْمُنَازَعَةِ بَيْنَ الْأَنْثَامِ، وَإِقَامَةِ الْأَعْيَادِ وَالْجُمُعِ وَالْحُدُودِ، وَأَخْذِ الْعَشُورِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ، وَصَرْفِهَا إِلَى مَصَارِفِهَا بِمُوجِبِ الشَّرْعِ، وَقَهْرِ الْمُتَغَلِّبَةِ وَالْمُتَلَصِّصَةِ وَقَطَاعِ الطَّرِيقِ، وَقَبُولِ الشَّهَادَاتِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْحُقُوقِ، وَإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ عَلَى الْعَوَامِ، وَالْحِرَاسَةِ لِبَيْضَةِ الْإِسْلَامِ، وَتَجْهِيزِ جِيُوشِهِمْ، وَتَقْسِيمِ غَنَائِمِهِمْ، وَحِفْظِ أَمْوَالِ بَيْتِ الْمَالِ، وَأَمْوَالِ الْغَانِمِينَ، وَأَمْوَالِ الْيَتَامَى، وَإِقَامَةِ هَذِهِ الْأُمُورِ وَاجِبَةً"⁵⁹.

وقال أبو النجيب الشيزري: "لَمَّا كَانَتْ الرَّعِيَّةُ ضَرْوبًا مُخْتَلِفَةً وَشُعُوبًا مُخْتَلِفَةً مُتَبَايِنَةً الْأَغْرَاضِ وَالْمَقَاصِدِ مَفْتَرِقَةً الْأَوْصَافِ وَالطَّبَائِعِ افْتَقَرَتْ ضَرُورَةً إِلَى مَلِكٍ عَادِلٍ يَقُومُ أَوْدَهَا وَيُقِيمُ عَمْدَهَا وَيَمْنَعُ ضَرَرَهَا وَيَأْخُذُ حَقَّهَا وَيَذِبُ عَنْهَا مَا أَشَقَّهَا وَمَتَى خَلَّتْ مِنْ سِيَاسَةِ تَدْبِيرِ الْمَلِكِ كَانَتْ كَسْفِينَةٍ

58 - سراج الملوك ص 47-48 المؤلف: أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (المتوفى: 520هـ) الناشر: من أوائل المطبوعات العربية 1289هـ-1872م وينظر المنهج السلوك للشيزري ص 167.

59 - الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء ص 112 المؤلف: محمود بن إسماعيل بن إبراهيم بن ميكائيل الحَيْرَبَتِي (المتوفى: 843هـ) الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - الرياض.

فِي الْبَحْرِ اكْتَنَفَتْهَا الرِّيحُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَالْأَمْوَاجُ الْمَتَظَاهِرَةُ قَدْ أَسْلَمَهَا الْمَلَا حُونَ وَاسْتَسَلَمَ أَهْلُهَا إِلَى الْمُنُونِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الرِّعِيَّةَ تَسْتَظْمِيءُ إِلَى عَدْلِ الْمَلِكِ وَتُدْبِرُهُ اسْتَظْمَاءُ أَهْلِ الْجَدْبِ إِلَى الْغَيْثِ الْوَابِلِ وَيَنْتَعِشُونَ بِطَلْعَتِهِ عَلَيْهِمْ كَانْتَعَاشِ النَّبْتِ بِمَا يَنَالُهُ مِنْ ذَلِكَ الْقَطْرِ بَلِ الرِّعِيَّةُ بِالْمَلِكِ أَعْظَمُ انْتِفَاعًا مِنْهَا بِالْغَيْثِ لِأَنَّ لِلْغَيْثِ وَقْتًا مَعْلُومًا وَسِيَاسَةَ الْمَلِكِ دَائِمَةٌ لَا حَدَّ لَهَا وَلَا وَقْتٌ⁶⁰.

وقال الكناني: "وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ خَيْرٌ مِنْ مَطَرٍ وَابِلٍ. وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ، فَإِذَا عَدَلَ لَزِمَتْ الرِّعِيَّةُ الْعَدْلَ وَقَوَانِينُهُ، فَانْتَعَشَ الْحَقُّ، وَتَنَاصَفَ النَّاسُ، وَذَهَبَ الْجَوْرُ، فَتَرَسَلَ السَّمَاءُ بِرَكَاتِهَا، وَتَخَرَجَ الْأَرْضُ نَبَاتِهَا، وَتَكَثَرَ الْخَيْرَاتُ وَتَنَمَوُ التَّجَارَاتُ"⁶¹.

وقال الماوردي: "فِي طِبَاعِ الْعُقَلَاءِ مِنَ التَّسْلِيمِ لِزَعِيمٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الظَّالِمِ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فِي التَّنَازُعِ وَالتَّخَاصُمِ، وَلَوْلَا الْوَلَاةُ لَكَانُوا فَوْضَى مُهْمَلِينَ، وَهَمَجًا مُضَاعَيْنِ، وَقَدْ قَالَ الْأَفْوَهُ الْأَوْدِيُّ، وَهُوَ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ ❀ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهِاهَلُهُمْ سَادُوا"⁶².

وَنَقَلَ الطَّرطُوشِي. رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾⁶³: "يَعْنِي لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقَامَ السُّلْطَانَ فِي الْأَرْضِ يَدْفَعُ الْقَوِيَّ عَنِ الضَّعِيفِ وَيَنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ، لِأَهْلَكَ الْقَوِيَّ الضَّعِيفَ وَتَوَاتَبَ الْخَلْقُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَلَا يَنْتَظِمُ لَهُمْ حَالٌ وَلَا يَسْتَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ فَتَفْقَدُ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَمَتَنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْخَلْقِ بِإِقَامَةِ السُّلْطَانِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾"⁶⁴، يَعْنِي فِي إِقَامَةِ السُّلْطَانِ فِي الْأَرْضِ فَيَأْمَنُ النَّاسُ بِهِ، فَيَكُونُ فَضْلُهُ عَلَى الظَّالِمِ كَفَ يَدِهِ وَفَضْلُهُ عَلَى الْمَظْلُومِ أَمَانَةٌ وَكَفَ يَدِ الظَّالِمِ عَنْهُ"⁶⁵.

وقال الفخر الرازي عند تفسيره للآية: "وَاعْلَمْ أَنَّ الدَّافِعِينَ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثُمَّ الْأَئِمَّةُ وَالْمُلُوكُ الذَّابُونَ عَنْ شَرَائِعِهِمْ، وَتَقْرِيرُهُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ الْوَاحِدَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَعِيشَ وَحْدَهُ، لِأَنَّهُ مَا لَمْ يَجْزِ هَذَا لِذَلِكَ وَلَا يَطْحَنُ ذَاكَ هَذَا، وَلَا يَبْنِي هَذَا لِذَلِكَ، وَلَا يَنْسِجُ ذَاكَ هَذَا، لَا تَتِمُّ

60 - المنهج السلوكي في سياسة الملوك ص 165 المؤلف: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب، جلال الدين العدوي الشيرازي الشافعي (المتوفى: نحو 590هـ) المحقق: علي عبد الله الموسى الناشر: مكتبة المنار - الزرقاء - دت.

61 - تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ص 50.

62 - الأحكام السلطانية ص 15-16 المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) الناشر: دار الحديث - القاهرة.

63 - البقرة/ 249.

64 - البقرة/ 249.

65 - سراج الملوك ص 44.

مَصْلَحَةُ الْإِنْسَانِ الْوَاحِدِ، وَلَا تَتِمُّ إِلَّا عِنْدَ اجْتِمَاعِ جَمْعٍ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، فَلِهَذَا قِيلَ: الْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ، ثُمَّ إِنَّ اجْتِمَاعَ سَبَبِ الْمُنَازَعَةِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْمُخَاصَمَةِ أَوَّلًا، وَالْمُقَاتَلَةِ ثَانِيًا، فَلَا بُدَّ فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ وَضْعِ شَرِيعَةٍ بَيْنَ الْخَلْقِ، لِتَكُونَ الشَّرِيعَةُ قَاطِعَةً لِلْخُصُومَاتِ وَالْمُنَازَعَاتِ، فَلَا أَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّذِينَ أَوْتُوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِهَذِهِ الشَّرَائِعِ هُمْ الَّذِينَ دَفَعَ اللَّهُ بِسَبَبِهِمْ وَبِسَبَبِ شَرِيعَتِهِمُ الْآفَاتِ عَنِ الْخَلْقِ فَإِنَّ الْخَلْقَ مَا دَامُوا يَبْقَوْنَ مُتَمَسِّكِينَ بِالشَّرَائِعِ لَا يَقَعُ بَيْنَهُمْ خِصَامٌ وَلَا نِزَاعٌ، فَالْمُلُوكُ وَالْأَئِمَّةُ مَتَى كَانُوا يَتَمَسَّكُونَ بِهَذِهِ الشَّرَائِعِ كَانَتِ الْفِتْنُ زَائِلَةً، وَالْمَصَالِحُ حَاصِلَةً فَظَهَرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْفَعُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْوَاعَ شُرُورِ الدُّنْيَا بِسَبَبِ بَعْثِهِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَعَلِمَ أَنَّهُ كَمَا لَا بُدَّ فِي قَطْعِ الْخُصُومَاتِ وَالْمُنَازَعَاتِ مِنَ الشَّرِيعَةِ فَكَذَا لَا بُدَّ فِي تَنْفِيزِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْمُلْكِ..... وَلِهَذَا يَدْفَعُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ أَنْوَاعَ شُرُورِ الدُّنْيَا بِسَبَبِ وَضْعِ الشَّرَائِعِ وَبِسَبَبِ نَصْبِ الْمُلُوكِ وَتَقْوِيَتِهِمْ"⁶⁶.

وقال ابن عجيبة الحسني: "لولا أن الله نصب السلطان، وأقام الحكام لينصفوا المظلوم من الظالم، ويردوا القوي عن الضعيف، لتواثب الخلق بعضهم على بعض، وأكل القوي الضعيف فيفسد النظام"⁶⁷.

ويقول ابن الأزرقي الأندلسي: "وَلَا يَفْهَمُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ مُرَادُ الْحُكَمَاءِ بِهِ وَهُوَ أَنَّ الشَّرَّ اللَّازِمَ عَنِ الْخَيْرِ الرَّاجِحِ غَيْرَ مَقْصُودٍ بِالذَّاتِ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الْقَصْدُ الْخَلْقِيُّ التَّكْوِينِيُّ وَمُرَادُ الْأَئِمَّةِ بِهِ حَيْثُ الْقَصْدُ التَّشْرِيعِيُّ وَيَبِينُهُمَا فَرْقٌ مُقَرَّرٌ فِي مَوَاضِعِهِ مِنَ الْأُصُولِ الْعِلْمِيَّةِ"⁶⁸.

وبعد هذه الجولة العلمية في كلام الأئمة يتقرر كون منصب إمارة المؤمنين مشروعاً واجب الحصول لما يترتب عليه من أعظم المقاصد وأكمل الغايات، ولأجل كل ذلك لم تزل مملكتنا الشريفة ترفل في أثواب العز والسؤدد، وقد تقلد معاهد الرفعة في حكمها الأخيار المشهود لهم بالاستحقاق المعقود على فضلهم بالاتفاق، كابرا عن كابر وولدا عن والد من ذوي الشرف العتيق والفخر التالذ، والحمد لله رب العالمين.

66 - مفاتيح الغيب 519/6.

67 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد 290/1 المؤلف: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي (المتوفى: 1224هـ) المحقق: أحمد عبد الله القرشي الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة الطبعة: 1419هـ، وينظر زهرة التفاسير 908/2 - 914 فثمة كلام طويل عن الآية وهو نفيس في ما نحن بصده، المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ) دار النشر: دار الفكر العربي.

68 - بدائع السلك لابن الأزرقي ص 68.

التأطير الديني بين الأمن الروحي والأمن القومي التجربة المغربية نموذجاً

د. عبد الهادي الخليلي
مؤسسة دار الحديث الحسنية
بالرباط

مدخل:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه؛ أما بعد:

فإن الشرائع إنما وضعت لحفظ مصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي مصالح تتفاوت بتفاوت قوتها، وحاجة الخلق إليها، فمنها الضروري والحاجي والتحسيني، ولا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا برعايتها والمحافظة عليها، وفوات هذه المصالح - لاسيما الضروري منها - يعرض حياة الناس للتلف والفوضى وعدم الاستقرار. ولحفظ هذه المصالح ألزم الخلق بامثال التكاليف الشرعية جميعها، وهي من حيث حفظها لها نوعان:

1- تكاليف تحفظها من جهة الوجود.

2- وتكاليف تحفظها من جهة العدم.

ويعد تحقيق الأمن من أعظم ما تُحفظ به هذه المصالح، من الجهتين، بل هو من مقومات الأمة الرئيسة، ولأجل ذلك اعتبره الشارع، وقضى بتحقيقه يوم خلق السماوات والأرض، وامتَنَّ به على خلقه، فاستحق لذلك الصدارة في شروط العيش الكريم في قوله ﷺ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمُهُ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا".

وفي هذا العصر الذي كثر فيه الهرجُ، في بعض الأقطار، بسبب ما اجترحتهُ شرذمة أساءت فهم هذا الدين العظيم، وانحرفت به عن منهجه ومساره القويم، فكان لزاما على أهل العلم والرأي أن ينهضوا بواجب البيان والنصح لدين الله وحماية المسلمين من خطرهم.

1 - أخرجه الترمذي في الجامع 2346 وابن ماجه في السنن: 4141.

وقد رأيت أن خير ما أسهم به في هذا الصدد، وفي هذه الظروف، أن أبرز بُعدين طريفيين من أبعاد الأمن في المنظور الإسلامي، هو الأمن الروحي والقومي انطلاقاً من دراسة مقارنة في ضوء نصوص الشرع ومقاصده مع تطبيق وتلميح للتجربة المغربية في مجال الدراسة: بعنوان: "التأطير الديني بين الأمن الروحي والأمن القومي: التجربة المغربية أنموذجاً".

المطلب الأول: تحديد المصطلحات

1. مفهوم التأطير الديني

• مفهوم التأطير

الهمزة والطاء والراء أصل واحد، وهو عطف الشيء على الشيء أو إحاطته به. قال أهل اللغة: "كل شيء أحاط بشيء فهو إطار". ويقال لما حول الشفة من حرفها إطار. ويقال: بنو فلان إطار لبني فلان: إذا حلوا حولهم².

• مفهوم الدين

الدَّالُّ والياء والنون أصل واحدٌ إليه يرجعُ فروعه كُلُّها. وهو جنسٌ من الانقياد، والدُّلٌّ فالدين: الطَّاعة، يقالُ دانَ لهُ يدينُ ديناً، إذا أصحبَ وانقادَ وطاعَ. وقومٌ دينٌ، أي: مطيعون مُنقادون³.

• مفهوم التأطير الديني

التَّأطير هو جعل الموضوعات والوقائع والأشخاص داخل إطارٍ مُحدد، يجعل الفاعل يتفاعل معها حسب التصور الذي يحدده هذا الإطار، وفق ما حصله أو توصل به من معلومات؛ فتنتج أحكاماً مناسبة.

ووصف التأطير بالديني يمس كل ما هو ديني ويتحدد في التدبير والتكوين والتأهيل، فالتكوين يستهدف إعداد الموارد البشرية الجديدة التي ستقوم بتدبير الشأن الديني، ومنه التجربة المغربية من خلال تكوين الأئمة والمرشدين في معهد محمد السادس نصره الله لتكوين الأئمة والمرشدين، أما التأهيل وإعادة التأهيل يستهدف الارتقاء بمعلومات الموارد البشرية التي تقوم فعلاً

2 - معجم مقاييس اللغة: أطر

3 - معجم مقاييس اللغة: دين

بعملية التدبير لتواكب المرحلة، ومنه خطة ميثاق العلماء والدورات التكوينية، ويعتبر التأهيل وإعادة التأهيل من اختصاصات المجالس العلمية بمقتضى الخطاب الملكي بمناسبة تنصيب المجلس العلمي الأعلى والمجالس المحلية....

أما التدبير فقد أصدرت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مجموعة من الأدبيات والنصوص القانونية والإدارية والمسطرية المؤطرة للشأن الديني، تلامس هذا الشأن في مجالاته المختلفة وهو شأن إداري محض.

فالتأطير الديني إذن هو وضع إطار لكل تخصص - تكوين، تأهيل، تدبير-، ولكل المهام ورسم الحدود التي يمكن للمؤطر أن يتصرف في حدودها وداخل الثوابت الدينية للمملكة المغربية.

• مفهوم الأمن

الأمن من المصطلحات الثَّرة لغوياً، يطوي تحته مجموعة من الدلالات ذات العلاقة، مما يستدعي صرف العناية إلى تحديده أكثر عند الكلام عليه، ونظرة عجيلى في كتب اللغة كفيلاً باستجلاء هذه المعاني، ويمكن أن نرجعها إلى معنيين اثنين، هما: الطمأنينة وعدم الخوف، يقول ابن فارس: "الميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضدّ الخيانة، ومعناها سُكون القلب..."⁴. وأوضح من هذا قول الراغب الأصفهاني: "أصل الأمن طمأنينة النفس، وزوال الخوف"⁵.

وعند إعمال النظر يتبين لنا أن المعنى الأوّل - وهو سكون القلب وطمأنينة النفس - ما هو إلا نتيجة لتحقيق المعنى الثاني - أي: زوال الخوف. وبيان ذلك أنه إذا زال الخوف، اطمأنت النفس، فتعزى الإنسان حالة شعورية بتحقيق الأمن، وهو مُصَمَّن قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: 4 و5]. والأمن بهذا المفهوم هو المقصود شرعاً، وإن كان أرحب مجالاً، وبيان ذلك أن الإسلام يقرر وجود حياتين: دنيا دار ابتلاء، وأخرى دار جزاء، ولما كان الأمر كذلك كان لكل حياة أمنها، وأياً كان مجال الأمن فالشريعة قصدت إلى تحقيقه، غير أن الأمن الأخروي مقصودٌ قصد الغايات، والأمن الدنيوي مقصودٌ قصد الوسائل، وهو في الأولى تكليف، وهو نسبي، وفي الأخرى جزاء، وهو مطلق.

ونتيجة لذلك يمكن أن نقول مطمئنين إن الأمن في الإسلام هو: الاطمئنان لعدم توقع مكروه في الزمن الآتي⁶.

4 - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة مادة (أمن).

5 - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 90، مادة (أمن).

6 - الجرجاني، علي بن محمد. التعريفات ص 55، المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، ص 94.

ولن أخوض غمار تفصيل القول في الأمن ومجالاته فالموضوع يصرفنا عن ذلك، ويصرفنا إلى الكلام عن بُعدين من أبعاد الأمن في هذه الديار، وهو البعد الروحي والبعد القومي في الأمن وسبل تحقيقهما، وهو على أهميته وطرافته لم تتناوله الدراسات حق التناول، حتى يسر الله هذه المجلة الغراء، في هذا البلد الآمن، لتفتح لنا مجالاً يُمْكِنُنا من خلاله أن نُسهِم فيه بهذه الورقة التي تجمع بين التأصيل والتطبيق.

• مفهوم «الأمن الروحي»:

يتألف المصطلح من كلمتين، ولتعريف مصطلح من هذا القبيل لابد من تعريفه تعريفين؛ تفصيلي، وإجمالي:

التعريف التفصيلي:

يتألف مصطلح «الأمن الروحي» من موصوف وصفة، "أمن" و"روح".

أما الأمن فقد سبق تعريفه بكونه: "الاطمئنان لعدم توقع مكروه في الزمان الآتي".

وأما الروح فيقول ابن فارس⁷: "الراء والواو والحاء أصل كبير مطّرد، يدل على سعة وفسحة واطّراد. وأصل ذلك كله الرّيح، وأصل الياء في الرّيح الواو، وإنما قلبت ياءً بكسرة ما قبلها. فالرّوح رُوح الإنسان، وإنما مشتق من الرّيح، وكذلك الباب كله، والرّوح نسيم الرّيح، ويقال أراح الإنسان، إذا تنفّس،..

والروح بالضم النفس، يذكر ويؤنث، لأن العرب تذكر الروح وتؤنث النفس أو جمعه أرواح.

الروح في عرف الشرع

وردت كلمة الروح في القرآن الكريم على سبعة أوجه⁸.

1- وردت بمعنى الرحمة: وأيدهم بِرُوحٍ مِنْهُ [المجادلة: 21].

2- بمعنى الملك العظيم الذي يكون في إزاء جميع الخلق يوم القيامة: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا» [النبا: 38].

7 - المقاييس في اللغة، ابن فارس: روح.

8 - بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي 3/ 105.

- 3- بمعنى جبريل: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ [الشعراء: 193 - 194]
 - 4- بمعنى الوحي والقرآن: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52]
 - 5- بمعنى عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: 170]
 - 6- بمعنى اللطيفة التي فيها مدد الحياة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].
 - 7- بمعنى القوة والثبات والنصرة التي يؤيد الله بها من شاء من عباده المؤمنين، قال ابن القيم: كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: 21].
- قال الشيخ متولي الشعراوي: لا سبيل إلى تحديد البشر للروح، إلا أنهم يعرفونها بظواهرها في الكائن الذي تحل فيه الروح. فالروح إذا طاقة غامضة، محجوبة عن الإدراك، وهي حقيقة موجودة معروفة بظواهرها⁹.

التعريف الإجمالي:

الأمن معنى عام، له أبعاد متعددة، فجاءت الصفة في هذا المصطلح لتخصصه بنوع واحد وبُعد واحد، ومصطلحات من قبيل الطمأنينة والتوقع .. لا يمكن أن توصف بهما الروح حقيقة؛ بل على سبيل المجاز، وهو الواقع، فوصف الروح بكونها آمنة أي: صاحبها، ومن باب قول القرطبي: " (آمنا) ذا أمن"¹⁰، فأمن البلد مجاز، والمراد: أمن من فيه.

فالمراد بالأمن الروحي إذن هو: «جعل النفس البشرية تَأْمَنُ باعتقادها وإيمانها»، وتعبير آخر: «تحقيق ما تأمن به النفس البشرية بدينها»¹¹.

• مفهوم «الأمن القومي»:

والأمن القومي كالأمن الروحي يتألف من موصوف وصفة.

يقول ابن فارس في بيان الموصوف (قوم) القاف والواو والميم أصلاً صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما استعير في غيرهم. والآخر على انتصاب أو عزم¹².

9 - الشعراوي؛ أنت تسأل والإسلام يجيب.

10 - القرطبي؛ الجامع لأحكام القرآن: 300/13.

11 - وقد استعمل بهذا المعنى في كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ سورة الزمر، الآية 29.

12 - معجم مقاييس اللغة: قوم. ج 5 ص 43.

فَالْقَوْمُ: الجماعة من النَّاس تجمعهم جماعة يقومون لها وَقَوْمُ الرَّجُل: أَقْرَبَاؤُهُ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ مَعَهُ فِي جَدٍّ وَاحِدٍ أَوْ سُلَالَةٍ وَاحِدَةٍ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾¹³ وَقَالَ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾¹⁴.

ونسب القوم في القرآن إلى نبيهم مثل قوم شعيب وقوم لوط وقوم عاد....، ونسبوا إلى صفة مثل قوم تبع.

فالمراد بالأمن القومي جعل جماعة ناس معينين آمنين في وطنهم أو مكان عيشهم.

- الأمن القومي في الاصطلاح

الأمن القومي مصطلح سياسي حديث يعني القيام بدراسات في مجالات مختلفة تحدد عناصر الضعف الإستراتيجي في الإقليم القومي، من أجل العمل على تخطيها عبر اتخاذ إجراءات وقائية تضمن ألا يكون ذلك مصدراً لإشكاليات داخلية أو خارجية قد يكون لها انعكاس سلبي مدمر أو سالب لحالة الأمن.

وتعتبر العلوم الدينية الملهم الأساس والمحرك الفعلي للأمن القومي، كما أن الدولة التي تمتلك أيديولوجيا واضحة تستند إليها في تطلعاتها لتحقيق غاياتها القومية لا يمكن أن ترتقي نحو الرفعة دون أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار.

وتشارك دراسات الأمن القومي اشتراكاً مباشراً مع كافة العلوم الإنسانية الطبيعية؛ لأنها تعتبر بمثابة الإطار الجامع الذي يستخدم كل هذه العلوم لخدمة المجتمع والدولة، وتتفاوت أهمية تلك العلوم في علاقاتها التكوينية بالأمن القومي، فدراسات الأمن القومي ليست علماً مستقلاً بذاته يدار وفق قواعد وأسس علمية ثابتة، بل هي في الأساس تكوين فكري إستراتيجي يستخدم كل العلوم من أجل تحقيق أعلى مستويات الأمن بما يتوافق مع الغايات القومية.

وترتبط دراسات الأمن القومي بعلم الجغرافيا السياسية والطبيعية وأرضية الكياسة والتاريخ وفلسفته، كما تستند إلى العلوم السياسية، وتعد الدراسات الإقليمية والنظم السياسية والكياسة والعلوم الأمنية بكل أنواعها من أهم الأدوات المستخدمة في دراسات الأمن القومي، بل وتدخل في صميمها. بالإضافة إلى ارتباط العلوم الإدارية وخصوصاً أساسيات الإدارة والتخطيط الإستراتيجي وفن القيادة بدراسات الأمن القومي.

13 - سورة الأنعام 67.

14 - سورة الشعراء: الآية 105.

ونظراً لتعدد الاختصاصات وتداخلها فقد تباينت وجهة نظر المفكرين العرب بشأن تعريفهم لمفهوم الأمن القومي؛ لأن المفهوم يرتبط بالغاية القومية لكل دولة ولذلك فهو يختلف بين دولة وأخرى.

والأمن القومي ليس علماً منفصلاً بذاته كعلم السياسة أو الأمن، وإنما هو مزيج من العلوم المختلفة تتوزع بحسب أهميتها إلى علوم تكوينية وعلوم أساسية وأخرى مساعدة¹⁵.

ولذلك نخلص إلى تعريف جامع ل د. إبراهيم محمود حبيب: الذي يرى أن الأمن القومي هو مجموعة الإجراءات التي تتخذها الدولة وفق خطة تنموية شاملة لحماية مصالحها الداخلية والخارجية من أي تهديد، وبما يضمن تحقيق أهدافها وغاياتها القومية¹⁶.

ورغم تعدد خصائص الأمن القومي فإنه يقوم على ركنين أساسيين:

الركن الأول مادي: ويشمل كل العناصر والمقومات المادية لحياة الأمة والدولة المتمثلة في المسكن والمأكل وكافة مقومات الحياة، بما فيها فرص العمل والتعليم والصحة والخدمات الاجتماعية وسواها.

15 - أصول دراسات الأمن القومي (أصول إدارة الدولة) - المؤلف: د. إبراهيم محمود حبيب، ص 10 وما بعدها. تناول المؤلف في الفصل الأول من كتابه التطور التاريخي لدراسات الأمن وقسمه إلى أربع مراحل: مرحلة ما قبل الإسلام، ومرحلة ما بعد ظهور الإسلام، ومرحلة عصر النهضة في أوروبا، وأخيراً مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي شهدت أول ظهور رسمي لمصطلح الأمن القومي في الولايات المتحدة الأميركية، عقب انتصارها في الحرب وتشكيلها لمجلس الأمن القومي. كما ذكر مؤلف الكتاب أن الولايات المتحدة الأميركية كان لها قصب السبق في التأصيل لدراسات الأمن القومي كعلم مدون، وكانت أول دولة على مستوى العالم تعد صياغة مكتوبة لإستراتيجيتها للأمن القومي، وقد تبعتها في ذلك العديد من الدول المتقدمة والنامية التي سعت إلى اللحاق بركب الدول المتقدمة.

أما الدول العربية والإسلامية النامية فالظاهر أن وضعها لم يسمح بعد بهذه الدراسات شأنها في ذلك شأن الميزانيات الضئيلة المخصصة للبحث العلمي نظراً لعدة اعتبارات سياسية واقتصادية وسواها. في حين يرى مؤلف كتاب أصول الأمن القومي أنها لم تبد اهتماماً بهذه الدراسات.

16 - ومن الساسة وصناع القرار من يعتبر مفهوم الأمن القومي دراسة للقومية، رغم اختلافه عنها تماماً، ومنهم من يعتبره مصطلحاً خاصاً لا يمكن تطبيقه إلا في الدول الكبرى فقط.

ولمفهوم الأمن القومي خصائص أربع أساسية، فهو مفهوم إستراتيجي لكونه يعالج مكونات حياة الأمة والدولة المادية والمعنوية على المدى المتوسط والبعيد، وهو أيضاً حقيقة نسبية يتأتى من خلاله تحديد الغايات القومية للدولة، كما أنه متغير لقدرته على توجيه الدولة نحو البناء الإيجابي، متحدياً الثوابت السلبية للتاريخ والجغرافيا.

والخاصية الأخيرة التي يتمتع بها الأمن القومي هي أنه يصعب وضعه في إطار محدد لعدم وجود إطار عام يحدد مفهومه وغاياته التي عادة ما تستنبط من مشروع قيادة الدولة. أصول دراسات الأمن القومي (أصول إدارة الدولة) ص 55 وما بعدها - المؤلف: د. إبراهيم محمود حبيب، الطبعة الأولى/ 2010م.

والركن الثاني معنوي: ويشمل كل العوامل المعنوية المتمثلة في العقيدة والدين والثقافة والحضارة¹⁷.

المطلب الثاني: علاقة التأطير الديني بالأمن الروحي والقومي في التجربة المغربية

أخذ المغاربة الإسلام معتقدا وفقها، سياسة وتنزيلا بالسند العالي، فالمولى إدريس أول من أسس لدولة تقوم على البيعة الشرعية وتستقل استقلالاً تاماً عن المشرق، وهو ما جعل المغرب يبقى بمنأى عن التيارات الفكرية المختلفة، وبالتالي لم تتأثر عقيدة أفرادها، ولم تمس وحدة أراضيه واتحاد قبائله، مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم.

وتعتبر الملكية بالمغرب، بصفة الملك أميراً للمؤمنين نصره الله، هي الضامن للأمن الروحي للمواطنين فبنص الدستور: "الملك، أمير المؤمنين وحامي همى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية. يرأس الملك، أمير المؤمنين، المجلس العلمي الأعلى، الذي يتولى دراسة القضايا التي يعرضها عليه. ويعتبر المجلس الجهة الوحيدة المؤهلة لإصدار الفتاوى التي تعتمد رسمياً، في شأن المسائل المحالة إليه، استناداً إلى مبادئ وأحكام الدين الإسلامي الحنيف، ومقاصده السمحة. تحدد اختصاصات المجلس وتأليفه وكيفية سيره بظهير. يمارس الملك الصلاحيات الدينية المتعلقة بإمارة المؤمنين، والمخولة له حصرياً، بمقتضى هذا الفصل، بواسطة ظهائر"¹⁸.

وقد قرر هذا جلالته في خطابه في 30 أبريل 2004 بقوله: "حضرات السيدات والسادة، لقد دأبنا منذ تقلدنا إمارة المؤمنين، ملتزمين بالبيعة المقدسة، وما تقتضيه من حماية الملة والدين، على إيلاء الشأن الديني الأهمية الفائقة، والحرص على قيام مؤسساته بوظائفها على أكمل وجه، والعناية بأحوال الساهرين عليها، والسير على النهج القويم لأسلافنا المنعمين، في الحفاظ على الأمن الروحي للمغرب، ووحدة المذهب المالكي"¹⁹.

فالشأن الديني يتأطر بخطابات جلالته تلك الخطابات الملكية لها قيمة دستورية وليست مجرد خطابات سياسية، فالعرف الدستوري يجعلها مرجعاً لكل الفاعلين السياسيين وعلى الحكومة أن

17 - أصول دراسات الأمن القومي (أصول إدارة الدولة) - الفصل الثاني: ص 55-60 المؤلف: د. إبراهيم محمود حبيب، الطبعة الأولى/ 2010م.

18 - دستور المملكة المغربية 2011 الباب الثالث، الملكية، الفصل 41.

19 - الخطاب الملكي السامي في تنظيم المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بتاريخ 10 ربيع الأول 1425هـ، الموافق لـ 30 أبريل 2004م بالدار البيضاء.

تكيف سياستها العمومية انطلاقاً مما تتضمنه الخطاب الملكية بل يمكن أن تعدل سياستها لتتوافق مع ما جاءت به تلك الخطاب من توجيهات.

ويحظى هذا الشأن في الخطاب الملكية بحيز وافر، وما فتئ جلالته يكرر فيها التأكيد على المحافظة على الأمن الروحي كهدف معلن في السياسة الشرعية في المجال الديني في المغرب ففي خطاب تطوان صرح جلالته قائلاً: "هدفنا الأسمى، تعزيز المساهمة الفاعلة لعلمائنا الأفاضل، في المسار الإصلاحي والتحديثي الذي نقوده في سائر المجالات، ولا سيما قيامهم بتعزيز الأمن الروحي للأمة بتحسين عقيدتها السننية السمحة"²⁰.

ويحدد التوجهات وينبذ الاختلاف في الشأن الديني ومرجعياته في نفس الخطاب حين يقول جلالته: "وإذا كان من طبيعة تدبير الشؤون الدنيوية العامة الاختلاف، الذي يعد من مظاهر الديمقراطية، والتعددية في الآراء لتحقيق الصالح العام، فإن الشأن الديني، على خلاف ذلك، يستوجب التثبيت بالمرجعية التاريخية الواحدة للمذهب المالكي السني، الذي أجمعت عليه الأمة، والذي نحن مؤمنون على صيانتها، معتبرين التزامنا دينياً بوحدة المذهبية، كالتزامنا دستورياً بالوحدة الترابية الوطنية للأمة، حريصين على الاجتهاد الصائب، لمواكبة مستجدات العصر"²¹.

ويرسم التوجهات والخطوط العريضة والأهداف التي وجب أن يركز عليها الإصلاح ويسير عليها المجلس العلمي الأعلى ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الذين يسهرون على التنزيل، فيقول جلالته: "ها نحن اليوم، نشرع في إرساء وتفعيل ما سهرنا على إعداده، من إستراتيجية مندمجة وشمولية، متعددة الأبعاد، ثلاثية الأركان، لتأهيل الحقل الديني وتجديده، تحصيلنا للمغرب من نوازع التطرف والإرهاب، وحفاظاً على هويته المتميزة بالوسطية والاعتدال والتسامح"²².

وينبه على نوعية العلماء التي يجب أن تتشكل منهم المجالس العلمية بقوله: "وذلك بتشكيلها من علماء، مشهود لهم بالإخلاص لثوابت الأمة ومقدساتها، والجمع بين فقه الدين والانفتاح على قضايا العصر"²³.

20 - الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله يوم السبت بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالته للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى بتاريخ 27 شتنبر 2008م.

21 - الخطاب الملكي السامي في تنظيم المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بتاريخ 10 ربيع الأول 1425، الموافق لـ 30 أبريل 2004 بالدار البيضاء.

22 - الخطاب الملكي السامي في تنظيم المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بتاريخ 10 ربيع الأول 1425، الموافق لـ 30 أبريل 2004 بالدار البيضاء.

23 - الخطاب الملكي السامي في تنظيم المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بتاريخ 10 ربيع الأول 1425، الموافق لـ 30 أبريل 2004 بالدار البيضاء.

كما أعرب عن سياسته الرشيدة وعبر عن المقاصد المرجوة المتمثلة في التصدي للفتنة والذي ينتج عنه تحقيق الأمن الروحي والقومي فقال جلالتة: "وصيانة للحقل الديني من التطاول عليه من بعض الخوارج عن الإطار المؤسسي الشرعي، فقد أسندنا إلى المجلس العلمي الأعلى اقتراح الفتوى على جلالتنا، بصفتنا أمير المؤمنين ورئيساً لهذا المجلس، فيما يتعلق بالنوازل الدينية، سدا للذرائع، وقطعا لدابر الفتنة والبلبل، مؤكداً أن توسيعنا وتجديدنا للمجالس العلمية، لا يعادله إلا حرصنا على ألا تكون جزراً مهجورة من لدن العلماء غير الأعضاء بها، بل نريدها ملتقى لكل العلماء المتنورين"²⁴.

وتابع الخطاب الملكي تحليل الواقع ليسوغ اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيق الأمن الروحي حين قال جلالتة: "... وفي ذلكم تكريس للاحترام المتبادل بين مختلف الأديان السماوية، والثقافات والحضارات، مستشعرين أن عالم اليوم، يجتاز ظرفية مطبوعة بنزوعات الأنانية والعنف واهتزاز المرجعيات. وهو ما يجعل جوهر رسالتكم الروحية، العمل الدائم على إشاعة الطمأنينة والسلام والحث على التنافس في العمل البناء ومحاربة التطرف والانغلاق والإرهاب. بإشاعة القيم الإسلامية المثلى، تحصيناً لبلادنا من الآفات المقيتة للغلو والتعصب"²⁵.

ويعرب أمير المؤمنين أيده الله عن عزمه بشأن تحقيق الأمن الروحي ويؤكد ذلك بقوله: "وإننا لعازمون على المضي قدماً، للارتقاء بالشأن الديني للمملكة، إلى ما تتطلبون إليه، وكافة رعايانا الأوفياء، من تأهيل وتجديد، باعتباره في صلب الإصلاحات الوطنية الحيوية التي نقودها، وفي مقدمتها، توفير الأمن الروحي والحفاظ على الهوية الدينية الإسلامية المغربية، المتميزة بلزوم السنة والجماعة والوسطية والاعتدال والانفتاح والدعوة إلى سبيل الله، بالحكمة والموعظة الحسنة وما يرتبط بها من مبادئ الإسلام السمحة"²⁶.

ولم يغفل الخطاب ما يسهم في تحقيق الأمن القومي، يقول صاحب الجلالة: "ويأتي البعد الاجتماعي، كركن ثالث في مخططنا الإصلاحي. وفي هذا الصدد، قررنا تعزيز مكسب تمكين القيمين

24 - الخطاب الملكي السامي في تنظيم المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بتاريخ 10 ربيع الأول 1425، الموافق لـ 30 أبريل 2004 بالدار البيضاء. وذكر جلالتة أيضاً بنفس المضمون في الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله اليوم السبت بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالتة للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى في 27 شتنبر 2008م.

25 - الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله اليوم السبت بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالتة للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى في 27 شتنبر 2008م.

26 - الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله اليوم السبت بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالتة للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى في 27 شتنبر 2008م.

الدينين من التغطية الصحية بإيجاد هيئة مكلفة بأحوالهم الاجتماعية العامة. ومن ثمة كان قرارنا بإحداث مؤسسة محمد السادس للنهوض بالأعمال الاجتماعية للقيمين الدينين، تجسيدا لعنايتنا الموصولة بأحوالهم. وحرصا منا على توفير الوسائل الكفيلة بتحسين أوضاع هذه الفئة العاملة، في انضباط، ونكران ذات²⁷.

ويواصل ما يرمي إلى ذلك بقوله: "ذلك أني، من منطلق الأمانة العظمى التي أتحملها، كملك لجميع المغاربة، أتساءل يوميا، بل في كل لحظة، وعند كل خطوة، أفكر وأتساوّر قبل اتخاذ أي قرار، بخصوص قضايا الوطن والمواطنين، هل اختياراتنا صائبة وما هي الأمور التي يجب الإسراع بها، وتلك التي يجب تصحيحها وما هي الأوراش والإصلاحات التي ينبغي إطلاقها"²⁸.

ويترجم الخطاب الملكي وعيه بوجود فئات مندرجة في مجتمعه تنتمي لتيارات فكرية مختلفة لها منهج خاص في التعامل مع النصوص الشرعية، تتفرع عنها عقائد وأفكار متطرفة ولحماية عقيدة المغاربة منها توحيد الفتوى التي توجه المجتمع، والاختصاص بها أمر يفضي إلى اعتبار حماية الثوابت الدينية واختيارات المغاربة، وحماية الأخلاق والقيم، مرتكزا من مرتكزات الحفاظ على الأمن الروحي والأمن القومي في نفس الآن، لأن الحفاظ على الأمن الروحي هو جزء لا يتجزأ من الحفاظ على الأمن القومي، بل إن الحفاظ على الأمن الروحي، لا يتم إلا بحفظ الدين، ولذلك نجد علماء المقاصد يضعون حفظ الدين في المرتبة العليا عند ترتيب المقاصد الضرورية للشرعية، ثم يأتي بعده حفظ النفس والعقل والمال والنسل، وهو ما يعني أن حفظ الدين هو الدرجة الأعلى في سلم المقاصد الأساسية للشرعية الإسلامية. وكما جاء عند الطاهر بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة، فإن "حفظ الدين معناه حفظ دين كل أحد من المسلمين أن يدخل عليه ما يفسد اعتقاده وعمله اللاحق بالدين، وحفظ الدين بالنسبة لعموم الأمة هو دفع كل ما من شأنه أن ينقض أصول الدين القطعية"²⁹، حفظه سواء من الأهواء، لأنه إذا استبدت بالإنسان أهواؤه وشهواته، فإنه سوف يؤول إلى انتهاك الضوابط والقيم بما فيها الأحكام الشرعية، ويجعل التدين عرضة للتلاشي. أو سواء حفظه من إجحاف، الذي يسعى إلى الطعن والتشكيك في الدين من الأساس، ويسعى إلى زعزعة عقيدة

27 - الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله يوم السبت بمسجد محمد السادس بتطوان خلال ترؤس جلالته للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى في 27 شتنبر 2008م.

28 - الخطاب الملكي السامي الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله، يوم الأربعاء، بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لاعتلاء جلالته عرش أسلافه الميامين.

29 - مقاصد الشريعة، الطاهر بن عاشور، ص 302.

المسلمين. وإذا كان الحفاظ على الأمن الروحي للمجتمع بهذه الأبعاد كلها، فإنه من المؤكد أنه يحتاج إلى مقارنة شاملة متكاملة ومنهجية، تجمع بين الأبعاد التربوية، والتعليمية، والثقافية، والإعلامية، والأمنية، وهذه المقاربة بهذه الشمولية، لا بد أن تتكامل فيها الجهود بين جميع الفاعلين، ومن الواجب على الجميع أن ينخرط فيها، الدولة (بكافة أجهزتها ومؤسساتها وفي مقدمتها وزارة الأوقاف والمجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية)، والعلماء، والمفكرون، والجمعيات الثقافية، والحركات الإسلامية، والمجتمع المدني، وكل المعنيين من قريب أو بعيد، من أجل الحفاظ على الأمن الروحي.

المطلب الثالث: الأمن الروحي في المغرب

إن المغرب يؤمنُ مستقبل أمنه الروحي ويعمل من منطلق سياسة استباقية، ابتدأت أمنية وتعززت بمرتكزات التنمية والحقوق السياسية والاجتماعية، وفي خطوة تابعة أشرَّ أمير المؤمنين الملك محمد السادس أعز الله أمره من موقعه الديني على "خطة دعم". تركز في جزئها الأساس على تحصين المساجد من كل دخیل وتندرج هذه الخطوة في عمومها ضمن استراتيجية بعيدة المدى لمراقبة ومحاصرة المد المتزايد للجماعات المندرجة في المجتمع المغربي على اختلاف أنماطها وتوجهاتها وأفكارها المتطرفة.

وترتكز هذه الخطة على مرتكزين:

المرتکز الأول: ضبط المجال الديني بما يتناسب وسياسة الدولة المغربية المحتكمة إلى مؤسسة إمارة المؤمنين وما يجعل تحت يده من الأمانة العامة للمجلس العلمي الأعلى التي تتفرع عنها المجالس العلمية بالمملكة، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي تشرف على الشأن الديني كله؛ لكي لا يتم العبث بالشأن الديني وما يتعلق به.

المرتکز الثاني: تأطير القيمين الدينين بخطة الميثاق، ومتابعة التطبيق للثوابت الدينية والاختيارات المغربية في الفقه والعقيدة والسلوك. وبالتالي تأطير المواطنين من خلال دروس الوعظ والإرشاد والمحاضرات والندوات وما أشبه.

كل هذا من أجل فهم عميق للمستجد من الأمور في المجتمع المغربي بما لا يتناقض والحقوق الشخصية والعامة. لوضع حد لأي اختراقات فكرية متطرفة متوقعة، أو اختلافات فقهية مخالفة لاختيارات المغاربة.

كل هذه التحصينات لإبعاد الخطر بتحسين الأمن القومي، وإعداد النموذج الديني المعتدل المتسامح الذي يحصن الأمن الروحي في المغرب. واعتباره النموذج الأمثل الذي يحتذى به ويحذى حذوه إقليميا ودوليا. إذ أن تحقيق الأمن القومي لا يتم فقط من خلال توفير الضروريات والحاجيات، وتوفير القوة والعدة العسكرية، وإنما يتم بالتأطير الديني بمفهومه الواسع، فالفكر وجب أن يجابه بفكر مثله، وبحسن التدبير والتخلص وهنا تظهر الحكمة والحنكة المغربية التي أدجت البعد الديني الروحي والتنموي القومي في مقاربتة الأمنية، واعتبرته عنصرا ومرتكزا أساسا في مجال التعاون من أجل محاربة التطرف بقطع جذوره ومنافذه بلغة هادئة وحكمة بالغة وتكلفة زاهدة.

ويقدم النموذج المغربي سياسة ذات بعد استراتيجي فعال في مجال تحقيق الأمن الروحي والقومي الذي يحقق الاستقرار السياسي ويحول دون وصول شرارات اللهب المنتشر في بلاد أهملت التعامل بالحكمة والواقعية والانضباط في تنفيذ المشروع الديني. تلك الدول التي تنتهك الآن سيادتها بدواعي متعددة تنزعها قيادات وفصائل ذات بعد ديني.

يقول صاحب الجلالة نصره الله: "فالأمن والاستقرار مثلا، هما أساس الإنتاج والثروة. والثقة والمصادقية هما عماد تحفيز الاستثمار. إلا أن هذه المؤهلات لا يظهر لها أثر في القيمة الإجمالية للدول"³⁰.

إن الحفاظ على مغربية الصحراء يعتبر محورا هاما في سياسة الأمن الروحي بالمغرب الداعم للأمن القومي. وذلك بنهج سياسة ذات بعد ديني وثقافي من صحراء المغرب في اتجاه العمق الإفريقي، وذلك بربط التواصل الديني والثقافي والاقتصادي والتنموي مع مجموعة دول غرب إفريقيا. إذ أن التجربة المغربية أصبحت رائدة في مجال تكوين الأئمة وإنتاج وتقديم النموذج الإسلامي المعتدل الذي يحقق الأمن الروحي والقومي في نفس الآن بتكامل مع توفير الضروريات والحاجات.

وقد أبرمت الدولة المغربية فيما يتعلق بهذا المجال اتفاقات مع دول إفريقية تشمل ما هو ديني واقتصادي وتنموي، في تكامل واضح بين هذه المجالات خدمة للأمن والاستقرار.

30 - الخطاب الملكي السامي الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، يوم الأربعاء، بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لاعتلاء جلالته عرش أسلافه الميامين.

وقد دفع المغرب لكل هذا ما يحدث من حراك وتحولات تعرفها المنطقة العربية من سوريا والعراق إلى اليمن ثم ليبيا، بالإضافة إلى ما يحدث في مجال جغرافي واسع من إفريقيا من اقتتال طائفي ومذهبي، فضلاً عن أحداث الدار البيضاء سنة 2003م. فكان من الضروري أن يشرع المغرب في إتمام ما بدأه منذ وقت طويل من هيكلة الحقل الديني كأولوية استراتيجية لمواجهة كل التحديات، خصوصاً وأن هناك مغاربة كانوا على الحدود التحقوا بتنظيمات متطرفة وانخرطوا في الحرب بسوريا. تلك الیقظة المبكرة التي أبانت عنها الدولة المغربية في مجال تحقيق الأمن الروحي بمراقبة الحقل الديني وضبطه عملياً من حيث التأطير الديني. كان من الأساسيات التي حققت الأمن القومي وحمته من الصراعات والأفكار المشاكسة بالقدر المتاح والحكمة البالغة.

لهذا يجب أن نبارك ما حققه المغرب من هيكلة جديدة للحقل الديني، وما تفرع عنه من تأطير وتأهيل القيميين عليه من خلال مؤسسات دينية وإعوانية وذات إمكانات علمية ومادية وترتيبات وإعداد. وذلك لتحقيق الأمن الروحي وحماية المجتمع في ثقافته وهويته وعقيدته وثوابته في الحال والمآل، من أن تنتهك.

فالأمن الروحي بالمغرب يستمد من الأمن القومي ويتفاعل معه. حتى لا يتم تهديد هذا الأمن في معاقله، فاتحدت معالم الخطة التي أعدها المجلس العلمي الأعلى ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في أربع مرتكزات متكاملة :

1- تعزيز التدابير الوقائية والتنموية.

2- تعزيز التجهيز والتأطير لتحسين النظام الديني العام.

3- تكوين شبكة معلوماتية مندمجة من أجل التواصل وتحسين مكونات الشأن الديني.

4- تحسين برنامج محو الأمية.

كما أن التأطير الديني في المغرب من حيث علاقته بالمنهاج التعليمية ثلاثة أنواع: تعليم عتيق، وتعليم أصيل، وتعليم عمومي عصري. بالإضافة إلى تأطير مفتوح يشرف عليه المجلس العلمي الأعلى.

ومن حيث الموضوع فالتأطير الديني بالمجالس العلمية تأطير منضبط بحيث يجب اتباع بل تطبيق المذكرات التي تصدرها الأمانة العامة للمجلس العلمي الأعلى. باعتبارها المؤسسة المشرفة على الشأن الديني في المملكة المغربية.

ومن حيث الأهداف فإن التأطير الديني يهدف في المملكة المغربية لترسيخ الثوابت الدينية المتمثلة في العقيدة الأشعرية والفقه المالكي والتصوف السني. كما يهدف إلى تحقيق الأمن الروحي الفردي والقومي بتحقيق الوحدة والتضامن والانسجام بين أفراد المجتمع المغربي على اختلاف أعراقهم وأنسابهم....

خاتمة

نستخلص في النهاية أن التأطير الديني الذي يتوخى الوحدة العقدية، وتوحيد المرجعية الفقهية والسلوكية سبيل إلى تحقيق الأمن الروحي الذي يعتبر من مرتكزات الأمن القومي ولوازمه في التجربة المغربية، وأن الأمن الروحي مرتبط بالأمن القومي باعتبار الاستقرار السياسي سبيلا للتنمية على أكثر من صعيد. وسبيل هذا النوع من الأمن هو الوحدة التي يدعو إليها الإسلام. كما نستنتج أن التجربة المغربية تستلهم سياستها من فلسفة الدين وتعاليمه وتتوافق معه، وأن ضبط الشأن الديني وسيله لحماية أمن المسلمين من كل تهديد وتحقيق وحدتهم مما يسوغ اختيارات كاشفة وسياسة موجهة تسمح بحماية الأمن الروحي بالأساس والأمن القومي بالتبع باعتبار وسائل تحقيقه. كما أن التجربة المغربية تلتزم الوسطية والاعتدال والتسامح كقيم أساسية لتمتين العلاقة مع الآخر وتطمح بالكياسة إلى تبادل الخبرات وتحقيق أمن استراتيجي يهدف إلى سياسة وقائية تؤمن المحيط وتسد الذرائع المحتملة.

بالإضافة إلى كل ما ذكر فالمغرب تابع مسلسلة الديمقراطية بإصلاحات دستورية، ولم يتأثر بوصول من يستحق إلى تدبير الشأن الحكومي كما هو الشأن في بلاد إسلامية معلومة، مما يعني أن بناء الأمن القومي المغربي يسير على محورين متكاملين. تأمين الداخل من أي دخيل يريد التدخل في الشأن الديني، وتأمين المحيط بإصلاحات فاعلة، وبكياسة تدمج التعاون في الشأن الديني وتقدم النموذج المغربي في السياسة الخارجية ما أمكنه الأمر ذلك.

كل هذا نجده في التأطير الديني الذي ترسمه سياسة الدولة المغربية المرتكزة على ثوابت تتمثل في العقيدة الأشعرية والفقه المالكي والتصوف السني مع اختيارات تجعل من خصائصها الوسطية والاعتدال والتسامح دون الخوض في تكفير الأفراد والجماعات.

والحمد لله أولا وآخرا، ظاهرا وباطنا، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه إلى يوم الدين.

إمارة المؤمنين في إفريقيا من الأمن الروحي إلى الأمن الاجتماعي والاستقرار السياسي

د. عبد الفتاح الفاتحي
باحث، الرباط

مقدمة:

قطعت إمارة المؤمنين في إفريقيا مسارا إيجابيا، مما خلق تراكما دينيا وحضاريا وثقافيا بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. ولم يتأت هذا التراكم التاريخي لأي دولة سواء في المنطقة أو من خارجها. الأمر الذي منح للمغرب حضورا قويا في الوعي الإفريقي، ذلك أن المملكة المغربية شكلت على الدوام المصدر الوحيد للارتواء الروحي والعقدي لدى الأفارقة لقرون عدة بفضل الدور الذي قامت به الزوايا المنتشرة في العديد من دول إفريقيا الغربية.

ومما لاشك فيه، أن استمرار هذا الترابط الروحي بين الأفارقة وإمارة المؤمنين في تطور دائم لم ينقطع على مدى قرون طويلة. مما يعكس طبيعة العلاقة الجدلية بل والضرورية بين المغرب وإفريقيا. وطبيعي أن تكون روابط المغرب بإفريقيا على قدر عظيم من المتانة. لأنها تجسيد لعلاقة امتداد جغرافي وما يترتب عنه من امتدادات دينية وثقافية وتاريخية وحضارية لا تحتمل حدودا تحول بين المملكة ومجالها الحيوي في إفريقيا.

ظلت إمارة المؤمنين تحمي حتمية استمرار هذا الترابط دون التفكير في العائد الاقتصادي أو السياسي، بل كانت بداعي نشر تعاليم الدين الإسلامي المعتدل على مساحات شاسعة من إفريقيا، مما ساهم في تشكيل مقومات الأمن الروحي في إفريقيا وأنجز واقعا مستقرا سمح للأفارقة للنمو والبناء، حيث كانت مساجد ومدارس الصوفية نواة عدد من المدن والحوضر الإفريقية. وهكذا استمروا في الوفاء بالبيعة لأمر المؤمنين كجزء هام لاستكمال العقيدة الدينية.

وعليه، فإن مؤسسة إمارة المؤمنين التي أنقذت إفريقيا من النزاعات الدموية بسبب القبلية، وحفزت على العمران والبناء، بأن عوضت فرقة الأفارقة بالاستقرار الروحي والتآخي الديني،

وقلصت من عنف خلافاتهم الإثنية والأمنية، فإنه بإمكانها اليوم مواصلة العمل لتحقيق تنمية بشرية مستدامة تؤسس لنمو اقتصادي واجتماعي يقود إلى فضاء تسوده قيم العدالة الاجتماعية.

1- متانة العلاقة بين إفريقيا جنوب الصحراء وإمارة المؤمنين.

إن نشوء علاقات تجارية واقتصادية توطدت بعمل المغاربة الدؤوب على نشر تعاليم الدين الاسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء، انضمت لها عوامل أخرى أوجدت علاقات دينية وثقافية وحضارية عميقة، حيث تم "توطيد العلاقات بين المغرب الأقصى وبلاد السودان منذ أن أزاح المرابطون أمراء غانة الوثنيين عن عروشهم وأدخلوا إلى الإسلام الطبقات الحاكمة بالسودان الغربي في القرن الحادي عشر، وربط الملوك المانديين بالنيجر الأعلى مع سلاطين المغرب علاقات دبلوماسية قارة وتبادلوا معهم الهدايا، ولما حل محلهم سنغاي النيجر الشرقي عمد المغرب الأقصى طيلة ما يقارب القرن إلى بسط هيمنته الفكرية والدينية على السودان وذلك بإرسال العلماء ورجال الدين والصلحاء الدعاة، وتغلغلت الحضارة المغربية بمدن ولاته وتومبوكتو وديني وغاو..."¹.

وتؤكد المصادر التاريخية أن سلاطين وملوك المغرب بذلوا جهدا متميزا في توطيد دعائم الدين الإسلامي والاستقرار في بلاد السودان منذ أبي بكر اللمتوني ويوسف ابن تاشفين والسعديين إلى ملوك الدولة العلوية، الذين قاموا بعمل مهم في نشر الإسلام وإشاعة العلم والمعرفة وتوطيد العلاقات الثقافية والاجتماعية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. وعبر الإسلام الصحراء إلى السودان الغربي عن طريق المغرب وبفضل المغاربة، الذين حملوا إليه المذهب المالكي كذلك. فكان أن انبثقت رابطة دينية وعلمية بين الطرفين، تمثلت على الخصوص في تردد العلماء المغاربة على "بلاد السودان"، ورواج كتبهم ولغتهم بها².

وكان من الطبيعي أن يتواصل الترابط الديني والروحي بين المغرب وإفريقيا عن طريق فئة من الدعاة والعلماء المغاربة الذين هاجروا إلى أعماق إفريقيا ما وراء الصحراء لنشر تعاليم الدين الإسلامي والتصوف السني. حيث "عمل الدعاة والفقهاء المغاربة على نشر الإسلام والمذهب المالكي وراجت المؤلفات المغربية والإسلامية عن طريقهم وانتشر الخط المغربي الذي عم كل إفريقيا

1 - تاريخ إفريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 - شارل اندري جوليان - تعريب محمد المزالي والبشير بن سلامة - الدار التونسية للنشر ط 1978، ص 4.

2 - العلوي، عبد العزيز، "تأثيرات بلاد المغرب على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط": "الدين والفكر"، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص تاريخ، كلية الأدب سايس - فاس، 1999، نسخة مرقونة، ص 123.

الغربية والشمالية وقصد المغرب عدد كبير من طلبة السودان كما أن ثمرة هذا العمل المغربي أدت إلى ظهور علماء كبار في بلاد السودان³.

ونشطت العديد من المراكز الدينية على طول طرق التجارة الصحراوية : تومبوكتو، وغازي، وسجلماسة، ومراكش ...، والتي تكفلت بنشر الدين الإسلامي والمذهب المالكي وتشجيع التبادل الثقافي، كما ساهمت في تعزيز صرح علاقة متميزة بين مختلف الأسر والسلالات الحاكمة في المغرب ودول وشعوب جنوب نهري النيجر والسنغال. وزاد من شدة هذا التفاعل الأعمال المهمة التي قامت بها عدد من الزوايا ذات الأصل المغربي، ومنها الزاوية التجانية التي تمكنت من الانتشار بشكل قوى داخل المجتمعات الإفريقية مسنودة بتأييد سياسي مغربي كان يوائم بين ما هو ديني وسياسي في تدبير شؤون الأفارقة، وهكذا "تبع الطريقة التجانية عدد كبير من أهل ماسينة في السودان الغربي وأهالي فونتا تولرو وفوتا جالون، وصاروا من أشد أنصار الإسلام وانضموا تحت راية الحاج عمر فكانوا طيلة أربعين سنة هم سادة السودان الغربي من تمبكتو إلى الأقيانوس"⁴.

وتواصل عمل علماء الصوفية من الطريقة التجانية والطريقة القادرية والطريقة الشاذلية وما تفرع عنها من مدارس مثل الجزولية والناصرية والفاضلية والمعينية والمختارية... على نشر الإسلام بين القبائل الإفريقية ومواجهة حملات التبشير والتنصير وتزعم حركة الجهاد والمقاومة ضد القوات الاستعمارية. بل "إن وجود الطرق الصوفية في غرب إفريقيا هو امتداد لحركة الهجرة من شمال المغرب والمقاومة الموريسكية، خاصة الطريقة القادرية التي حملها الشيخ أبو محمد صالح الدكالي دفين أسفي إلى المغرب وإفريقيا الغربية بعدما زار مولاي عبد القادر الجيلاني ببغداد سنة 656 هجرية، وعنهما تتفرع الطريقة البكائية التي تنتسب إلى الشيخ أحمد البكاي من آل كوتنا، ثم بعدها الطريقة التيجانية للشيخ سيدي أحمد التجاني دفين فاس التي كان لها الفضل الكبير في نشر الإسلام وتوطيد دعائمه في إفريقيا الغربية"⁵.

ويبدو أنه من الصعوبة بمكان الحديث عن التجربة الإسلامية في بلدان غرب إفريقيا أو ما كان يعرف بالسودان الغربي دون أن نستحضر الدور الفاعل والمهم الذي قام به ملوك المغرب في نشر

3 - حركات، إبراهيم، طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية، مجلة دعوة الحق، العدد: 269، ماي - أبريل، 1988.
<http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/6944>

4 - طالب، عبد الرحمن، الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه ومنهجيته في التفسير والفتوى والتربية، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص: 61.

5 - Trumelet, Corneille, Les Saints de l'Islam, légendes hagiologiques et croyances algériennes, Edition: Paris, Didier, 1881, p : 9.

الإسلام وثقافته في تلك الأصقاع، والدفاع عنها باعتبارها أرضا للمسلمين وجب حمايتها بموجب البيعة الشرعية التي تبني عليها مؤسسة إمارة المؤمنين. إذ "إن هذا العنصر ظل حاضرا في بنية الدولة المغربية حيث يشكل واحدا من أهم العناصر التي تقاس بها قوة الدولة ومشروعية سلطتها ومدى تجاوب ملوكها وسلاطينها مع هوية المغاربة وشعورهم العام، فلا غرابة والحال هذه أن نجد عبارة حماية بيضة الإسلام من العبارات الملازمة لكل عقود البيعة"⁶.

إن درجة الحضور المغربي في إفريقيا من الناحية السياسية والدينية مكن الزوايا من مساحات للانتشار داخل إفريقيا جنوب الصحراء، وهو ما أوجد تواؤما قويا بين مبادئ الصوفية في المغرب القائمة أساسا على المنهج التربوي، وإمارة المؤمنين المجسدة للشرعية الدينية يسرت عملية نشر الإسلام في إفريقيا على مجال شاسع وفي ظرف زمني قياسي، "من شأنه (أي الإسلام) أن يغزو إفريقيا عن بكرة أبيها، لولا الضربة التي أنزلتها فرنسا بالطريقة التجانية، فتوقفت على غرار توقف المد الإسلامي في أوروبا"⁷.

وحتى وإن تعثر أداء التمدد الديني في إفريقيا إلا أن الفضاء الذي انتشر فيه دين الزوايا الإسلامية ظل مجالا حيويا للمغرب حتى خلال فترة الاستعمار الأجنبي، إذ استمر تعلق الأفارقة بالسلطة الدينية في المغرب. وأنه على قدر التميز والتقدير الذي حظيت وتحظى به إمارة المؤمنين في إفريقيا تاريخيا وعلى مدار سنين عديدة، قابلته عناية ملوك المغاربة تاريخيا، فكان التعلق جدليا أوجدته مبادئ الزاوية التجانية، "ذلك أن ما يجمع التجانيين قاطبة، منذ تأسيس طريقتهم إلى اليوم، هي مشاعر التعلق والوفاء لملك المغرب، بوصفه أميراً للمؤمنين وسبطا للنبي الأمين"⁸.

2 - إمارة المؤمنين والأمن الروحي في إفريقيا جنوب الصحراء

تعتبر إمارة المؤمنين جزءا من منهاج نشر تعاليم الإسلام بإفريقيا، ذلك لأن "الإمامة موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"⁹، وفقا لذلك تمت البيعة الحفيظية¹⁰، وهكذا لم يغفل

6 - الثقافة والفقه والمجتمع نماذج من المغرب الوسيط - دراسة تاريخية - عمر بنميرة - الطبعة الأولى 2006، الرباط، ص 107.

7 - موري، بونيه، الإسلام والمسيحية في إفريقيا، عن بن عبد الله، عبد العزيز، الزاوية المغربية كمتدى للفكر والإشعاع العلمي -1-، مجلة دعوة الحق، العدد 243، دجنبر 1984.

8 - رسالة وجهها الملك محمد السادس نصره الله إلى المشاركين في الملتقى الثالث لأتباع الطريقة التجانية الذي نظم ما بين 14 و16 مايو 2014 بمدينة فاس.

9 - الماوردي، أبو الحسن، كتاب الأحكام السلطانية، دار نشر، القاهرة، 1909، ص 3.

10 - نصت المادة 6 من مشروع دستور 1908 "يلقب السلطان بإمام المسلمين وحامي حوزة الدين". وفي دستور 1962 تم تدارك دسرة لقب "أمير المؤمنين".

التجار والوعاظ والدعاة والعلماء المغاربة تجسيدا لوظيفتهم الدينية التأكيد على أهمية إمارة المؤمنين حتى لقيت قبولا لدى الأفارقة باعتبارها الامتداد الروحي للإسلام، وهم بذلك يستشرون شرعية إمامة أمير المؤمنين¹¹، ويقبلون الخضوع له كجزء من ممارسة شعائر الإسلام، وأنها شرط لا يكتمل إيمان الفرد إلا بها، على اعتبار أن الملك يمثل بالنسبة للأفارقة شرط الإمامة الدينية¹². إلا أنه على الرغم من ذلك فإن تعايشهم مع إمارة المؤمنين كان أيضا من خلال استلهاهم تطورها مفهوما ووظيفة مما جعلها تستوعب أهدافا جديدة زادت من أهميتها في البناء المجتمعي لعدد من الدول الإفريقية.

وهكذا قامت إمارة المؤمنين في المغرب على النسب الشريف وحماية الدين على المذهب السني المالكي المميز بالجمع بين النص وإعمال الرأي عند الضرورة، والعقيدة الأشعرية القائمة على التنزيه، جامعة بين الأثر والتأويل، والتصوف الجندي الجامع بين الشريعة والحقيقة، والتوفيق إلى هذه الاختيارات فضل عظيم من الله تعالى على المغاربة، ونعمة كبرى توجب الشكر، والأمر من باب الأسباب، ثمرة حصافة الأسلاف واجتهادهم ونضالهم¹³. إن الخضوع الإفريقي لإمارة المؤمنين تعزز القبول بها لما أحاطت به نفسها بالمشروعية الدينية والمشروعية الدستورية¹⁴.

ولقد شكل خضوع سكان الساحل وإفريقيا الغربية لإمارة المؤمنين في المغرب خضوعا شرعيا عززته الروابط التاريخية والدينية بينهم وبين ملوك المغرب المنتسبين إلى آل البيت. والتي تتجاوز الحدود الجغرافية والسياسية إلى الامتداد نحو الشرف والخلافة النبوية، حيث يصبح أمير المؤمنين بذلك هو الوالي الأعظم الذي لا والي فوقه، ولا يشاركه في مقامه، ولا في سلطته غيره من الحكام، مهما علا قدرهم وعظم شأنهم¹⁵.

ومما سبق يمكن القول إن بناء سياسة خارجية متوجهة نحو إفريقيا لم يكن وليد اليوم القريب، بل كان مشروعا تاريخيا لدولة ارتبطت رؤيتها للمجال الإفريقي بمسؤوليتها السياسية والدينية والحضارية للنهوض بإفريقيا وضمان استقرارها وأمنها الاجتماعي. وطبيعي أن ينضج عن ذلك

11 - تجدر الإشارة أن الأفارقة لا يجدون التباسا في الخضوع لإمارة المؤمنين في شرعيتها الدينية وما قد تعنيه من شرعية سياسية في بلدهم الأصل. وهو ما ييسر هيمنتها الدينية والروحية.

12 - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ سورة النساء، الآية: 58.

13 - التوفيق، أحمد، "الثوابت الدينية للمملكة المغربية وجذورها في عمل السلف الصالح"، درس حسني في 24 يوليوز 2012.

14 - إن مسار التطور الدستوري بالمغرب ظل يؤكد على أهمية إفريقيا بالمغرب والتأكيد على مسؤولية المغرب تجاه قارته إفريقيا.

15 - إمارة المؤمنين في عشرة تجليات - إمارة المؤمنين في تأصيلها الشرعي الدكتور محمد يسف الكاتب العام للمجلس العلمي الأعلى

- موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية - <http://habous.net>

تزايد إحساس الأفارقة في الساحل الإفريقي بالانتماء إلى المغرب¹⁶. ويوقظ وعيا إفريقيا شعبيا يعلنون فيه تعلقهم بأمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله¹⁷.

إن الارتباطات الدينية والحضارية للعديد من الدول الإفريقية بالمغرب لم تكن نتاج الفتوحات الإسلامية بل تمت عن طريق الوعظ والإرشاد والتوعية أثناء حركة تجارية قوية ومشروع ديني موجه. حيث قام تجار ورجال الدين المغاربة بالعمل على نشر تعاليم الإسلام. وعلى قدر يسر المذهب السني المالكي الأشعري وسلاسة تفاعله مع خصوصيات الواقع الإفريقي نجح في التغلغل أفقيا وعموديا، فوجدوا فيه استقرارا روحيا وتأمينا لواقعهم الاجتماعي. ولذلك ظل الأفارقة أوفياء للمذهب المالكي الذي ينتهجه المغرب، وحرص عبره على مصاحبة الأفارقة لتحسين إسلامهم من خلال شيوخ زواياه وفقهائه.

وتبعا لذلك، فإن الانسجام الأصيل في المغرب بين المؤسسات الدينية وإمارة المؤمنين ساهم في بلورة هوية إفريقية إسلامية أقرب إلى المغرب منها إلى أي ثقافة أخرى، وهذا ما عبر عنه جلالة الملك نصره الله في رسالته إلى أتباع الطريقة التجانية حيث قال: "انطلاقا مما قلدنا الله إياه، من أمانة عظمية متمثلة في إمارة للمؤمنين، لم نفتأ نرعى الطرق الصوفية القائمة على تخليق المنتسبين إليها في ضوء السنة النبوية الغراء والهدي المحمدي الوضاء داخل المغرب وخارجه، ولا سيما بالبلدان الإفريقية الشقيقة التي نعمل على ترسيخ الروابط الأخوية بين شعوبها، والتعاون الوثيق مع قياداتها الحكيمة"¹⁸.

واستمر هذا التقدير الإفريقي متواصلا لإمارة المؤمنين ولأتباع الطرق الصوفية المغربية في كل مكان، لكونها ظلت تتكيف مع تطورات العصر بعيدا عن التعصب والتطرف، إذ ظلت إمارة المؤمنين منارة للإسلام الوسطي المعتدل، هذا الاعتدال يسر للنموذج الديني الذي تتبناه إمارة المؤمنين بالمغرب انتشارا أكبر في أرجاء إفريقيا.

فبالاستناد إلى روابط البيعة الشرعية والروابط الحضارية والتاريخية، وبالنظر إلى الالتزام الدستوري للمملكة المغربية يبقى التمدد الجيوستراتيجي للمغرب في العمق الإفريقي حاجة

16 - هذا الانتماء المتبادل دعا جلالة الملك إلى قبول مطالب الاهتمام بالمهاجرين غير الشرعيين الذين يلجؤون إلى المغرب بالتدخل من خلال سياسة الهجرة لتحسين ظروف إقامة الأفارقة فوق التراب المغربي.

17 - عبر الشارح الإفريقي خلال كل الزيارات التي يقوم بها الملك إلى دول إفريقية عن حجم التعاطف والاحترام الكبير الذي يكنه الأفارقة لأمير المؤمنين.

18 - رسالة وجهها الملك محمد السادس نصره الله إلى المشاركين في الملتقى الثالث لأتباع الطريقة التجانية الذي نظم ما بين 14 و16 مايو 2014 بمدينة فاس.

ضرورية وليس لغاية نفعية محضة. وأن الجيوسياسية المغربية نحو إفريقيا أمر حتمي وطبيعي لتأمين الفضاء الإفريقي وتحقيق استدامته الروحية والأمنية والاقتصادية والسياسية. "إذا كان المغرب الأقصى قد حافظ بجد وفعالية على صلاته بالشرق عبر التاريخ، فإن حفاظه على علاقاته بالإمارات والممالك الإفريقية ظل حقيقة قائمة ثابتة، ولم يكن سبب ذلك راجعا فقط إلى الإيمان بوحدة التاريخ الجغرافي والسلالي ولكن ما انفك يعتبر هذه الوحدة قدرا ومصيرا يجب أن تتضافر الجهود من أجل الاستجابة لها والاقتناع بضرورتها، وهذا حكم من المغرب كان وليد تجارب قرون خوال بلغت فيها أقطار المغرب قمة عزها وأوج عظمتها"¹⁹.

3- تأثير إمارة المؤمنين في إفريقيا جنوب الصحراء

تميزت الزوايا الصوفية بالمحافظة على أصالة الأمن الروحي الإفريقي وعلى إبقاء رابط البيعة من خلال الشرعية الدينية قويا بين دول جنوب الصحراء الأفريقية وإمارة المؤمنين في المغرب، وهكذا استمر الاطمئنان على سيادة الأمن الروحي الإفريقي. مما مكن "التدين في إفريقيا من أين يبقى محافظا على مكانته وشكله الجماعي في البلدان الأفريقية المسلمة، ومؤثرا في الحياة الاجتماعية، فلا يمكن الحديث عن العلاقات الاجتماعية ولا عن تجديد في الدين، إذا بقي الشعور الديني بعيدا عن كل مساس"²⁰.

فعلى الرغم من أن تصريف سلطة إمارة المؤمنين في المجال الديني الإفريقي يتم عبر شرعيتها الدينية ومكانتها الدستورية إلا أن حبل التواصل كان قويا وحاسم التأثير في إفريقيا. وهو الذي يفسر الانسجام والتلاؤم الذي طبع علاقات التعاون المغربية الإفريقية التاريخية. بل "إن عمق هذا الارتباط التاريخي والطبيعي الممتد بين المغرب وإفريقيا الذي آزرته إمارة المؤمنين فند ملامح التفرقة بين القبائل الإفريقية لصالح جمع الكلمة ورص الصفوف"²¹. وأمام هذا الواقع تجسد الامتداد المغربي في إفريقيا من خلال الوحدة الجغرافية على طول الساحل الأطلسي والوحدة الروحية والتي وافقتها وحدة المذهب المالكي الأشعري المنتشر بفضل علماء ودعاة المغرب، فضلا عن وحدة التكامل التجاري والاقتصادي المسجد في قوافل التجارة التاريخية.

19 - المغرب في خدمة التقارب الإفريقي العربي - عبد الهادي التازي - مجلة دعوة الحق العدد 269 إبريل ماي - 1988 - ص 132.

20 - سامبي، بكاري، إسلام ودبلوماسية: السياسة الإفريقية للمغرب، دار النشر مرسوم، الرباط الطبعة الأولى 2010، ص 12.

21 - رسالة الشيخ المختار الكتني الحفيد (المتوفى سنة 1263هـ) إلى السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام (توفي 1276هـ) يستهلها ب: "إمام الأئمة القائم بكل الأمة، الخليفة المستخلف .. الإمام الحق .. أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الرحمان خليفة أمير المؤمنين".

وفضلا عن الاعتبارات الدينية والتاريخية والحضارية، تتعزز الحاجة إلى تقوية النفوذ الجيواستراتيجي والاقتصادي التي تجعل من إفريقيا مجالا حيويا بالنسبة للمملكة المغربية، بل ومن مسؤوليتها الانفتاح على العمق الإفريقي للقيام بمهامها المعتادة في تدعيم التماسك الاجتماعي، وتقوية مقومات الاستقرار الاجتماعي والسياسي وتفعيل مشاريع التنمية المستدامة عبر شراكات متكافئة مع الدول الإفريقية في إطار تعاون جنوب - جنوب.

إن دواعي التجديد في طبيعة العلاقات المغربية الإفريقية غدت ضرورية بالنظر لما يتهدد قيم الأمن الروحي في إفريقيا، من بروز حركات متطرفة تهدد قيم الأمن والاستقرار في الفضاء الإفريقي. ولأن حتميات المستقبل المنشود والقائمة على ضرورة تحقيق الاستقرار الإفريقي يجب أن تتأسس على إعادة تقوية البناء الديني لأهميته في الوجدان الإفريقي، ولا سيما أن إسلام إفريقيا جنوب الصحراء هو ذات النهج المغربي والذي حافظت عليه، ويحتاج إلى مزيد من التدعيم ليكون مضادا حيويا فعلا ضد كل أشكال الفكر الإرهابي المتطرف والمتعصب.

ولأن إفريقيا في حاجة إلى استقرار وأمن روحي لا يتزعزع أمام الأفكار المتطرفة التي تنشرها الجماعات المتطرفة، فإنه يعول اليوم كثيرا على إمارة المؤمنين التي تستمد أصل مشروعيتها من القرآن والسنة وإجماع علماء الإسلام من عصر الصحابة والتابعين وأهل السنة، باعتبارها المؤسسة الأصيلة والمسؤولة تاريخيا على نشر وتثبيت قيم الإسلام الوسطي المعتدل بديلا عن التطرف الذي برز في بعض مناطق الساحل والصحراء.

ولأن إمارة المؤمنين قد ظلت تتفاعل إيجابا مع واقع إفريقيا، فإنها بالمقابل تطورت في مفهومها ووظائفها وفي رؤيتها المستقبلية، مما مكنها من استيعاب أدوار وأهداف مستقبلية عليها محط إجماع وطني وإقليمي، وطبقا لوظائفها التاريخية²²، إذ أن الواقع المشترك الذي انطلق تجاريا ثم دعويا تمأسس إلى الالتزام بإمارة المؤمنين²³ وتجديد الارتباط بها عبر البيعة المتواترة، تفرض على هذا الالتزام أن يبقى حاسما من أجل مصلحة الأمن القومي والاستراتيجي المشترك للمغرب وإفريقيا.

والأكيد أن مضامين هذا الالتزام تفرض أيضا تطويرا ضمن سيورة التراكم الحضاري التاريخي، وفي هذا السياق جاء في خطاب العرش المجيد سنة 2000م: "وسنولي تكثيف جهودنا ليظل

22 - تبلور مشروع دعوي للانفتاح على الصحراء الإفريقية اضطلع به عدد من العلماء والدعاة من الصوفيين المغاربة بنشر إسلام سني مالكي معتدل استوعب خصوصيات المجتمع الإفريقي.

23 - ظلت إمارة المؤمنين رابطة قوية بالنسبة لسكان شمال غرب إفريقيا وبلاد الصحراء وجنوبها من خلال الإبقاء على البيعة للسلطين المغاربة.

المغرب وفيما لتوجهه الدبلوماسية ولثوابت سياسته الخارجية التي يملئها عليه تاريخه العريق وموقعه الجيوستراتيجي الذي يتوسط العالم وينفتح عليه، ودوره كقطب للاعتدال والتعايش والحوار والسلم وحسن الجوار²⁴.

وتشكل هذه الرؤية إحدى أولويات الاستراتيجية المغربية تجاه التعاطي مع الشأن الإفريقي أو بالأحرى مقدمة لكل تعاون مستقبلي مع الدول الإفريقية لكن بكثير من المرونة التي تحفظ لهذه الدول خصوصياتها الثقافية. ولذلك يلاحظ وسم الزيارات الملكية إلى إفريقيا في كثير من أنشطتها بنموذجية مذهبها المالكي والمذهب الأشعري القائم على التعاون والتضامن. مما يعني أن هذه الزيارات الملكية إلى الدول الإفريقية الصديقة تتم وفق تخطيط يستثمر الروابط التاريخية والدينية والثقافية والحضارية.

4 - استراتيجية المغرب البديلة للأمن الروحي في إفريقيا

نظرا للمتغيرات والتحديات المحدقة بإفريقيا جنوب الصحراء عملت مؤسسة إمارة المؤمنين على الزيادة في فعالية دعمها داخل إفريقيا عبر استراتيجية أكثر شمولية، بإمكانها التحصين من تهديدات خطاب الجماعات الإسلامية المتشددة، عبر المساعدة في تدبير الحقل الديني، عبر الاستثمار في الطرق الصوفية المنتشرة في إفريقيا، والتي ظلت تخضع لوصاية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ويبقى التعاون المسنود بمؤسسة إمارة المؤمنين الضامن الوفي والأمين على خيرات إفريقيا، وخلافا للتعاطي الغربي مع إفريقيا فإن المغرب كان دائما سنداً، إذ لم يأت إليها طمعا في خيراتها كما هو الحال بالنسبة للدول الاستعمارية التي فقرت شعوبها. ولذلك يجد المغرب في إفريقيا ترحيبا لمصداقية تعاونه، حتى أصبح خير وسيط لمجموعة من الدول للقبول بأنشطتها الاستشارية، ذلك أن المغرب قد نال ثقة شعوب وحكومات إفريقيا، وأن هذه الثقة ستتواصل في المستقبل بما تمتلكه من تراكم في العلاقات البينية.

وطبيعي أن تحفظ الذاكرة الجماعية للإنسان الإفريقي الدور الحضاري والديني للمغرب تجاه أوطانهم، فهو لم يقصدها غازيا ولا مستعمرا امبرياليا بهواجس استغلالية، بل كان باعته الأمل لمستقبل أفضل بدأ بنشر تعاليم الدين الإسلامي وتعزيز قيم التعاون والتكامل ودعم الاستقرار

24 - مقتطف من نص الخطاب الملكي السامي الموجه إلى الأمة بمناسبة عيد العرش 30 يوليوز 2000.

الأمني والسياسي في إفريقيا بالانتصار لقيم الوحدة والتآلف والإخاء، ضد قيم النزعات القبلية التي من سماتها العنف والعدوانية وعدم الانفتاح على الآخر.

واستلهما لكل هذه الحثيات، تطور أداء إمارة المؤمنين في مراقبة الشأن الديني بإفريقيا، وتم تقدير حجم التحديات المطروحة على الاستقرار الروحي للأفارقة وسبل الدفع بهم نحو استقرار سياسي واقتصادي وأمن اجتماعي. وتحقيقا لهذه الرهانات، فإن إمارة المؤمنين بالمغرب فضلا عن أنها استوعبت حتمية التطور المجتمعي والتعدد الثقافي الإفريقي، فإنها تمتلك أسلوبا مستداما لحل الكثير من الإشكاليات الهيكلية بقليل من الكلفة المادية والمعنوية، حيث تمتلك إمارة المؤمنين قدرات حيوية متفاعلة مع كل ما من شأنها أن يزيج المجتمع عن مرونة تكوينه، لا سيما ما يتعلق بتقوية إسلام وسطي وميسر للحياة.

ولهذه التحديات المطروحة على الإنسان الإفريقي توسعت زاوية نظر إمارة المؤمنين، وقد برز ذلك واضحا في زيارة الملك محمد السادس نصره الله لإفريقيا، إذ تستند الرؤية الملكية لتدبير زيارته الإفريقية على العلاقات الدينية والثقافية والحضارية، فمن جهة لأن هذا المدخل استثمار عقلائي واستراتيجي لتقرير مجالات التواصل بين المغرب وإفريقيا، ومن جهة أخرى، لأن المغرب تاريخيا أخذ على عاتقه تقاسم تجاربه وخبراته مع الأفارقة في إطار تعاون جنوب - جنوب، حيث يقوم بتعميق التواصل بين شمال إفريقيا وجنوبها فضلا عن ارتباطات تجارية واقتصادية عديدة، هي مجال واعد للاستثمار.

وللتفاعل العملي والمستدام لكل ما يتهدد الأمن الروحي والاستقرار السياسي تبنت إمارة المؤمنين مشروعا جديدا يعد البديل الناجز لتحقيق أهداف الاستراتيجية الدولية لمحاربة الإرهاب في إفريقيا جنوب الصحراء. ولذلك ينظر إلى المغرب باعتباره مرجعا نموذجيا للإسلام الوسطي المعتدل الذي يجب أن يسود²⁵. وهو ما شجع العديد من دول العالم بطلبات تكوين أئمتها وفق النموذج المغربي المعتدل، هذه الطلبات بدأت لا تحتها تتسع يوما بعد يوم ليس من الدول الإفريقية والمغاربية فقط وإنما حتى من الدول الأوروبية²⁶.

لقد دخلت "إمارة المؤمنين" في مرحلة جديدة من تدبير الحقل الديني بتخطيط استراتيجي يستوعب الشأن الديني الداخلي ويتمهاى مع تحديات الأمن الروحي إقليميا. وهكذا باشرت تقوية

25 - قال المدير المساعد لبرنامج الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بمجموعة التفكير الأمريكية (سانتر فور ستراتيغي كاند إنتراسيونال ستاديز) بواشنطن، السيد حايم مالكة أن المغرب يتميز بوضع "فريد" في منطقة شمال إفريقيا والشرق الأوسط بفضل مركزية مؤسسة إمارة المؤمنين.

26 - أوفدت فرنسا عددا من أئمتها للتكوين بالمغرب.

مخطط نشر إسلام سني مالكي معتدل، وتحديث مؤسسات تكوين رجال الدين وعاظا ومرشدين وأئمة راتبين وذلك بإدخال تعديلات على مناهج التكوين، فتم إدراج اللغات والثقافات في مناهج تكوين الأئمة، وإطلاق جيل جديد من المرشدين والمرشحات الدينيين، وقد تم إرسال عدد منهم إلى المساجد الأوروبية لتأطير المغاربة ومواجهة زحف الخطاب الديني المتطرف.

ولأنه لا يمكن التسليم بمخاطر التحديات الأمنية في الفضاء الحيوي لإمارة المؤمنين بشمال إفريقيا ومنطقة الساحل والصحراء، فضلا عن أن المسؤولية التاريخية والآنية تجاه المنطقة تعتبر أبرز الحوافز التي دفعت بإمارة المؤمنين مواءمة استراتيجيتها الدينية الوطنية لمكافحة الشوائب الدينية الشاذة عن المحيط الإفريقي. فبعدما توفق المغرب في تأهيل وتنظيم وضبط الحقل الديني على المستوى الداخلي من خلال عملية هيكلية شاملة، فإن ذلك مكنه من الانفتاح للعمل على المساهمة في تدبير العمل الديني في العديد من الدول الإفريقية التي ارتبط حسها الديني بإمارة المؤمنين في المغرب والمسئودة مؤسساتيا بالزوايا والطرق الصوفية المغربية بالبلدان الإفريقية، وهكذا عزز المغرب من ربط جسور التواصل مع متصوفة العالم²⁷، وذلك عبر استيعاب الطرق والطوائف الصوفية وفق منظور حدائي تتعايش فيه قيم التسامح والتعايش والعدالة الإنسانية، وهو ما جعل العديد من المؤسسات تعبر عن قناعتها الكبيرة بقدرة المغرب على تدبير المجال الديني بعيدا عن شوائب الغلو والتطرف في سلوك الأفارقة المحصنين بنهج الإسلام الوسطي والمعتدل الذي تصونه إمارة المؤمنين بتعاقد تاريخي أصيل. حتى أن " كل استراتيجية لمكافحة الإرهاب دون دعم من المغرب سيكون مصيرها الفشل، خاصة إذا جمعت تلك الاستراتيجية بين الجوانب العسكرية والاقتصادية والدينية"²⁸.

5 - معالم استراتيجية : إمارة المؤمنين لمكافحة التطرف في إفريقيا جنوب الصحراء

أمام المنطقة الكثير من التغيرات التي لم يترتب عنها مواكبة عملية للتكيف مع الواقع السياسي الجديد، سيما بعد تفجيرات شتنبر 2001 بالولايات المتحدة الأمريكية، وما تلاها من الحرب على أفغانستان وبعدها العراق، وأن تزايد الضغط على التنظيمات الإرهابية جعلها تطور من أسلوب تواجدها بعيدا عن أعين الاستخبارات الدولية، ولذلك استوطنت في الصحراء الإفريقية، واحتوت

27 - تنظم بالمغرب العديد من المؤتمرات العالمية للصوفية.

28 - أوصى تقرير أصدره مركز التفكير الأمريكي (فورين بوليسي ريسيرتش إنستيتيوت) بضرورة الاستناد إلى إمارة المؤمنين في الإستراتيجية الرامية إلى مكافحة الإرهاب والتطرف الديني بغرب إفريقيا والساحل.

الخطاب السياسي لبعض الجماعات التي لم تندمج في العمل السياسي الوطني، وظلت رهينة أوهام حركات التحرر²⁹، حيث تدعم بعض الدول مثل هذه الجماعات لتحقيق تمثيلية التفاوض والمساومة بهم كعلاقة الجزائر بالجماعات الانفصالية في شمال مالي، ودعمها لجهة البوليساريو في الجنوب المغربي.

بعد مسار طويل من التعاون والتنسيق اتسمت العلاقات بين المملكة المغربية ودول جنوب الصحراء وإفريقيا الغربية دينيا وسياسيا وثقافيا بالاستقرار والتأكيد على حتمية مواصلة التعاون. وبذلك ظلت المملكة المغربية فضاء للارتواء الروحي والديني بالنسبة للأفارقة عبر قرون طويلة، وطريقا عابرة للصحراء لفروع الطريقة التيجانية. كل ذلك يجعل إمارة المؤمنين الفاعل الجاهز لتقوية حضوره الديني في إفريقيا بعد أن فشل رهان القوى الكبرى على المؤسسات الحكومية لتطويع المجتمعات الإفريقية، التي لم تعر المكون الديني الشعبي والمؤسسات التي تشرف عليه اعتبارا يتناسب مع درجة تغلغل هذا المكون، ولذلك فشلت في تحقيق الضبط المجتمعي، حيث بقيت شريحة مهمة من المجتمع الإفريقي أسيرة ما تتلقفه من مضامين دينية، وهو ما استغله مروج الخطاب المتطرف باستهداف الأمن الروحي الإفريقي ثم الاستقرار الأمني والاجتماعي.

وهكذا استطاعت الاستراتيجية المغربية لمكافحة الإرهاب مندمجة ومستدامة تتجاوز التعاطي الأمني إلى باقي المستويات الدينية والقانونية والأمنية، حتى أضحت محل الدراسة والتحليل في جلسة خاصة للجنة مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن بالأمم المتحدة³⁰. حيث يعتبر المجتمع الدولي المغرب شريكا أساسيا في استراتيجية محاربة الإرهاب ولا سيما قيم العنف الذي تشجع عليه الجماعات الإرهابية، ولذلك ينظر إلى تجربة الصوفية على أنها البديل الأفضل لتجسيد إسلام معتدل ومناهض للتطرف، ومن ثم قطع الطريق على الحركات المتطرفة. ويعتبر التصوف الحل الأنجع لمواجهة التشدد بجميع أنواعه، وأنه "بفضل عملهم وانفتاحهم الروحي، تمكن المتصوفة من وضع مفاهيم تؤدي إلى التقارب الودي بين المسلمين والمسيحيين واليهود والبوذيين وغيرهم. وطريقتهم

29 - تعتبر جماعة البوليساريو في تندوف الجزائرية وجماعة الوحدة من أجل الجهاد بغرب إفريقيا (ميجاو) وجامعة بوكو حرام في نيجيريا والكاميرون، وجماعة "القاعدة في المغرب الإسلامي" بتفريعاتها المختلفة، وجماعة "أنصار الدين" وجماعة أنصار الشريعة جماعة "الموقعين بالدم فضلا عن عدد كبير من الجماعات التي تتوهم أهدافا ترابية وسياسية لشرعنة أعمالها الإجرامية.

30 - خصصت لجنة مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن الدولي جلسة خاصة تحت موضوع: "مكافحة التطرّف على ارتكاب أعمال إرهابية بدافع التطرف واللاتسامح: مقاربة المغرب وتجارب دول إفريقية أخرى" بمقر الأمم المتحدة بنيويورك في 30 شتنبر 2014م.

الإنسانية والروحية تزداد اتساعا وقبولا في المشهد الإسلامي، ولن تتأخر في تحقيق السلام والتسامح وتعزيز الحوار بين الغرب والإسلام"³¹.

من المؤكد أن ما يتوفر لإمارة المؤمنين من تجربة وحسن رؤية في تدبير المناخ الإفريقي، وتمسك بالقيم الثقافية والدينية الأصيلة، وكذا التجربة التي ميزت المغرب في إعادة هيكلة الحقل الديني، فضلا عن تراكمات تاريخية عديدة... كل هذا جعل من المملكة الشريفة الأقدر على تقديم البلمس الفعال ضد معضلة الفكر التكفيري الذي تعمل الجماعات الخارجة عن القانون في إشاعته بين الأفارقة. وطبيعي أن تحظى بثقة العديد من المؤسسات الدولية، إذ "إن التجربة المغربية تعتبر نموذجا ملهما، من شأنها أن تشكل باعثا على وضع مقاربة شاملة تعالج منابع الإرهاب عبر مشاريع اجتماعية واقتصادية، في سياق يعزز الإسلام الوسطي المتشبع بقيم الوسطية والاعتدال"³².

فبعد التفجيرات الإرهابية في 16 مايو 2003 بمدينة الدار البيضاء، وما تلاها من تفكيك خلايا إرهابية نائمة، وتزايد حالة القلق الوطني والإقليمي من تزايد التهديدات الأمنية، أطلق المغرب سنة 2004م برنامجا وطنيا لإعادة هيكلة الحقل الديني يرمي إلى إعادة ضبط معايير الأمن الروحي وطنيا في مرحلة أولى ثم إقليميا في مرحلة ثانية. وبعد استكمال الإصلاحات الهيكلية للحقل الديني داخليا، ولأن الحقل الديني المغربي مرتبط بإخوانه الأفارقة، بعقد البيعة لإمارة المؤمنين. وتبعا لذلك كان من الضروري أن يتقاسم المغرب مع دول إفريقيا الغربية وجنوب الصحراء تدبير أمنهم الروحي والديني.

وتتوفر كل عوامل نجاح هذا التعاون، حيث يقبل الأفارقة على كل ما هو مغربي باحترام كبير إلى جانب خضوعهم الشرعي لإمارة المؤمنين، ويتواصل ذلك في منحى تصاعدي، لاستمرار الدور الروحي والدبلوماسي للتيجانية بين المغرب والدول الأفريقية المجاورة في السنوات المقبلة، ففي السنغال اكتسبت الزاوية دور الوسيط بين البلدين في السراء والضراء، وفي المغرب تعزز دورها بتعيين خلفاء وممثلين للتيجانيين السنغاليين في فاس والرباط ومراكش، فضلا عن الملتقى الدولي السنوي للتيجانيين بفاس القادمين من القارات الخمس"³³.

31 - ميريوط، زيدان، الإسلامية والصوفية والإنجيلية الحرب أم السلام، دار النشر لابوروفيدس جنيف، طبعة 2010، ص 91.

32 - بيتر فام خبير أمريكي، في تصريح لوكالة المغرب العربي للأنباء بمناسبة قمة البيت الأبيض حول التطرف العنيف التي انعقدت بواشنطن بين 18 و20، 2015م.

33 - سامي، بكاري، إسلام ودبلوماسية: السياسة الإفريقية للمغرب، مرجع سابق، ص 145.

فكان أن دشّن الملك محمد السادس نصره الله، بصفته أميراً للمؤمنين الاستراتيجية الدينية للمغرب لمكافحة "التيارات المتطرفة التي لا تمثل مجمل المسلمين، فالأغلبية من المسلمين في هذه الربوع يميلون إلى التيار الصوفي"³⁴. ووافق أمير المؤمنين إثر زيارته لدولة مالي على طلب الخبرة المغربية لإعادة بناء مجال الأمن الروحي داخل البلاد ولمحاربة التطرف الديني. وكذا للاستفادة من الإستراتيجية الوطنية لتدبير الحقل الديني المغربي لإعادة هيكلة الحقل الديني المالي. وتبعاً لذلك تمت الموافقة الملكية على تكوين حوالي 500 من الأئمة الماليين، بناء على اتفاق بين حكومتي المغرب ومالي. ويتوزعون على خمسة أفواج، ويدوم التكوين سنتين لكل فوج.

وتحظى الاستراتيجية المغربية لمكافحة التطرف الديني بتقدير جيد لدى الكثير من المؤسسات الدولية وذات تقدير جيد عبر القارة الإفريقية، حتى أن بلدانا عدة قد بادرت إلى طلب الاستعانة من خبرة المملكة في تكوين الأئمة وفق مبادئ وقيم الإسلام الوسطي كما هو الحال بالنسبة لتونس وليبيا ومالي وغينيا وكوت ديفوار ونيجيريا³⁵.

وانطلق المغرب بعد استعداد كبير في هيكلة الحقل الديني نحو إفريقيا من خلال إعلان إمارة المؤمنين في شخص الملك محمد السادس نصره الله الشروع في تنفيذ خطة محاربة التطرف والتشدد في إفريقيا بالاستجابة لطلب تكوين حوالي 500 من الأئمة الماليين، فضلا عن طلبين للتعاون، من وزارة الشؤون الدينية بالجمهورية التونسية، موضوعهما تكوين أئمة تونسيين بالمغرب والاستفادة من الخبرة المغربية في عمارة المساجد، وطلب من هيئة الإمامة والخطابة التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالجمهورية الليبية للاستفادة من دورات في مجال تدبير الشأن الديني.

فإرساء شراكة لتدبير الحقل الديني مع البلدان الإفريقية مكنت في أولى مشاريعها من الشروع في تكوين 150 إماما مرشدا و100 مرشدة من المغاربة في السنة و447 طالبا أجنبيا ينحدرون من مالي (212 طالبا) وتونس (37) وغينيا كوناكري (100) والكوت ديفوار (75) وفرنسا (23).

وقد عمل جلالة الملك محمد السادس نصره الله على إسناد الاستراتيجية الدينية بمشاريع مصاحبة كانت مضمون الاتفاقيات التي تم التوقيع عليها خلال زيارة جلالتهم للدول الإفريقية (مالي والسنغال، والكوديفوار وغينيا والغابون...)، وهي مشاريع ذات طبيعة تعاونية وتضامنية قائمة

34 - ميريوط، زيدان، الإسلامية والصوفية والإنجيلية الحرب أم السلام، مرجع سابق، ص: 87.

35 - تصريح مدير مؤسسة إفريقيا سانتر التابع لمجموعة التفكير الأمريكية أطلانتيك كاونسل لوكالة المغرب العربي للأنباء، في 17 فبراير 2015م.

على مبدأ التكامل جنوب- جنوب، في وقت تسود حالة من القلق والرفض حيال تدخل القوى الدولية في إفريقيا في العديد من القضايا العسكرية والأمنية والاقتصادية كجزء من الصراع على حصة كل واحد من الثروات الطبيعية والطاقة الإفريقية³⁶.

لقد واصلت إمارة المؤمنين مرافقتها للأفارقة تاريخيا ونجحت إلى حد كبير في تثبيت قيم التآزر والقضاء على الصراعات القبلية والإثنية، وحافظت إمارة المؤمنين بالتنسيق الدائم مع الدعاة والزوايا التي استوطنت في إفريقيا على نشر قيم الإسلام المعتدل، وهكذا تأتي لها اليوم أن تكون الفاعل الأبرز في محاربة الإرهاب.

ولقد تأكد من خلال الزيارات المنتظمة لجلالة الملك إلى إفريقيا بأن إمارة المؤمنين ستزيد من حضورها في المجال الإفريقي للقضاء على الفكر المتطرف عبر المساهمة في تدبير الحقل الديني للدول الإفريقية كجزء مهم من الاستراتيجية المغربية البديلة عن فكر الجماعات المتطرفة.

فتبعا لسيرورة الارتباط التاريخي الإفريقي بإمارة المؤمنين، سيتم تعزيز مكانة جلالة الملك الدينية كوسيلة لتطوير أنواع الشراكة المتعددة مع بلدان الساحل وإفريقيا الغربية في إطار علاقات جنوب - جنوب، وهو توجه ناجح بما رافقه من سمات التأييد الشعبي الإفريقي خلال الزيارات التي قام بها جلالة الملك لعدد من الدول الإفريقية. وتأكيد شيوخ الصوفية على ارتباطهم العميق بالمغرب انطلاقا من مؤسسة إمارة المؤمنين التي يمثلها جلالة الملك نصره الله وتعلقهم بها اقتداء بشيوخهم الأوائل.

وتمتلك إمارة المؤمنين اليوم وعبر مؤسساتها الدينية أسلوبا أكثر نجاعة لمواجهة الأفكار المتطرفة التي حملها إليها بعض المتشددین من المشرق. وذلك بالنظر للتطور الذي عرفه الحقل الديني بالمغرب من إصلاح وتحديث هياكله تماشيا مع روح العصر، الأمر الذي مكن إمارة المؤمنين من أن تبقى مرجعا دينيا بديلا لدعوات التطرف والغلو، ففي إطار عمل مؤسساتي وافق المغرب على طلبات تعاون في الشأن الديني تقدمت بها عدد من الدول مما يكرس المكانة الروحية والحضارية التي يحظى بها المغرب إقليميا ودوليا.

36 - "مادام استيراد البترول في نظر الولايات المتحدة مسألة أمن قومي ستظل إفريقيا طيفا لا يبارح مخيلة قادة البنتاغون"، انظر كتاب النفط الإفريقي والأمن القومي الأمريكي - ميشيل ت كيلر ودنيال فولمان - ترجمة شاهر عبيد - مجلة الثقافة العالمية - العدد 131 - أغسطس 2005، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

خطبة المناسبة الوطنية بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي

د. عبد المغيث بصير
رئيس المجلس العلمي المحلي
لبرشيد

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

تعد خطبة الجمعة ملتقى أسبوعيا يلتقي خلاله الخطيب الواعظ بساكنة الحي، وهو مجلس إيماني يتجدد فيه الإيمان ويتقوى، وتزداد فيه المعرفة وترسخ، وتتقوى بواسطته عرى التواصل بين رواد المسجد بعضهم بعضا، وبينهم وبين إمامهم وخطيبهم.

خلال هذا اللقاء الأسبوعي يطرق الخطيب مواضيع شتى لها علاقة وطيدة بالبيئة التي يعيش فيها لينور الساكنة بواجباتهم وحقوقهم اتجاهها، كما يركز على مختلف الظواهر السلبية التي يعاينها داخل محيطه ويحاول معالجتها بالحكمة والموعظة الحسنة.

ومن الموضوعات التي يطرقها خطباء الجمعة بين الحين والآخر ما يتعلق بالمناسبات الوطنية، حيث يتم تذكير الناس بمختلف الذكريات الوطنية وبالمهام البطولية التي خلدت لسلفنا الصالح، وفي مقدمتهم أمراء المؤمنين الذين تعاقبوا على هذه البلاد المغربية المباركة الأمانة. وقد أصبحت خطبة المناسبة الوطنية سنة حسنة لتقوية الوازع الديني والوطني وربط المغاربة بتاريخهم المجيد، فعندما يعمر قلب الخطيب بالوطنية الصادقة، وهو المفروض والمأمول، ويسمح لنفسه بالاطلاع على مجمل المعلومات التاريخية الخاصة بكل مناسبة وطنية، مضافة لأدلتها الشرعية، ويوظفها بعناية فائقة في خطبة المناسبة الوطنية، فإنه حتما سيؤديها بنجاح تام، وبتفاعل كامل، وتأثير كبير، وروما لتأصيل هذا النوع من الخطب دينيا وتاريخيا سأعالج ذلك من خلال النقاط التالية :

- 1- الأصل في الاحتفال بالذكريات الوطنية
- 2- مناسبة تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي
- 3- مناسبة ثورة الملك والشعب بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي
- 4- مناسبة الاستقلال بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي
- 5- مناسبة عيد العرش بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي
- 6- مناسبة عيد الشباب بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي
- 7- مناسبة المسيرة الخضراء بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي.

1- الأصل في الاحتفال بالذكريات الوطنية:

لقد ثبت في التاريخ القديم والحديث أن لكل أمة ذكريات وأحداثاً تمجدها وتقدها، والأصل في إحياء الذكريات والاحتفال بها هو أن تكون مصدراً للعتة والعبرة ونبراساً للاقتداء والاهتداء، والذكريات سبب من أسباب ربط الأمم بتذكيرها بأمجادها حتى لا تضل الطريق، ولا ترجع إلى الوراء، قال الله تعالى في سورة إبراهيم: «ولقد ارسلنا موسى بآياتنا أن اخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»¹.

قال العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسير قوله تعالى: «وذكرهم بأيام الله» أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر وتضليله إياهم بالغمام وإنزاله عليهم المن والسلوى².

قلت: هذا في زمن سيدنا موسى عليه السلام وفرعون، أما في زماننا فينبغي تذكير الناس بالأحداث التي عرفتها بلادهم والتضحيات الجسام لأسلافهم ونعم الله عليهم في ذلك، لأن ذلك أقرب وأبلغ إلى العبرة والاعتاظ.

وهذا رسول الله ﷺ كان يربط الحوادث الدينية بالأزمنة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه، قال: فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه"³.

1 - سورة إبراهيم الآية: 6.

2 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 13 ص 190، الدار التونسية للنشر، بتصرف.

3 - الإمام البخاري، صحيح البخاري، باب قول الله تعالى: «وهل اتاك حديث موسى»، رقم الحديث 3216، ت مصطفى البغا، دار ابن كثير اليمامة، ط 3، 1987.

وقد اعتاد الناس أن يتحدثوا عن الذكريات التاريخية في مثل كل يوم وقعت فيه، لأن ذلك يجعل أثرها أبلغ، قال ابن حجر معلقاً على الحديث الذي رواه أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال: "لما قدم النبي ﷺ المدينة، لعبت الحبشة فرحاً بذلك، لعبوا بحراهم، ولا شك أن يوم قدومه ﷺ كان عندهم أعظم من يوم العيد"⁴.

فذكرى الهجرة وذكرى بدر وذكرى القادسية كلها أيام وطنية كان يحتفل بها المسلمون بعد مرور الصدر الأول من الإسلام وما زالوا، بل إن الذين شاركوا في بدر أُعطوا وساماً وطنياً - هو وسام الدفاع عن حوزة الإسلام - من قبل رسول الله ﷺ عندما قال لسيدنا عمر رضي الله عنه وقد هم بضرب رأس حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، بعدما ثبت غشه ونفاقه، قال له: "إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"⁵.

وأخرج البخاري ومسلم عن أمنا عاشة رضي الله عنها قالت: "دخل علي أبو بكر، وعندي جارتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعث، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أبزمور الشيطان في بيت رسول الله؟ وذلك يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً، وإن عيدنا هذا اليوم"⁶.

وعن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنكم تقرأون آية لو أنزلت فينا لاتخذناها عيداً، فقال عمر: إني لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين كان رسول الله حين أنزلت، أنزلت يوم عرفة ورسول الله واقف بعرفة، والآية هي قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾⁷، نزلت ليلة الجمعة ونحن مع رسول الله بعرفات⁸.

4 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 2، ص 443، باب الحراب والدرق، ت محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، 1379هـ.

5 - صحيح البخاري، مرجع سابق، ج 3، ص 1095 رقم الحديث: 2845، باب الجاسوس وقول الله تعالى: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾، وانظر ابن حجر الهيتمي، مجمع الزوائد، باب فضل حاطب بن أبي بلتعة، ج 9، ص 303، دار الريان للتراث.

6 - صحيح مسلم، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، ج 2، ص 607، رقم الحديث: 892، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

7 - المائدة 4.

8 - صحيح البخاري، مرجع سابق، ج 4، ص 1683، رقم الحديث: 4330 وانظر أيضاً تفسير الطبري ج 6، ص 82، بيروت دار الفكر 1405هـ.

هذا وإن لكل بلد أيامه ولكل بلد أعياده التي يستقبلها بشوق وسرور، وهذه سنة الله في خلقه، وبلدنا المغرب له - والحمد لله - أحداثه التاريخية الكبرى التي تزهو بها صفحات أمجاده، منذ أن نور الله بالإسلام ربوع بلاده.

ولا شك أن حب الوطن من الأمور الفطرية التي جبل الإنسان عليها، فليس غريبا أبدا أن يحب الإنسان وطنه الذي نشأ على أرضه وشب على ثراه وترعرع بين جنباته، كما أنه ليس غريبا أن يشعر الإنسان بالحنين الصادق لوطنه عندما يغادره إلى مكان آخر، فما ذلك إلا دليل على قوة الارتباط وصدق الانتماء، وهناك آيات قرآنية وأحاديث شريفة كثيرة استنبط منها العلماء مشروعية حب الوطن والحنين إليه⁹.

وحتى يتحقق حب الوطن عند الإنسان المسلم، لابد من تحقق صدق الانتماء إلى الدين أولا، ثم الوطن ثانيا، إذ إن تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف تحث الإنسان على حب الوطن، ولعل خير دليل على ذلك ما صح عن النبي ﷺ أنه وقف يخاطب مكة المكرمة مودعا لها، وهي وطنه الذي أخرج منه، فقد صح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: "ما أطيبك من بلد وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك"¹⁰.

ولولا أن رسول الله ﷺ وهو معلم البشرية يحب وطنه لما قال هذا الكلام، الذي لو أدرك كل إنسان مسلم معناه لرأيت حب الوطن يتجلى في أجمل صورته وأصدق معانيه، ولأصبح الوطن لفظا تحبه القلوب وتهواه الأفئدة وتتحرك لذكره المشاعر.

وإذا كان الإنسان يتأثر بالبيئة التي ولد فيها ونشأ على ترابها وعاش من خيراتها، فإن لهذه البيئة - بما فيها من كائنات ومكونات - عليه حقوقا وواجبات كثيرة، منها أن تفرح لما يُفرحها وتغضب لما يغضبها وتهتم لاهتماماتها وتدعو لها بالفرج والتيسير، والنصر والتأييد، والأمن والأمان، في كل وقت وحين.

وعموما إن في الاحتفال بهذه الذكريات الوطنية شد المواطن إلى الارتباط بوطنه، وتمتين الوحدة بين أفرادها، ونبذ الفرقة والتشردم بين ساكنته، هذا بالإضافة إلى أنها تحميه من التأثر بالأفكار

9 - انظر على سبيل المثال ابن حجر فتح الباري، مرجع سابق، ج 3، ص 621 - وانظر المباركفوري، تحفة الأحوذى ج 9 ص 283، بيروت، دار الكتب العلمية.

10 - سنن الترمذي، ج 10، ص 295، باب في فضل مكة، رقم الحديث: 3926، ت أحمد محمد شاكر، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

الدخيلة للأعداء، خصوصا اليوم عندما غدا العالم أشبه بالقرية الصغيرة، وسهل على كل واحد اختراق الآخر والتشويش عليه.

إن كل مسلم ومسلمة ينبغي له ويتعين عليه أن يهتم بتاريخ الإسلام والمسلمين بدءا من السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين وتابعيهم بإحسان في كل عصر وجيل، وأن يعتني كذلك بتاريخ وطنه وبلده المسلم، فيرجع إليه ويقرأه ويدرسه ويتأمله، ليتعرف من خلاله على سيرة السلف الصالح من آبائه وأجداده، وعلى حياتهم وتاريخهم الإسلامي المجيد وجهادهم المستميت في سبيل عزة الدين ونصرة الوطن والمسلمين .

2- مناسبة تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي:

يستحضر الشعب المغربي يوم 11 يناير إحدى أبرز الذكريات الوطنية التي يزخر بها تاريخ المغرب المعاصر، ألا وهي ذكرى تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال باعتبارها معلمة أوقدت الحماس الوطني، وغدت روح النضال الذي خاضته إمارة المؤمنين والشعب المغربي من أجل الانعتاق والحرية، حيث تعددت الخلايا السرية في صفوف المواطنين، وتوج عملها بتقديم عريضة المطالبة بالاستقلال، مذيلة بتوقيعات أربعة وستين وطنيا¹¹.

ساهمت هذه الخطوة الجريئة في تحطيم الوجود غير المشروع لفرنسا بالمملكة المغربية، التي تمتعت دائما كما تقول الوثيقة التاريخية بحريتها وسيادتها الوطنية وحافظت على استقلالها طيلة قرون خلت، وكان رد السلطات الفرنسية عنيفا حيث طال الاعتقال بعض موقعي الوثيقة ورموز الحركة الوطنية، الشيء الذي أدى إلى اندلاع انتفاضة 29 يناير 1944م التي اتخذت شكل مظاهرات عارمة تأييدا للوثيقة واستنكارا لحمالات الاعتقال والقمع ضد الوطنيين¹².

يقول أمير المؤمنين الحسن الثاني رحمه الله في كتاب انبعاث أمة عن هذا اليوم: "هناك تاريخ مضبوط ظل عالقا بذاكرتي هو 29 يناير 1944م، في ذلك اليوم اكتسح جمهور من المتظاهرين شوارع الرباط مرددين شعارات المطالبة بالاستقلال، وبلغني صدى هذه المظاهرات وأنا داخل المعهد المولوي، فتخطيت سورته والتحقت بالمتظاهرين، وأضاف قائلا رحمه الله: "لقد ترك يوم 29 يناير

11 - الأعلام للزركلي ج 7، ص 159.

12 - منشورات المندوبية السامية للمقاومة وجيش التحرير، موقعها على الأنترنت، بتصرف .

بصماته بعمق ذاكرتي، كان معي يومئذ ثلاثة من رفاقي في المعهد، وكنا نصيح بصوت واحد: سنحصل على الاستقلال"¹³.

وتم تقديم نسخة من هذه الوثيقة لأمير المؤمنين، وإلى المقيم العام الفرنسي وممثلي بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وانصب اهتمامها على السياستين العامة والداخلية، حيث طالبت الوثيقة على مستوى السياسة العامة بإلغاء الحماية وجعل الإشراف على العلاقات الخارجية للمغرب برئاسة هيئة مغربية، كما طالبت الوثيقة بأن يصاحب ذلك اعتراف دولي باستقلال المغرب، وكان هذا هو الغرض من تقديم نسختين إلى ممثلي بريطانيا وممثلي الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى المستوى الداخلي فقد نصت العريضة على مجمل الإصلاحات التي يجب على المغرب القيام بها تحت رعاية أمير المؤمنين¹⁴.

وهكذا يظهر أنه كما شارك أمير المؤمنين محمد الخامس رحمه الله في الجهاد ضد المستعمر، شارك كذلك ولي عهده آنذاك أمير المؤمنين الحسن الثاني طيب الله ثراه، وتبعهم على نفس الخطى الشعب المخلص في كل بقعة من بقاع المغرب، الذين تظاهروا وعبروا عن غضبهم وجاهدوا بكل ما يملكون للوصول بمطالبهم للمنتظم الدولي.

3- مناسبة ثورة الملك والشعب بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي:

إن من أيام المغرب المجيدة وذكرياته الخالدة التي يعتز بها في مجال الكفاح والنضال، ذكرى ثورة الملك والشعب، التي شكلت حدثاً تاريخياً حاسماً توج بالنصر مراحل الكفاح المير الذي تلاحت أطواره وتعددت صوره وأشكاله في مواجهة الوجود الاستعماري المفروض منذ سنة 1912م، حيث خلد المغاربة أروع صور الوطنية الصادقة، التي تجلت في تشبثهم بأمير المؤمنين، كما بذلوا أعلى التضحيات في سبيل عزة الوطن وكرامته والدفاع عن مقدساته.

ظهرت أولى ملامح هذا الحدث عند عدم خضوع أمير المؤمنين محمد الخامس رحمه الله لضغوطات سلطات الحماية، والمتمثلة أساساً في طلبها منه مناهضة الحركة الوطنية والمد التحرري للوطن، وعاكسهم رحمه الله بتشبهه بمواقفه الراضية لكل مساومة.

13 - المرجع السابق.

14 - المرجع السابق، بتصرف.

هذا كله سبب في تأزم الوضع وإقدام سلطات الحماية على محاصرة القصر الملكي بواسطة القوات الاستعمارية يوم 20 غشت 1953م طالبة منه التنازل عن العرش أو النفي خارج الوطن، ففضل النفي على أن يرضخ لإرادتهم مصرحاً بأنه الملك الشرعي للأمة.

يقول المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه في كتاب التحدي عن هذه اللحظات الحرجة على لسان والده عندما طلب منه التخلي عن العرش: "ما من شيء في أفعالي وأقوالي يبرر أن أتخلى عن أمانة اضطلع بأعبائها بصفة مشروعة، وإذا كانت الحكومة الفرنسية تعتبر أن الدفاع عن الحرية والشعب بمثابة جريمة يعاقب عليها، فإني اعتبرها فضيلة يفاخر بها وتورث صاحبها المجد"، وزاد قائلاً: "إني ملك المغرب الشرعي، ولن أخون الأمانة التي ائتمني عليها شعبي الوفي المخلص، إن فرنسا قوية فلتفعل ما تشاء".

يقول خير الدين الزركلي في كتاب الأعلام عن المغفور له محمد الخامس¹⁵ طيب الله ثراه: ولما اكتمل شبابه، اتصل في الخفاء بأهل الوعي من حملة الفكرة التحررية في بلاده متجاوباً معهم في نجواهم وشكواهم... وتألقت كتلة العمل الوطني وبرز حزب الاستقلال، فكان محمد الخامس ممن أقسم له اليمين سرا، وكنتم ذلك، فلا أعلم أحداً أذاعه قبل كتابة هذه الترجمة... ووجدوا أنفسهم أمام محمد الخامس يجرّض عليهم وينصر المطالبين بجلالهم ويمتنع عن إمضاء ما يعرضون عليه من مراسيم، فخلعوه يوم 20 غشت 1953م¹⁶.

إن ثورة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه وشعبه استهدفت تحقيق أمل الأمة المغربية قاطبة في عودته إلى حظيرة الوطن واستقلال المغرب النهائي، ولهذا يحتفل المغرب بذكرى شهداء ثورته الاستقلالية أيام إبعاد الملك عن بلاده.

ومن مشاهير هؤلاء المجاهدين¹⁷ أذكر المجاهد علال بن عبد الله، وعلال الفاسي، ومحمد الزرقطوني، ومحمد بن عمر بن بوجمعة، وحمّان الفطواكي، وغيرهم كثير رحمة الله عليهم أجمعين.

هؤلاء ينبغي أن نذكرهم بأسمائهم في خطب المناسبة الوطنية، ونكثر من الدعاء لهم والترحم عليهم ونحتفل بهم، لأنه لولا تضحياتهم الجسيمة ما حصلنا على الأمن والأمان اللذين يعتبران الأساس الذي تقوم عليه الدنيا والدين.

15 - الزركلي، الأعلام، ج 7، ص 159، مرجع سابق.

16 - خير الدين الزركلي الأعلام، مرجع سابق، ج 7، ص 159.

17 - خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج 4، ص 246.

وينبغي على كل خطيب أن يذكر من يعرفهم من المجاهدين بأسمائهم ونبذة عن جهادهم، وخاصة مجاهدي المنطقة والجهة التي هو خطيب بها، والحمد لله لا نعدم أبطالا أينما حللنا وارتحلنا في كل بقعة من بقاع هذا الوطن المجاهد.

يقول الله تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾¹⁸، ويقول أيضا: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾¹⁹، وقال رسول الله ﷺ فيما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه: "تضمن الله لمن خرج مجاهدا في سبيل الله، لا يخرج إلا جهادا في سبيل، وإيمانا بي وتصديقا برسلي فهو علي ضامن - أي في عهد الله وذمته - أن أدخله الجنة - أي إن مات شهيدا - أو أرجعه إلى أهله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة - أي إن بقي على قيد الحياة -²⁰.

4- مناسبة الاستقلال بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي:

بحلول أيام 16 و17 و18 نونبر من كل سنة، يتذكر الشعب المغربي المسلم يوم عودة أمير المؤمنين محمد الخامس وأسرته من النفي، كما يتذكرون يوم إعلان الاستقلال، وهذا كله يجسد انتصار إرادة أمير المؤمنين وشعبه وإعلان انتهاء عهد الحجر والحماية.

فمنذ أن وطأت أقدام الاحتلال الفرنسي في مطلع القرن العشرين تراب المغرب لم تتوقف المقاومة، واتخذت أشكالا متعددة، سواء في المدن أم في القرى، وعلى امتداد قمم جبل الريف والأطلس وسهول تادلة والغرب وسوايس ورمال الصحراء.

في هذه المناطق كلها لم يهدأ الكفاح المسلح ولا الكفاح السياسي، الذي تجلى في تنظيم المظاهرات والاحتجاجات وتوزيع المنشير والصحف الوطنية لفضح السياسة الاستعمارية ونشر الوعي السياسي بين الوطنيين، وتجلى خاصة في تلك الأحداث الهامة التي عرفت الساحة الوطنية منذ الثلاثينيات، حيث تم تقديم ملف شامل لجميع مطالب الشعب المغربي السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى الإدارة الاستعمارية، وتم ميلاد المدارس الحرة لحماية الشباب المغربي من التيارات الهدامة التي تسعى لطمس هويته وإقبار لغته وحضارته، وتصاعدت المقاومة لما نفي رمز الحركة الوطنية الملك المغفور له محمد الخامس إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر.

18 - سورة الروم، الآية: 46.

19 - سورة آل عمران، الآيتان: 173 و174.

20 - صحيح مسلم، مرجع سابق، ج 3، ص 1495، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم الحديث: 1867.

وما أن عم خبر نفيه في ربوع المملكة وشاع في كل أرجائها، حتى انتفض الشعب المغربي قاطبة وتفجر غضبه في وجه الاحتلال الأجنبي وبدأت بوادر الجهاد تنتظم، وتشكلت خلايا المقاومة الفدائية والتنظيمات السرية وانطلقت العمليات البطولية لضرب مصالح الاستعمار وأهدافه.

فمن العمل البطولي للشهيد علال بن عبد الله رحمه الله الذي استهدف صنيعه الاستعمار محمد بن عرفة²¹، إلى العمليات الخالدة لجل المقاومين والمجاهدين بمختلف مدن وقرى المغرب لتتصاعد وتيرة الجهاد بالمظاهرات العارمة والانتفاضات المتوالية التي كانت سببا في ظهور جيش التحرير المغربي بشمال المملكة، وهذا كله تكلل برجوع أمير المؤمنين إلى أرض الوطن حاملا معه بشري الحرية والاستقلال، فدخل المغرب عهدا جديدا من الإصلاحات عبر عنها آنذاك أمير المؤمنين محمد الخامس رحمه الله حين قال: "خرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"²².

5- مناسبة عيد العرش بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي:

لقد تضمن ديننا الإسلامي الحنيف جملة من المبادئ والأحكام والفضائل والتعاليم، ترشد الإنسان إلى أقوم طريق، وتنير له السبيل في أمور دينه ودنياه وتسعده في حياته وأخراه، ومن جملة تلك المبادئ الدينية والأحكام الإسلامية التي تضمنها، ما يتعلق بنظام الحكم في الإسلام، والعلاقة القائمة بين الراعي والرعية، والرابطة القوية التي تجمع بين الإمام الخليفة وأمة التي ولاه الله أمرها في ظل الإسلام وهداية الإيمان.

وتستمد الإمامة مشروعيتها من نصوص الكتاب والسنة وإجماع علماء الإسلام، قال ابن حزم في كتاب الفصل: "اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة، وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي جاء بها رسول الله - ﷺ -". وهي علاقة ورابطة تقوم على أساسين اثنين:

أولهما: البيعة الشرعية من الأمة، تلك البيعة التي هي استمرار للبيعة النبوية واستمداد من بيعة المسلمين والمسلمات للنبي ﷺ، ولخلفائه الراشدين من بعده، رضوان الله عليهم أجمعين، تلك البيعة

21 - صنيعه الاستعمار ليكون خلفا لأمر المؤمنين محمد الخامس رحمه الله، وهذا ما زاد من حدة أحداث المقاومة، حيث قام عملاء الاستعمار بتقديم عريضة ضد السلطان موقعة من قبل 350 شخصا، وتمادت الإدارة الفرنسية في مضايقتها للسلطان وأعلنت عن مبايعة القواد والباشوات بمراكش لمحمد بن عرفة كسلطان للمغرب ومباشرة عقب ذلك قامت سلطات الاحتلال بتنفيذ مؤامرتها زوال يوم 20 غشت 1953 بنفي أمير المؤمنين محمد الخامس وأسرته الكريمة إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر.

22 - منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير على موقعها على الأنترنت. بتصرف.

التي ذكرها الحق سبحانه مخاطبا نبيه بقوله الكريم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾²³.

وثانيهما: السمع والطاعة لأولي الأمر من الخلفاء في الإسلام، تلك الطاعة التي أمر بها الله سبحانه في كتابه، وقرنها بطاعته وطاعة رسوله، إبرازا لأهميتها في المجتمع الإسلامي، وإظهارا لفضلها وميزتها في الحفاظ على جمع كلمة الأمة وضمان الاستقرار لها والطمأنينة، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾²⁴.

وإذا رجعنا إلى تاريخ مغربنا العزيز وتأملناه من منظور ديني وواقعي واجتماعي، وجدنا أن الله تعالى أكرم هذا الوطن بقيادات دينية ترعاه بدين الإسلام وشريعة القرآن، وتحكمه بما أوجب الله لأولي الأمر من الطاعة والامتثال، وذلك منذ عهد الدولة الإدريسية الشريفة حوالي اثني عشرة قرنا من الزمان.

وفي هذا المقام يقول العلامة الدكتور محمد يسف حفظه الله: "ومن عهد المولى إدريس إلى مولانا محمد السادس حافظ المغرب على نظام الخلافة والبيعة الشرعية بما يفرضه من تحديد واجبات الراعي والرعية وحقوقهما، في نسق تلتقي فيه الأصالة في أنقى مظاهرها، والمعاصرة في أحدث مبتكراتها، فلا المعاصرة تضيق بالأصيل، ولا الأصالة ترفض الجديد المفيد"²⁵.

وهذا كله جعل هذا الشعب المؤمن يعرف هذه النعمة وفضلها ويقدرها حق قدرها ويحمد الله ويشكره عليها فبقي متشبثا ببيعته الشرعية وطاعته الدينية والوطنية، لأنه يرى في ذلك وفاء بالعهد المأمور به في قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾²⁶، وقوله : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾²⁷ وقوله ﷺ: "لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له"²⁸، وقوله ﷺ: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني"²⁹.

23 - سورة الفتح آية 10.

24 - سورة النساء آية 58.

25 - الدكتور محمد يسف، إمارة المؤمنين من منظور شرعي، مقال منشور بموقع المجلس العلمي الأعلى على الأنترنت.

26 - سورة الإسراء آية 34.

27 - سورة النحل آية 91.

28 - رواه أبو يعلى البيهقي عن أنس رفعه، رقم الحديث: 2984، العجلوني، كشف الخفاء، ت أحمد القلاش، ج 2، ص 467، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 4.

29 - صحيح مسلم، مرجع سابق، ج 3، ص 1466، باب وجوب طاعة الأمراء، رقم الحديث : 1835.

وعلى ضوء هذه المبادئ الدينية وما تضمنته من أحكام ربانية وتوجيهات نبوية حكيمة سن أبأونا المخلصون للدين والوطن تقليدا حميدا، وأسسوا لنا عيدا وطنيا مجيدا منذ ما يزيد عن نصف قرن من الزمان للتعبير عما يجمع بين إمارة المؤمنين والرعية من أواصر المحبة والولاء، ذلكم هو عيد العرش السعيد الذي يخلد في ذكرى تربع أمير المؤمنين على العرش.

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم والدارمي وأحمد عن عوف بن مالك رضي الله عنه: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم"، أي تدعون لهم ويدعون لكم³⁰، وهي مناسبة تجدد فيها الرعية بيعتها لأمر المؤمنين كل سنة فلماذا لا نفرح بذلك ونجعله عيداً من أعيادنا؟

6- مناسبة عيد الشباب بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي:

ذكرى عيد الشباب فرصة مواتية ومناسبة كريمة لتنبه المواطن والمواطنة إلى قيمة الحياة الإنسانية وتذكيره برسائله الدينية ومسؤوليته الدنيوية، وفرصة طيبة يعبر فيها كل مواطن عن سروره وابتهاجه بذكرى ميلاد أمير المؤمنين، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم يوم مولده، وكان يعبر عن ذلك بصيامه كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم يوم الإثنين قال: "ذاك يوم ولد فيه، ويوم بعثت أو أنزل علي فيه"³¹.

وهذه المناسبة تقتزن دوماً بمنشآت كبيرة ومنجزات عظيمة، ويستلهم منها الشباب ما ينبغي أن يكون عليه ويتحلى به من جد متواصل ونشاط دائم وعطاء مستمر في العلم والعمل والتمسك بكل مامن شأنه أن يحقق لبلده المزيد من التقدم والرخاء والازدهار في كل مجال من مجالات الحياة.

7- مناسبة المسيرة الخضراء بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي :

المسيرة الخضراء التي يخلدها الشعب المغربي يوم 6 نونبر من كل سنة، هي مسيرة شعب آمن بحقه في تحرير الأرض والإنسان، وكانت من تخطيط أمير المؤمنين الحسن الثاني رحمه الله عليه، ولم يكن يهدف من وراء هذه المسيرة غزو أرض ولا نشر مذهب، بل كان يريد أن تعود المياه إلى مجاريها

30 - صحيح مسلم، مرجع سابق، ج 3، ص 1481، باب خيار الأئمة وشرارهم، رقم الحديث: 1855.

31 - صحيح مسلم، مرجع سابق، ج 2، ص 819، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس، رقم الحديث: 1162.

الطبيعية، بأن تعود الأرض إلى أهلها وتستكمل بذلك وحدتنا الترابية، بعد الانقسام والانفصال الذي فرضه الاستعمار الإسباني البغيض، الذي لا يحسن إلا سياسة فرق تسد، وأيضا لإتمام مشروع التحرير الضارب في أعماق التاريخ، وكانت هذه المسيرة بحق أسلوبا سلميّا جديدا في التحرير.

تاريخيا مما يمكن قوله في هذا المضمار أن أعيان قبائل الصحراء من شرفاء وعلماء ورؤساء القبائل وغيرهم، كلهم كانت تربطهم بأمراء المؤمنين الذين توالوا على حكم المملكة المغربية عهود الولاء والبيعة، ويتوفرون على الظهائر الشريفة التي تركز هذا الطرح.

أيضا كان انطلاق جيش التحرير بالجنوب سنة 1956م تعبيرا قويا يجسد إرادة إمارة المؤمنين والرعية لاستكمال الاستقلال وتحقيق الوحدة الترابية، وخاض هذا الجيش الذي ضم كل أبناء القبائل الصحراوية وإخوانهم المجاهدين من مختلف جهات المغرب عدة معارك ضارية على امتداد ربوع الساقية الحمراء ووادي الذهب، وحقق انتصارات باهرة لم تجد القوات الإسبانية أمامها إلا أن تتحالف مع نظيرتها الفرنسية فيما سمي بعملية أكفيون.

وبتاريخ 25 فبراير 1958م استقبل الملك المغفور له محمد الخامس بمحاميد الغزلان وفود ومثلي وأعيان قبائل الصحراء، الذين جددوا البيعة له وتؤكد تجندهم دفاعا عن مقوماتهم المغربية العريقة³².

في حدث المسيرة الخضراء لبي المغاربة نداء الملك والوطن، وخرجوا في مسيرة سلمية سلاحهم القرآن الكريم والعلم الوطني، وحافظهم الإيمان وغايتهم إزالة الحواجز الفاصلة بين الأهل والأقارب والإخوان الذين تجمعهم وحدة العرف والعادات واللغة والتقاليد، ويجمعهم ارتباط أسلافهم بملوك الدولة المغربية وسلاطينها، فخرج حوالي ثلاثمائة وخمسين ألف متطوع من جميع أقاليم المملكة، وأكدوا للعالم أجمع التجاوب الحاصل بين أمير المؤمنين ورعيته، وأن الجميع مجمع على تحرير الصحراء من ربة الاستعمار، كما أكدوا أن استكمال الوحدة الترابية هدف كل المغاربة لا يعلو عليه هدف آخر.

وقد كان المأمول أن يكون هذا التحرير للصحراء المغربية حدثا سعيدا، وبشرى طيبة لكل مسلم يؤمن بحق الإنسان المسلم في أن ينخلع عن سلطة وحكم المستعمر، لكن هذا الإنجاز التحريري قد اصطدم في هذه المرحلة التي اختلت فيها القيم، بمعاكسة الإخوان والجيران الذين سكتوا على استعمار الصحراء، ولم يسكتوا وهم يرونها تعود إلى الأرض التي اقتطعت منها، كما اقتطعت كل الأماكن التي استردها المغرب بعد جهاد طويل.

32 - منشورات المندوبية السامية للمقاومة وجيش التحرير، موقعها على الأنترنت، بتصرف.

ولقد انتهى الأمر أخيرا إلى الترويج لأطروحة تقسيم الأرض التي عادت إلى أهلها، ليتسنى بذلك تكوين كيان جديد، ودويلة مجهرية تتاجر بالولاء، وتدين بالتبعية لمن ساعد على إنشائها.

إن الدعوة إلى تقسيم الصحراء المغربية، دعوة شاذة يرفضها الإسلام، ويأبأها التفكير السليم ويجانبها الصواب، تحقق أهداف أعداء الدين وأعداء المسلمين، وهي بهذا لا تستند إلا إلى الرغبة في التجزئة والتوسع ولو على حساب الحق والصواب ومصير الأمة، يقول رسول الله ﷺ: "من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية"³³.

والدعوة إلى التقسيم والتجزئة دعوة ظالمة جاءت لتنتقض ميثاق البيعة الذي أقرت بوجوده محكمة العدل الدولية، وهو ميثاق شرعي لم يعرف المسلمون غيره أسلوبا معبرا عن الولاء السياسي، كما أن دعوة التقسيم ظالمة للبشر أيضا، لأن ذلك التقسيم ليس تقسيما للأرض فقط، وإنما هو تقسيم للأكباد والقلوب التي تعيش على تلك الأرض، وهو أيضا تقسيم للأسر والعشائر والقبائل والأصهار والأصدقاء، فإذا حيل بين الأخ وأخيه وأخته، وبين الأم وابنها وبناتها وبين الأقرباء، أفلا يكون ذلك عدوانا ومخالفة صريحة للشرع؟ روى الترمذي عن أبي أيوب أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من فرق بين والدته وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة"³⁴.

ماذا سيكون جواب إخواننا المغاربة المقيمين بالصفة الأخرى لله تعالى غدا، عندما يسألهم عن سبب جفائهم لأهلهم وأحببتهم كل هذه المدة الطويلة؟ وماذا سيقول الولد لله تعالى عندما يسأله عن سبب عقوقه وسبب غيبته عن أحد والديه مدة تزيد على الثلاثين سنة؟ وقد يموت الوالد أو الوالدة ولم يسمح لنفسه بالاجتماع معهما ورؤيتهما، وماذا سيقول الأخ لله تعالى عندما يسأله عن السبب في عدم زيارة أخيه أو أخته المريضة؟ وماذا سيقول الجيران لله عز وجل غدا عنده، فعوض أن يوفقوا ويقاربوا ويصلحوا ويجمعوا بين أهل العشيرة الواحدة، تراهم يؤلبون ويتوعدون ويشغلون في السر والإعلان من أجل ترك الأمر على حاله وفصل وطن واحد إلى جزئين؟ وكأنه ليست هناك آخرة تنتظرنا، يقول رسول الله ﷺ فيها رواه البيهقي عن أنس: "من أصبح لا يهتم للمسلمين فليس منهم"³⁵.

33 - صحيح البخاري، ج 6، ص 2588، مرجع سابق، باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أمورا تنكرونها، رقم الحديث: 6646.

34 - تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذي، مرجع سابق، ج 5، ص 154.

35 - المحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ج 4، ص 356، رقم الحديث: 7902، ت مصطفى عبد القادر عطا بيروت، دار الكتب العلمية، 1990، ط 1.

إن الخلاف والمشاكل تطرأ بين أهل الأسرة الواحدة، وبين أهل القبيلة الواحدة، وبين أهل الدولة الواحدة، وهذه سنة الله في خلقه، ولكن المتمتع بذرة من الإيثار بالله عز وجل لا يمكن أن يدع الخلاف يستمر لأكثر من ثلاثة أيام، كما هي سنة رسول الله ﷺ في هذا الباب، فما بالك بأن أسعى بكل ما أملك ليشثد هذا الخلاف وليستمر لأعوام متتالية!

روى الإمام مالك في الموطأ عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا يحل لمسلم أن يهاجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام"³⁶...

وإنه عند البحث والتقصي والتفكير بإمعان في جذور هذا المشكل القائم بين أهل البلد الواحد، تجد مرده إلى ضعف الوازع الإيماني في القلوب، وتغلغل الأفكار الشيطانية بين الناس، وخاصة تلك التي تدعو إلى التفرقة والتشردم والتشتت وعدم الانسجام وتوحيد الرؤى، وكان جديراً بنا ونحن مسلمون أبناء وطن واحد وتاريخ واحد وجغرافية واحدة، أن نضع اليد في اليد والقلب على القلب ونشمر على ساعد الجد وننافس القوى المتقدمة، بدل من المراوحة في المكان نفسه، وتضييع الوقت فيما لا طائلة وراءه، فهذا عصر الاتحاد والاتحاد قوة، فليكن كل همنا هو جمع شمل خلق الله ليعيشوا كالجسد الواحد، وليتعموا بالسعادة والهناء التي طالما تشوفوا إليها.

وختاماً أقول: إن المناسبة الوطنية حدث هام يستحق أن يتناوله الخطيب في خطبة جمعة، لما فيه من تذكير بتاريخ وتضحيات أسلافنا الصالحين في سبيل الدين والوطن وإمارة المؤمنين، وهذا شيء مهم خاصة بالنسبة لجيل ما بعد الاستقلال، الذي ينبغي أن يدرك أن هذه النعم التي تتراقص بين أعيننا اليوم في مغرب الأمن والأمان، لم تأت هكذا عن كسل ودعة وخمول، وإنما حصلناه وامتعنا الله به بسبب جد واجتهاد وهمة وعزيمة أولئك الصادقين من أمرائنا وآبائنا وأجدادنا، الذين ينبغي أن نتخذهم قدوة في دفاعهم عن الدين والوطن، وتماسكهم ووحدتهم فيما بينهم رغم تنوع أعراقهم، وتشبثهم بإمارة المؤمنين، رمز الوحدة والاستقرار المجتمعي، والحمد لله رب العالمين.

36 - وروى البخاري في الفتح، كتاب الأدب، باب الهجرة. ورواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، بات تحريم الحجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي.

الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية من خلال عقد البيعة في الإسلام

د. أحمد الأزمي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس

ال خليفة، أو الإمام أو السلطان، أو الحاكم، كلها مصطلحات ومفاهيم، يقصد بها من تتوفر فيه مجموعة محددة من الشروط المنصوص عليها في الكتاب والسنة، تؤهله لقيادة الأمة وتسيير شؤونها وفق حكمة رشيدة، وتكون وراء إجماع الرعية على تفويضه أموراً المرتبطة بالمناحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهذا التعاقد الحاصل بين الطرفين وفق شروط معينة، تضمن الحقوق والواجبات المتبادلة بين الحاكم ومحكوميه، هو ما يصطلح عليه في الفكر السياسي الإسلامي بـ "البيعة".

وللإحاطة بالموضوع سنقسمه منهجياً إلى مبحثين رئيسيين، نتطرق في الأول للتعريف بمفهوم البيعة في ارتباطها بالخلافة ودلالاتها، وأنواعها، وتطورها التاريخي، ونخصص الثاني، للالتزامات المترتبة على عقد البيعة بالنسبة للحكام والمحكومين على حد سواء، وفقاً لمقتضيات تعاليم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما هي موضحة ومفسرة ومبسطة بتفاصيلها في التأليف المشهورة، المعروفة بالأدب السلطانية.

I- مفهوم البيعة في الإسلام وتطورها التاريخي:

1- مفهوم البيعة في الإسلام:

البيعة والمبايعة مشتقة من البيع، ويطلق البيع ضد الشراء كما يطلق على الشراء نفسه، فهو من الكلمات التي تطلق على الشيء وضده، ويقال لغة، بعت الشيء شريته، وفي الحديث قال رسول

الله ﷻ: (لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ولا يبيع على بيع أخيه)¹. قال الشراح: إن المقصود، لا يشتري على شراء أخيه، لأن البائع لا يكاد يدخل على بائع آخر وإنما المعروف أن المشتري يعطي الثمن فيأتي مشتر آخر ويزيد عليه، كما أن الرسول ﷺ سمي الطرفين بالبيعين، فقال (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا)². ويقال للشيء مبيع ومبيوع.

وكل هذا يعني أن البيع عقد بين البائع والمشتري، تنتقل بموجبه الأملاك من يد لأخرى، ويتبعه الالتزام والإلزام. وعلى هذا المعنى، تقاس البيعة التي تكون بين الأمة والإمام، فهي عقد من الأمة على التفويض للإمام بالإمامة، ويتبعه الالتزام والإلزام، أي بذل الطاعة والنصرة من الأمة في مقابل الحماية والرعاية بالعدل من الإمام. وهو نفس معنى البيعة الذي حدده ابن خلدون الذي يرى "أن البيعة، هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه، وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده، جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد. فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي ذلك بيعاً، مصدر بيع. وصارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع، وهو المراد في الحديث في بيعة النبي ﷺ ليلة العقبة، وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ. ومنه بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة، إذ كان الخلفاء يستحلفون على العهد، ويستوعبون الأيمان كلها لذلك، فسمي هذا الاستيعاب أيمان البيعة" إلى أن قال: "وأما البيعة المشهورة لهذا العهد، فهي تحية الملوك (...)، أطلق عليها اسم البيعة، التي هي العهد على الطاعة مجازاً، لما كان لهذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها، وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية، واستغني بها عن مصافحة الأيدي التي هي الحقيقة في الأصل، لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتدال المنافيين للرئاسة، وصون المنصب الملوكي، إلا في الأقل، ممن يأخذ نفسه بالتواضع من الملوك مع خواصه، ومشاهير أهل الدين من رعيته، فافهم معنى البيعة في العرف، فإنه أكيد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه، ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً"³.

1 - أخرجه البخاري في كتابه: البيوع، باب لا يبيع الرجل على بيع أخيه، لا يسوم على سوم أخيه، وهو عنده أيضاً في كتاب النكاح، وقد أخرجه مسلم أيضاً في كتاب البيوع والنكاح، والترمذي في النكاح.

2 - أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب البيعان بالخيار، ما لم يفترقا وأخرجه مالك في الموطأ مع خلاف في اللفظ، في كتاب البيوع باب بيع الخيار، وأخرجه مسلم في كتاب البيوع، باب ثبوت خيار المجلس وانظر أيضاً: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت (د. ت)، ج 8، ص 24.

3 - عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1988، ص 261.

وذكر القلقشندي أن البيعات جمع بيعة، وهي مصدر بايع فلان الخليفة، فبايعه مبايعة، ومعناه المعاهدة والمعاهدة، فهي شبيهة بالبيع الحقيقي، ثم أضاف ناقلاً عن ابن الأثير: "كأن كل واحد منهم باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه، ودخيلة أمره"⁴.

وذكر ابن منظور في "اللسان": أن البيعة هي الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة، ومن ثم جاء معناها يمين الولاء، يقسم بين يدي الخليفة عند ولايته. وهذه الشعيرة عبارة عن وضع اليد في يد الأمير المبسوطة دلالة على الخضوع. ويقال بايعه وأعطاه صفقة يده، والأصل في ذلك ما كان عليه العرب من أنه إذا تباع اثنا صفق أحدهما بيده على يد صاحبه، ومن هنا انتقل، فاستعمل كتعبير دقيق للربط الإيماني القوي والدائم بين الطرفين في المبايعات⁵.

ويتضح من هذه التعريفات كلها أن البيعة قولية وعملية، وأن اليد هي التعبير العملي لها، بعد أن يقول المبايع (بالكسر) للمبايع (بفتح) رضيت بك خليفة أو نحوه، مما يدل على الرضا، وهي عقد يتم بين الطرفين، الطرف المختار والمرشح للخلافة، وطرف أهل الحل والعقد المرشحين، والخلافة هي موضوع البيع.

وأول مفهوم للبيعة في الإسلام كان لنصر دين الله، وتطهير النفوس، وطاعة رسول الله ﷺ في اللقاء التاريخي بين النبي ﷺ وبين أهل المدينة في العقبة الأولى، إذ قدم اثنا عشر رجلاً من الخزرج والأوس، فاجتمعوا مع الرسول ﷺ وأسلموا وبايعوه، على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا ولا يزناوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا بهتاناً يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف⁶.

وللمرة الثانية كانت بيعة أخرى في العقبة الثانية، حين تمت له من عدد أكبر من أهل المدينة، اشترط فيها لربه أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئاً، ولنفسه أن يمنعه، مما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم، حين قدم عليهم. ولما نزل رسول الله ﷺ بالمدينة، وقعت هناك بيعة ثالثة، إذ بايعه أصحابه البالغ عددهم ألفاً وخمسمائة رجل، على قتال المشركين الذين صدوه عن العمرة، وحبسوا مبعوثه إليهم عثمان بن عفان، تلك البيعة التي كانت السبب في تخويف قريش، ورضوخها لصلح الحديبية المعروف، والمترتب عنه نصر عظيم وفتح مبين للمسلمين⁷.

4 - صبح الأعشى، الجزء 9، ص 273، نقلاً عن الحسين وجاج، البيعة والعهد وتأثيرهما في الاستقرار والاستمرار، ضمن أعمال ندوة البيعة والخلافة في الإسلام بمدينة العيون، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1985، ج 1، ص 212.

5 - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج 8، ص 23 وما بعدها.

6 - أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلي، جزآن، بدون دار نشر ولا تاريخ، ج 1، ص 431 وما بعدها.

7 - نفسه، ص 454 وما بعدها.

وقد مدح الله هذه البيعة المعبرة عن استعداد المسلمين الصادق، لخوض غمار الحرب مع كفار قريش، وسجلها في صحائف من نور بقوله: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا، ومغانم كثيرة ياخذونها وكان الله عزيزا حكيما»⁸.

وقد وردت كلمة البيعة ومشتقاتها في آيات كثيرة أخرى من كتاب الله العزيز:

1- «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به»⁹.

2- «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله»¹⁰.

3- «وأشهدوا إذا تبايعتم»¹¹.

4- «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة»¹².

5- «ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا»¹³.

6- «قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا خُلَّة»¹⁴.

7- «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله»¹⁵.

8- «يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون»¹⁶.

8 - سورة الفتح، الآية: 18-19.

9 - سورة التوبة، الآية: 112.

10 - سورة الفتح، الآية: 10.

11 - سورة البقرة، الآية: 281.

12 - سورة البقرة، الآية: 252.

13 - سورة البقرة، الآية: 274.

14 - سورة إبراهيم، الآية: 33.

15 - سورة النور، الآية: 36.

16 - سورة الجمعة، الآية: 9.

ومن الأحاديث الشريفة الواردة في معنى البيعة:

1- روي عن مسلم والترمذي عن رسول الله ﷺ، قال: "من أطاعني، فقد أطاع الله، ومن عصاني، فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني"¹⁷.

2- روى مسلم عن رسول الله ﷺ: "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"¹⁸.

وبما أن المرأة شقيقة الرجل في الأحكام، وفي الحقوق والواجبات، فقد نزل القرآن الكريم ببيعة النساء، في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المومنات يبايعنك، على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن، ولا ياتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾¹⁹.

وتؤكد المصادر، أن عدد من حضرن من البيعات لرسول الله ﷺ، أربعمائة وسبع وخمسون امرأة²⁰.

ولقد حفظت مصادر الحديث عدة وقائع بايع فيها رسول الله ﷺ نساء على أعمال محددة، هذه بعضها:

فقد أخرج الأئمة مالك في الموطأ والترمذي والنسائي، عن أميمة بنت رقية أنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ، في نسوة بايعنه على الإسلام، فقلن يا رسول الله نبايعك على ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف، فقال رسول الله ﷺ: فيما استطعتن وأطقتن، قالت: فقلن الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلم نبايعك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة أو مثل قولي لامرأة واحدة"²¹.

وارتباطا بمفهوم البيعة في الإسلام، كما هو منصوص عليها في الكتاب والسنة، فقد ارتبط مدلولها أيضاً بعدة أحداث حاسمة ومؤثرة في تاريخ البعثة النبوية وما رافقها من أحداث، لتترسخ

17 - عبد الكريم التواتي، البيعة والخلافة في الإسلام، ضمن أعمال ندوة البيعة والخلافة، م. س، ج 2، ص 547 وما بعدها.
18 - نفسه.

19 - سورة الممتحنة، الآية: 12.

20 - أحمد أفران، البيعة والخلافة في الإسلام، ضمن أعمال ندوة البيعة والخلافة، م. س، ج 1، ص 148 وما بعدها.

21 - موطأ الإمام مالك، كتاب البيعة، باب ما جاء في البيعة، الحديث الثاني، وأخرجه الترمذي في جامع كتاب السير في رسول الله، باب ما جاء في بيعة النساء.

معانيها في عهد الخلفاء الراشدين وعلى امتداد الخلافة الإسلامية، مما يجعلنا نتحدث عن بيعات متنوعة منها:

* البيعة على تقبل عقيدة التوحيد

* البيعة على النصر

* البيعة على الهجرة

* البيعة على الجهاد

* البيعة على الصبر

وبعد أن حاولنا تأصيل مفهوم البيعة، من خلال الكتاب والسنة، نتقل للحديث ولو في عجلة عن تطورها، بعد عصر النبوة.

2- التطور التاريخي لمفهوم البيعة في ارتباطه بالخلافة (الإمامة)

نرى في البداية من المفيد التعريف ولو بشكل سريع بمفهومَي الإمامة والخلافة، وهما مفهومان، يدلان على شيء واحد، ويمكن أن يضاف إليهما في نفس المعنى إمارة المؤمنين وإمارة المسلمين، والملك، مع بعض التفاوتات البسيطة، بين مصطلح وآخر. غير أن المفهومين البارزين في النصوص التاريخية الإسلامية، هما الإمامة والخلافة. وهما اللذان سنركز عليهما. فمن حيث الاستعمال اللغوي هناك من يرى، أن الإمام كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم، وهو من أمه إذا قصده، وورد في القرآن مفردا ومجموعا، بالمعنى اللغوي السابق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾²²، ثم قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾²³.

وتطورت الخلافة الإسلامية على أرضية التطبيقات التاريخية إلى أن فرضت نفسها كمؤسسة إسلامية، يعقد لها الفقهاء بابا خاصا، تطلق على الإمام، فتجب طاعته على الأمة، ومن الفقهاء من اشترط فيه سلالة معينة، كابن تيمية²⁴، وابن حزم الذي يرى أن الخلافة لا تجوز إلا في قریش مستدلا بقول الرسول ﷺ: "لا يزال هذا الأمر في قریش، ما بقي من الناس إنسان"²⁵.

22 - سورة البقرة 123.

23 - سورة القصص، الآية: 4.

24 - للتوسع في الموضوع يمكن مراجعة: أحمد بن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين، خرج أحاديثه سعد عبد الغفار علي، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2005.

25 - حمداتي ماء العيين، دور الخلافة من خلال عقد البيعة في تكوين وحدة الدولة الإسلامية، ضمن أعمال ندوة البيعة والخلافة، ج 2، ص: 408.

وإذا أطلقت الإمامة دون تخصيص كان معناها الإمامة العظمى، تميزها لها عن إمامة الصلاة التي لا تخلو بدورها من رموز للتصدر، واحتلال المكانة المرموقة في المجتمع، التي قد تفضي بصاحبها إلى قيادة الدولة، وهو ما حصل، لما اعتبر المسلمون أن تقديم الرسول ﷺ لأبي بكر ليؤم الناس، نيابة عنه في الصلاة، إشارة إلى تقديمه ليؤمهم في الشؤون العامة أي الإمامة العظمى. وإذا كان الإسلام لا يجعل من أئمة المسلمين معصومين يمنحون الجنة والنار لمن أرادوا، مثل ما عليه السلطة الكنسية عند المسيحيين، إلا أنه أوجب طاعتهم والرجوع إليهم عند الاختلاف، فقال عز وجل، مخاطبا الإمام أو الخليفة: ﴿إن الله يأمركم أن تودوا الامانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾²⁶، ثم قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾²⁷.

بعد هذا التعريف الموجز بالإمامة، ننتقل للحديث عن الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية.

II- الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية:

سنتطرق في هذا المبحث، لمحور أول يتناول الإمامة وشروط انعقادها، ونفصل القول في محور ثان بخصوص الحقوق المتبادلة بين الراعي والرعية.

1- الإمامة وشروط انعقادها:

يرى أبو الحسن علي الماوردي في "الأحكام السلطانية والولاية الدينية" أن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع، وإن شذ عنه الأصم²⁸، واختلف في وجوبها، هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟ وانقسم الرأي في هذا الموضوع إلى قسمين، فريق أول يقول إنها وجبت بالعقل، لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من الظلم، ويفصل بينهم في النزاع والتخاصم. أما الفريق الثاني، فيقول بوجوبها بالشرع دون العقل، لأن الإمام، يقوم بأمور شرعية، قد كان مجوزا في العقل أن لا يرد التعبد بها، فلم يكن

26 - سورة النساء، الآية: 57.

27 - سورة النساء، الآية: 58.

28 - الأصم: هو عبد الرحمن بن كيسان، شيخ المعتزلة، كان من أفصح الناس وأورعهم وأفقههم، منقبضا عن الدولة (ت 200هـ). انظر: ترجمته في الفهرس لابن النديم، تحقيق رضا تجدد، طهران 1971.

العقل موجبا لها²⁹، غير أن الخطر الكامن في هذا الرأي، هو أن الفرد الذي يحكم عقله، بمقتضى العدل في التناصف والتواصل، يتدبر الأمور بعقله، لا بعقل غيره، لكن الشرع، جاء، بتفويض الأمر إلى وليه في الدين، كما ينص على ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾³⁰.

أما الشروط الواجب توفرها في الإمام، فمنها كما حددها الماوردي³¹:
الأول: العدالة على شروطها الجامعة.

الثاني: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

الثالث: سلامة الحواس من السمع، والبصر، واللسان.

الرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

الخامس: صحة الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح بشكل مرض.

السادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

لكن ابن خلدون من جهته، ورغم أنه وظف الكثير من الأفكار والمعلومات الواردة في الأحكام السلطانية، فإنه اختلف مع الماوردي في عدد الشروط التي يجب توفرها في الإمام المرشح لرئاسة الدولة، وفي ذلك يقول: "... وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل. واختلف في شرط خامس، وهو النسب القرشي"³².

وإذا كانت هذه، هي الشروط التي يجب توفرها في الإمام أو الخليفة، فما هو الوجه الشرعي الذي تنعقد بها، أي كيف يبايع الإمام أو الخليفة؟

تنعقد الإمامة باختيار أهل العقد والحل، إلا أن العلماء اختلفوا في عدد من تنعقد بهم الإمامة، فمنهم من قال بأنها لا تنعقد إلا بإجماع جمهور أهل العقد والحل من كل بلد، ليكون الرضا به عاما،

29 - أبو الحسن علي الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد جاسم الحديبي، منشورات المجمع العربي، بغداد، 2002، ص 49 - 50.

30 - سورة النساء، الآية: 58.

31 - أبو الحسن علي الماوردي، م. س، ص 54.

32 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، م. س، ص 241.

والتسليم لإمامته إجماعاً، وهذا رأي مدفوع ببيعة أبي بكر رضي الله عنه، على الخلافة باختيار من حضرها، ولم ينتظر بيعته قدوم غائب عنها، وقال أصحاب الرأي الآخر: أقل من تنعقد به الإمامة، منهم خمسة يجتمعون على عقدها، أو يعقدها أحدهم برضى الأربعة، استدلالاً بأمرين:

أحدهما: أن بيعة أبي بكر، انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها، وهم عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح وأسد بن حضير وبشر بن سعد وسالم بن مولى أبي حذيفة³³.

والثاني: أن عمر رضي الله عنه، جعل الشورى في ستة لتعقد لأحدهم برضا الخمسة، وهذا قول أكثر الفقهاء، والمتكلمين، من أهل البصرة. وقال آخرون من علماء الكوفة: تنعقد بثلاثة منهم يتولاها أحدهم برضا الاثنين ليكونوا حكماً وشاهدين، كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين، وقالت طائفة أخرى، تنعقد بواحد، لأن العباس قال لعلي بن أبي طالب: امدد يدك أبايعك فيقول الناس، عم رسول الله ﷺ بايع ابن عمه، فلا يختلف عليك اثنان³⁴.

من جهة أخرى، حسم أهل العقد في أمر آخر مرتبط ببيعة الخليفة وتنصيبه، وذلك عند تعدد الأئمة المتوفرة فيهم الشروط المطلوبة، أو عند وقوع الاختيار على شخص معين.

في مثل هذه الحالات يقدمون للبيعة منهم أكثرهم فضلاً، وأكملهم شروطاً، ممن يسرع الناس إلى طاعته، من قبل بيعته، عادة. فإذا تعين لهم من بين جماعة المسلمين، من أداهم الاجتهاد إلى اختياره، عرضوها عليه، فإذا أجاب إليها بايعوه عليها وانعقدت له الإمامة ببيعتهم ولزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته، وإن امتنع من الإمامة، ولم يجب إليها، لم يجبر عليها، لأنها عقد مرضاة واختيار، لا يدخله إكراه ولا إجبار، وعدل عنه إلى من سواه من مستحقيها، ليباع عليها، وإذا تكافأ في شروط الإمامة اثنان، قدم لها أنسبهما، ولو كان أحدهما أعلم والآخر أشجع، روعي في الاختيار، في ما يوجبه حكم الوقت، فإن كانت الحاجة إلى فضل الشجاعة أدعى، لانتشار الثغور وظهور البغاة، كان الأشجع أحق.

وهكذا يبدو أن مبادرة أهل الحل والعقد، للحسم في موضوع الخلافة، أمر من صميم الشريعة الإسلامية ونصرة ودعم لها، طالما أن الأمة لا يصح لها شرعاً، أن تبقى دون إمام. وعلى ذلك انعقد اجتماع المسلمين، فدل ذلك على أن الصحابة رضوان الله عليهم، وهم أهل العصر الأول، كانوا على بكرة أبيهم متفقين على أنه لا بد من إمام، فذلك الإجماع على هذا الوجه دليل قاطع على وجوب

33 - أبو الحسن علي الماوردي، م. س، ص: 56-57.

34 - نفسه، ص: 57-58.

الإمامة، ثم أن نصب الإمام واجب، قد عرف وجوبه بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله ﷺ، عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر وتسليم النظر إليه في أمورهم³⁵.

بعد هذا المحور المرتبط بالإمامة وشروط انعقادها، نتقل لبسط القول حول المحور الثاني من المبحث والذي يعد حقيقة صلب الموضوع، ونعني بذلك الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية، كما ينص على ذلك عقد البيعة الذي يجمع بين الطرفين، تطبيقاً لما ورد في الكتاب والسنة.

2- الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية (السياسة الشرعية)³⁶:

سبق، أن سطرنا في المبحث السابق، الشروط الواجب توفيرها في الإمام، والإطار الشرعي الذي هو أهل العقد والحل، الذي يتم من خلاله عقد البيعة له، مع ما يرافق ذلك من صرامة في مراعاة أدق التفاصيل الفقهية المرتبطة بتعدد الأئمة وصعوبة الاختيار. وبعد أن تتم البيعة للإمام، ويصبح قائداً للدولة، وجب على الرعية حق الطاعة والنصرة له.

وإذا كان الخليفة مراعيًا لحقوق الله في رعيته، محافظاً على الأمانة التي في عنقه بموجب عقد البيعة، فإن الخروج عليه عصيان ظاهر، ويحفظ لنا التاريخ عدة أمثلة لشخصيات إسلامية بارزة أعطت المثل الأعلى في الصبر على المكروه، حفاظاً على وحدة المسلمين، واتقاء للفتنة التي حذر منها الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذا أبو ذر الغفاري الذي كان منفيًا مغضوباً عليه بالربذة³⁷ بعد أن رحله معاوية عن الشام بأمر من عثمان، أتاه بعضهم وقال له: إن هذا الرجل (معاوية) فعل بك كذا وكذا، فهل أنت ناصب لنا راية³⁸، فقال أبو ذر: "لو أن عثمان سيرني من المشرق إلى المغرب سمعت وأطعت"³⁹.

وحفظاً لحقوق الرعية، وصيانة لبيضة الإسلام، من ضياع أو عبث أو وقوع ما ليس في الحسبان، فقد احتاط المشرع وربط إخلاص الأمة للخليفة، بعدم تغير حال هذا الأخير، وفقده جملة

35 - نفسه.

36 - من المؤلفات التي ناقشت مسألة السياسة الشرعية بشكل علمي مبسط، كتاب "المقدمة السلطانية في السياسة الشرعية"، تأليف طرغان شيخ المحمدي الحنفي الأشرفي (ت 881هـ)، تقديم وتحقيق الدكتور عبد الله محمد عبد الله، مكتبة الزهراء، القاهرة، 1997.

37 - خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1998، ص 52.

38 - يعني أن يخرجوا عن عثمان ويقاتلوه.

39 - عبد الكريم التواتي، البيعة والخلافة في الإسلام، ضمن أعمال ندوة البيعة والخلافة في الإسلام، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1985، ج 2، ص 579.

من الشروط المتوفرة فيه، فيفقد بذلك مشروعية إمامته، كالفسق والظلم وما شابه ذلك، ونقص في بدنه كفقد بعض حواسه أو أعضائه مثل ذهاب السمع والبصر، أو فقد أحد اليدين أو الرجلين⁴⁰.

يتضح من كل هذه الإفادات التي أوردها الماوردي وغيره، والمرتبطة بالشروط الضرورية شرعا، المطلوب توفرها في الإمام المرشح لقيادة الأمة، من علم، وعدل، وإقدام، وسلامة البدن من أي مرض أو علة، أو تشوه في بعض أعضاء جسده، أن المشرع وضع نصب عينيه مصلحة الرعية التي يجب أن لا تضيع حقوقها، طالما ظلت وفية للعهد الذي يربطها بالراعي، وهو البيعة التي تفرض على الطرفين حقوقا وواجبات.

فالصورة المثالية، لما يجب أن تكون عليها الدولة، في علاقة الراعي بالرعية، بفضل الوفاء لمقتضيات وأهداف عقد البيعة النبيلة، تحققت في عدد غير قليل من عصور الخلافة الإسلامية، التي عرفت فترات مشرقة وزاهية في التاريخ، من حيث الاستقرار والرخاء، وازدهار العلوم الإسلامية وتطورها في كل تخصصاتها وفنونها، كما هو الشأن بالنسبة للخلافة الأموية⁴¹، خلال النصف الأول والنصف الثاني من القرنين الهجريين، والخلافة العباسية⁴²، خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وإلى ما بعد نهاية القرن السادس الهجري، ونفس الشيء يقال عن دولة الخلافة بالأندلس في عصورها الزاهية⁴³، إلى تاريخ احتلال مدينة سبتة المغربية خلال القرن التاسع الهجري، غير أن هذه النماذج التاريخية الإيجابية، في تاريخ الخلافة الإسلامية، تخللتها وأعقبتها نماذج سلبية، مشهورة ومعروفة في التاريخ العربي الإسلامي، نتيجة الإخلال بمستلزمات عقد البيعة، من هذا الطرف أو ذاك.

وبما أن عقد البيعة، يلزم الطرفين الحاكم والمحكوم، فإن التاريخ يحتفظ لنا بنصوص، تشهد على إخلاص بعض الخلفاء، لله والرسول في المهمة التي أنيطت بهم، وحرصهم على الضرب بيد من حديد على كل من رام الخروج عن شرع الله في تدبير شؤون الأمة، كما نجد نصوصا أخرى تسلط الضوء على ما كان للرعية من دور في تقويم ما اعوج من سياسة الإمام في دولته، ومن سلوكات منحرفة ولا شرعية، من قبل ولاية وعمال في الأقاليم لا ضمير لهم، فتسببوا بذلك في تدمير الرأي

40 - أبو الحسن علي الماوردي، الأحكام السلطانية، م. س، ص 83 وما بعدها.

41 - محمد كامل المحامي، الدولة العربية الكبرى، دار المعارف بمصر، د. ت، ص 130 وما بعدها.

42 - مصطفى الرفاعي، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1968، ص 199 وما بعدها.

43 - سهيل زكار، تاريخ العرب والإسلام، دار الفكر، بيروت، 1977، ص 422 وما بعدها.

العام، مما كان يسيء لقدسية منصب الخلافة ويطنعن في قيم العدل والمساواة التي يعتبر الإمام أكبر ضامن لها.

أ- نماذج من إخلاص الخلفاء لله تعالى واتباع رسوله ﷺ:

* الخليفة أبو بكر الصديق: يعتبر أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ أبرز نموذج، وقع عليه اختيار الصحابة لرئاسة شؤون الدولة الفتية، في ظرف حرج، وبمجرد ما تمت مبايعته من قبل أبرز المقرين من النبي محمد ﷺ كعمر وعثمان وعلي، والزبير، وجماعة من الأنصار⁴⁴، ألقى أبو بكر كلمته التاريخية المؤثرة في المسلمين والتي يمكن اعتبارها بلغة العصر، خارطة الطريق، التي من سار على هديها نجا. وفيما يلي أهم المقاطع الواردة في خطبته، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال:

"أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم تكلفوني ما كان رسول الله ﷺ يطبق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فبايعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قبض، وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أنا فاجتنبوني، (...) وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، وإن استطعتم أن لا يمضي إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله"⁴⁵. إلى أن قال: "... إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، فإن ما خلصتم الله من الأعمال، فطاعة أتيتموها وضرائب أديتموها وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، حين فقركم وحاجتكم، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا، فيمن كان قبلكم (...)، واعلموا أنكم عبيد مذنبون، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته"⁴⁶.

* عمر بن عبد العزيز (ت 96هـ/715م)⁴⁷: من أبرز خلفاء بني أمية الذين ساروا في الرعية سيرة عادلة، على غرار سيرة الخلفاء الراشدين في رعاياهم، خصوصاً وأنه من سلالة عمر بن الخطاب الذي سارت بذكره الركبان قديماً وحديثاً بخصوص العدالة الاجتماعية التي كان يحرص عليها شخصياً خلال فترة حكمه. وقد نسب لعمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب قوله، وهو خليفة للمسلمين: "أيها المسلمون، إنه لا كتاب بعد كتاب القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، ألا وإني لست بقاض، ولكنني منفذ، ولست بمبتدع ولكنني متبع، ولست بخير من أحد

44 - الحافظ ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2008، ج 5، ص 4.

45 - نفسه، ص 5.

46 - نفسه، ص 5.

47 - سهيل زكار، م. س، ص 198.

منكم، ولكنني أثقلكم حملاً، وأن الرجل لهارب من الإمام الظالم، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" ⁴⁸.

* المنصور، الخليفة العباسي (ت 158هـ) ⁴⁹: من الخطب المنسوبة لهذا الخليفة الذي عرفت الدولة في عهده وفي عهد أسلافه وبعض من جاء بعده قدراً لا يستهان به من الرخاء والازدهار، محذراً أعوانه من مغبة الغش المؤدي إلى الإساءة إلى الأمة: "... أيها الناس، لا تخرجوا عن أنس الطاعة، إلى وحشة المعصية، ولا تسروا الأئمة، فمن أسر غش إمامه، أظهر الله سريرته في فلتات لسانه وسقطات أفعاله وأبداها الله لإمامه الذي بادر بإعزاز دينه به" ⁵⁰.

* أحمد المنصور، الخليفة السعدي (ت 1603م): ازدهر المغرب الأقصى في عهد هذا الخليفة، واتسعت دولته، وكان محباً للعلماء مجالساً لهم، يسير في الرعية سيرة عادلة، وقد أعطى المثال في الوفاء لعقد البيعة مع شعبه، عندما أنزل على محمد الشيخ المامون أحد أبنائه المرشحين لولاية العهد، أقصى العقوبات، لتفسخ أخلاقه وعدم اهتمامه بأمور الرعية التي أوكل له أمرها بمدينة فاس وما جاورها. وبعد أن حذره، عدة مرات، ووبخه، دون طائل، أقر الخليفة العزم، على وضع حد لتصرفاته مهما كان الثمن. وعندما علم ابنه محمد الشيخ المامون بالخبر: "... فر إلى زاوية الشيخ الصالح أبي الشتاء من فشتالة، قرب نهر ورغة، (...) فنزل بالزاوية ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الأحداث وقرناء السوء فبلغ خبره المنصور، فبعث إليه الباشا جودراً مع القائد منصور النيلي، فذهب إليه، فامتنع من الدخول في يدهما، وانعزل في أصحابه حتى ناوشوه القتال، وتراموا بالنبال، ثم قبضوا عليه وأتوا به إلى المنصور، فأمر به إلى مكناسة، فسجن بها" ⁵¹.

* السلطان المولى سليمان (ت 1822م): الأمير الورع العالم الذي تصفه المصادر، بأنه لم يأت فاحشة قط من صغره إلى كبره ⁵²، ومن صفحات عدله، واستقامته واحترامه لرعيته بموجب البيعة التي تربطهما، أنه أوصى بالبيعة لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام، ليتفرغ لعبادة ربه، وفي ذلك أورد صاحب "الاستقصا"، على لسان السلطان مولاي سليمان: "... ما أظن في أولاد مولانا الجد

48 - حمداتي ماء العينين، دور الخلافة من خلال عقد البيعة في تكوين وحدة الدولة الإسلامية، ضمن أعمال ندوة البيعة والخلافة في الإسلام، م. س، ج 2، ص 416.

49 - محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، 1983، ج 1، ص 99 وما بعدها.

50 - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 236، نقلاً عن حمداتي ماء العينين، م. س، ص 418.

51 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ج 5، ص 175 - 7176.

52 - نفسه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، المجلد الثالث، ص 200.

عبد الله، ولا في أولاد سيدي محمد والذي رحمه الله ولا أولاد أولاده، أفضل من مولاي عبد الرحمن بن هشام، ولا أصلح لهذا الأمر منه.

✽ الملك محمد الخامس (ت 1961م)⁵³: من المعروف تاريخيا أن الاستعمار الفرنسي، وهو يسيطر حمايته على المغرب منذ سنة 1912م، اعتدى على الملك الشرعي محمد الخامس سنة 1953م، ونفاه وأسرته إلى كرسিকা أولا، ثم إلى مدغشقر⁵⁴، بسبب مواجهته للفرنسيين ومطالبته لهم بمنح الاستقلال للمغرب وشعبه، وهي المواجهة والتضحية التي رأى فيها واجبا وإجراء لا بد منه، باعتباره المؤتمن شرعا، كما ينص على ذلك عقد البيعة، على وحدة البلاد واستقلالها، فلم يزد ذلك الشعب المغربي إلا إيمانا وتشبثا واستمسكا بالملك الشرعي الذي أعطاه صفقة يده ومحضه الحب وأخلص له النية، وأصفى له الولاء، رافضا في الوقت نفسه ابن عرفة الذي نصبه المستعمر.

بعد هذه اللوحة التاريخية عن حرص بعض الخلفاء على الوفاء للرعية، احتراما ووفاء لمقتضيات عقد البيعة الذي يلزم الطرفين، انتقل للحديث، عن بعض النماذج من الرجال الأفاضل، الذين أخذوا على عاتقهم الجهر بالحق والوقوف ضد انتهاك حرمت الله.

ب- من ذلك : تمسك أبي ذر الغفاري رضي الله عنه بالبيعة:

في ختام هذا المقال عن البيعة والحقوق المرتبطة بها نقدم نموذجا من الصحابة وهو الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه:

أسلم أبو ذر رضي الله عنه في عهد الرسول ﷺ، وعندما أعلن شهادة الإسلام ارتسمت على وجه الرسول ﷺ، علامة الدهشة والعجب، لماذا ؟ لأن الرسول يعلم جيدا، أن الشخص الذي أعلن إسلامه، رجل من غفار، وهي قبيلة لا يدرك لها شأو في قطع الطريق. فماذا كان جواب الرسول ﷺ، لما توجه إليه أبو ذر فور إسلامه قائلا: " يا رسول الله بم تأمرني ؟ فأجابه الرسول: ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمري. فقال أبو ذر: والذي نفسي بيده، لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام في المسجد "⁵⁵.

وفعلا دخل أبو ذر إلى المسجد الحرام ونادى بأعلى صوته: "أشهد أن إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله". فكانت هذه أول صيحة بالإسلام تحدت كبرياء قريش وقرعت أسماعهم،

53 - Groupe d'auteurs, Histoire du Maroc, Paris, Casablanca, 1967, p. 252.

54 - Ibid, p. 402.

55 - خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1998، ص 44 - 45.

صاحبها رجل غريب ليس له في مكة حسب ولا نسب ولا حمى، فأحاط به المشركون وضربوه حتى صرعوه، ولم ينقذه من أيديهم إلا العباس عم النبي ﷺ. فازداد الرسول عليه السلام عجباً ودهشة، وقال عليه السلام: "إن الله يهدي من يشاء"، كما أثر عن الرسول ﷺ أنه قال: "ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر"⁵⁶.

وذات يوم ألقى رسول الله ﷺ - وهو الذي لا ينطق عن الهوى - هذا السؤال على أبي ذر: "يا أبا ذر، كيف أنت إذا أدركك أمراء يستأثرون بالفيء؟". فأجابه قائلاً: "إذاً، والذي بعثك بالحق لأضربن بسيفي"، فقال له رسول الله ﷺ: "أفلا أدلك على خير من ذلك؟ اصبر حتى تلقاني"⁵⁷.

لقد مضى عهد الرسول ﷺ، وبعده عصر أبي بكر، وعصر عمر رضي الله عنهما في تفوق كامل على مغريات الحياة ودواعي الفتنة فيها، لذلك تفرغ أبو ذر لعبادة ربه، وللجهاد في سبيله، غير لائذ بالصمت إذا رأى مخالفة هنا أو هناك، لكن الأحوال ستتبدل، بعد عهدي أبي بكر وعمر، وبدأ أبو ذر، خلال خلافة عثمان، يرى السلطة استعلاء واستغلالاً، فتصدى لاستنكار ومحاربة كل رموزه، ولقد بدأ جهاده هذا بأكثر، تلك المعازل سيطرة ورهبة واستفحالا في الظلم والاستغلال، وفي مقدمتها الشام، حيث معاوية بن أبي سفيان يحكم أرضاً من أكثر بلاد الإسلام خصوبة وخيراً وفيئاً، ويعطي الأموال ويوزعها بغير حساب، يتألف بها الناس الذين لهم حظ ومكانة.

ولقد بلغت جرأة أبي ذر، درجة، جعلته يسائل وينظر معاوية، أمام الملأ، في غير خوف ولا مداراة عن ثرواته قبل أن يصبح حاكماً، وعن ثروته بعد ذلك، عن البيت الذي يسكنه بمكة، وعن قصوره بالشام، ثم يوجه السؤال للجالسين حوله من الصحابة الذين صحبوا معاوية إلى الشام، وصار لمعظمهم ضياع وقصور، قائلاً: هل أنتم الذين نزل القرآن على الرسول وهو بين ظهرانيهم؟ أو لا تجدون في كتاب الله هذه الآية؟⁵⁸ «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم»⁵⁹، «يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»⁶⁰.

56 - المرجع السابق، ص 47.

57 - نفسه، ص 48.

58 - نفسه، ص 51.

59 - سورة التوبة، الآية 34.

60 - سورة التوبة، الآية 35.

لقد تناقلت الجموع والمحافل نبأ هذه المناظرة، فاستشعر معاوية الخطر، بعد أن أقرعته كلمات الثائر الجليل، ولأنه يعرف قدره فإنه أصدر أوامره بأن لا يمس بسوء، غير أنه قرر على الفور، إخبار الخليفة عثمان بالأمر، قائلاً: "إن أبا ذر، قد أفسد الناس في الشام"⁶¹، وهو ما جعل عثمان يكتب لأبي ذر ويستدعيه إلى المدينة، فترك هذا الأخير الشام، متوجهاً للمدينة، امتثالاً لأوامر الخليفة، وعملاً بوصية الرسول ﷺ بعدم استعمال السيف، وانسجاماً مع تعاليم البيعة التي في عنقه لخليفة المسلمين.

وخلال المقابلة التي خص بها عثمان أبا ذر بالمدينة، حدثه الخليفة برفق وعرض عليه البقاء في المدينة إلى جواره، مع ضمان حياة كريمة له، فأجابه أبو ذر بالقول: "لا حاجة لي في دنياكم"⁶²، وطلب منه أن يأذن له بالخروج إلى "الربذة"، فأذن له. ولقد ظل في الربذة شبه منفي، وهو في أوج معارضته أميناً، وفيما لرسول الله ﷺ، حافظاً في أعماق روحه نصيحته، ألا يحمل السيف. إنها وسطية الإسلام المنبثقة من الكتاب والسنة، والإخلاص للبيعة التي يفرض على الرعية الطاعة للإمام مهما كانت الظروف، باستثناء معصية الله في أمر من الأمور. ومما يؤكد هذا القول مرة أخرى، أن وفداً من الكوفة، جاء يوماً إلى الربذة يطلبون من أبي ذر أن يرفع راية الثورة ضد الخليفة، فزجرهم بكلمات حاسمة: "والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة، أو جبل، لسمعت وأطعت، وصبرت، واحتسبت، ورأيت ذلك خيراً لي..."⁶³.

كانت تلكم هي أهم القضايا المرتبطة بالبيعة، وتنصيب الكتاب والسنة عليها، وما يرافق ذلك من شروط انعقاد الإمامة شرعاً، وفق اجتهادات العلماء والفقهاء، عبر أهم مراحل التاريخ الإسلامي. وسواء تعلق الأمر بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أو اجتهادات العلماء تكتسي أهميتها من العقد المقدس الذي يربط الراعي بالرعية، وما يستلزمه من حقوق وواجبات من الطرفين، مركزين في ذلك بشكل أساسي على النصوص التاريخية ذات الصلة بالموضوع. وهو ما حاولت هذه الورقة أن تبرز أهم خطوطه، قدر الاستطاعة.

61 - خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، م. س، ص 52.

62 - نفسه، ص 52.

63 - نفسه، ص 53.

المبادرة الوطنية للتنمية البشرية : توجيه ملكي، ورافعة لبناء العمل الجماعي والتضامانات الاجتماعية بالمغرب

د. لحسن جنان
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
- فاس -

المبادرة الوطنية للتنمية البشرية¹ منهجية جديدة ابتكرها صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله². ومن مبادئها الأساسية توخي القرب والفعالية، كما يشكل العمل الجماعي، وتطوير أساليب التضامن والتشارك على مستوى البرامج المحلية أحد محاورها الإستراتيجية، ووضعت بهدف تدعيم عمل الدولة والجماعات الترابية، دون أن تحل محل البرامج القطاعية أو مخططات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية لهذه الجماعات، وأخيرا لتمنح قدرات مالية وبشرية وحكامة إضافية لدعم أربعة أنواع من العمليات تشكل صلب برنامجها :

- تطوير الأنشطة المدرة للدخل لفائدة الفئات الفقيرة والهشة.

1 - عرف برنامج الأمم المتحدة الإنمائي الصادر سنة 1995 التنمية البشرية بكونها "عملية توسيع لخيارات الناس، وان هذه الخيارات يمكن أن تكون من حيث المبدأ مطلقة، أو تتغير بمرور الوقت، لكون الخيارات الأساسية فيها هي أن يعيش السكان حياة مديدة وصحية، وأن يكتسبوا معرفة، وأن يحصلوا على الموارد اللازمة للعيش اللائق . ولا تنتهي التنمية البشرية عند هذا الحد بل تتجاوزه إلى خيارات إضافية تشمل الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والتمتع بفرص الخلق والإنتاج وبالاحترام الشخصي، وبحقوق الإنسان المكفولة".

2 - كان للتقارير المتتالية التي أصدرها البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة حول التنمية البشرية في العالم منذ 1990 دور كبير في تنبيه الدول إلى الأوضاع المختلفة التي تعيشها على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية . وقد فوجئ المغرب بالمرتبة المتأخرة التي يحتلها في هذا الباب، حيث صنف على التوالي ما بين 2002 و 2005 في المراتب 123 و 126 و 125 و 124 من ضمن 177 دولة شملت التقارير . ويقوم التصنيف على احتساب نسبة الأمية ومعدل الأمل في الحياة ومعدل الدخل الفردي للسكان ومستوى عيشهم علاقة بالبنيات التحتية والخدمات الاجتماعية التي يستفيدون منها.

وفي هذا السياق، وكذلك في إطار السياسة الجديدة التي دشنها صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، أعلن جلالته عن ميلاد المبادرة الوطنية للتنمية البشرية في 18 ماي 2005 كخطة وطنية لمعالجة هذه الاختلالات.

- دعم ولوج هذه الفئات إلى التجهيزات والخدمات الاجتماعية الأساسية .

- دعم عمليات التنشيط الاجتماعي، والثقافي، والرياضي.

- تعزيز الحكامة والقدرات المحلية في الإنتاج والتدبير.

وأضيف لهذه الأهداف منذ 2011 برنامج التأهيل الترابي وفك العزلة لفائدة اثنين وعشرين إقليميا تضم المجالات الأكثر فقرا وهشاشة.

ويطرح موضوع هذا المقال مسألة تقاطع العمل الجماعي من حيث كونه يركز على منهجية القرب وبناء المشاريع المحلية ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي التضامني، مع الأهداف المختلفة للمبادرة الوطنية للتنمية البشرية. بل إن العمل الجماعي يعتبر من الأدوات الأساسية في تفعيل هذه المبادرة، كإطار مستقبلي لإعادة تنظيم التضامات الاجتماعية والمجالية لبلادنا على أسس متينة ومستدامة، وكأساس مؤمن لفاعلية السياسات والبرامج العمومية.

وإذا علمنا أن من المستجدات الكبرى في فلسفة ونهج المبادرة الوطنية للتنمية البشرية الغوص في عمق واقع المجتمع المحلي وتشخيصه قبل ابتكار البدائل الناجعة لحل مشاكله، فإن التنظيمات المحلية على اختلاف أنواعها (تعاونيات، جماعات، مجموعات) هي الأقرب إلى هذا الواقع، وهي بالتالي القادرة على اقتراح الحلول المناسبة لمعضلاته من خلال نهج تنموي تضامني، إلى جانب باقي الفاعلين المحليين طبعاً. وبالتالي، تعتبر التنمية التضامنية في صميم فلسفة المبادرة الوطنية للتنمية البشرية.

هذا، وقد حققت المبادرة الوطنية للتنمية البشرية خلال العشرية الأخيرة معظم أهدافها³. وكانت حصيلة المرحلة الأولى منها (2005-2010) مناسبة لتعديل أهداف المرحلة الثانية (2011-2015). فبالإضافة إلى توسيع القاعدة الترابية للأنشطة والتدخلات، اتسمت المرحلة الثانية من

3 - بالرغم من كون حصيلة المبادرة الوطنية للتنمية البشرية كفلسفة ومنهجية عمل لا يمكن أن تقاس بالإنجازات المادية وحدها، ولا أن تختزل في حجم الاستثمارات أو الاعتمادات المالية التي وظفت في مجالات اهتمامها، فإن ما رصد من أموال لفائدة برامجها يعتبر مؤشراً حقيقياً على الأهمية القصوى والمكانة المحورية للمبادرة في مسلسل التنمية الجديد لبلادنا.

فبلغة الأرقام، أنجز خلال العشرية الأخيرة في إطار المبادرة الوطنية للتنمية البشرية 38.000 مشروع لفائدة عشرة ملايين نسمة، ورصد لها ما يناهز 29 مليار درهم، ساهمت المبادرة الوطنية بـ 17 مليار درهم منها، وذلك في إطار شراكات مع باقي الفاعلين والمستفيدين . ومن هنا تبدو أهمية المبادرة كرافعة للتنمية وكأداة بيداغوجية ومالية في التنمية وتحسين مؤشرات التنمية البشرية. كما تجدر الإشارة أن خمس هذه الاستثمارات وظف في الأنشطة المدرة للدخل، وعياً من المسؤولين أن تحقيق العيش الكريم للفئات المعوزة هو الغاية الأسمى التي أرادها صاحب الجلالة لهذا الورش الكبير.

العشرية بتحسين شروط استهداف الفئات المحتاجة، وشروط استدامة المشاريع، وبتدقيق آليات التتبع والمواكبة وإيلاء اهتمام أكبر للأنشطة المدرة للدخ.

إلا أن المبادرة الوطنية كورش تنموي وبيداغوجي كبير، متعدد الأوجه وذو رؤية وفلسفة عميقتين، وكإطار مستقبلي لبناء اقتصاد اجتماعي وتضامني متين كما أسلفنا، تظل فعلا ورشا مفتوحا بقدر انفتاح المغرب - دولة ومؤسسات - على المستقبل.

ومن أهم التحديات التي تنتظر هذا الورش الكبير تحقيق الاندماج الكامل لأهداف العمل الجماعي وبنيات الاقتصاد الاجتماعي والتضامني مع مبادئ ومرتكزات المبادرة الوطنية للتنمية البشرية. ولن يتأتى ذلك إلا من خلال تحقيق التمهيد الضروري بين منطق المشاريع المحلية التضامنية والتي هي من صميم برامج المبادرة الوطنية للتنمية البشرية والعمل الجماعي من جهة، ومنطق البرامج القطاعية للدولة والمؤسسات العمومية، من جهة ثانية.

تخضع مشاريع المبادرة الوطنية للتنمية البشرية وبرامج الدولة والمؤسسات العمومية لمنطقتين مختلفتين من حيث التصور وآليات الإنجاز، لذا وجب التقريب بينهما.

ونقترح في الجدول الموالي سردا موجزا لبعض جوانب هذا الاختلاف الذي نعتبره سببا موضوعيا في عدم حصول الاندماج والتكامل المطلوبين. وسنسعى في هذا الباب إلى مقابلة المنطقتين على مستوى عدد من العمليات والمقاربات يظهر من خلالها شكل وتوجه المنطق الإستراتيجي في كل من المشروع والبرنامج. ونقصد بالمشروع الأوراش والمنجزات التي تقوم بها التنظيمات المحلية، بينما نعرف البرنامج بالمبادرة القطاعية أو العامة التي يعود أمر ابتكارها وتنزيلها إلى المؤسسات العمومية.

أشكال وتوجهات المنطق الإستراتيجي في المشروع وفي البرنامج

في المشروع	في البرنامج
مبادرة محلية ذات مصدر جماعي / جمعي في الغالب : سكان، تنظيمات محلية....	مبادرة ذات مصدر سياسي مؤسستي : إدارة، منتخبون، سلطة عمومية
يخضع لمنطق تصاعدي : ينبعث من القاعدة	يخضع لمنطق نزولي : ينبعث من هياكل مؤسسية

يرتكز على تعبئة مؤهلات الفاعل / الساكنة	يرتكز على تنظيم وتنسيق الموارد المؤسسية
يرتكز على مشاكل مشخصة وعلى عمليات ملموسة	يرتكز على تحليل مسبق للحاجيات المطروحة والحلول المرتقبة
يعطي الأولوية للنتائج السريعة والملموسة بالنسبة للفاعلين المعنيين .	يعطي الأولوية للوقع المرئي وغير المرئي في الزمان
يثمن الإبداع الجماعي ويلجأ إلى تعبئة الفاعلين المحليين	يترتب عن قرار سياسي ويلجأ إلى تعبئة الشراكة المؤسسية
يتكون انطلاقاً من أوضاع محلية محددة، ومناسبات أو أحداث معينة	يحدد مسبقاً إطاراً عاماً وأهدافاً ومنهجية للتنفيذ
يتوخى إنتاج الفعل التراكمي : مبدأ المشروع يستدعي المشروع (المنطق الدائري)	اكتفاء ذاتي، وتحديد في الزمان، وبرمجة في مراحل وأقسام (المنطق الخطي)
يقوم على الإدارة الحرة والتطوع وعلى تجمعات محلية منسجمة ومنظمة	يقوم على هياكل قيادية مدعمة بهياكل تقنية للإنجاز
يعطي الأولوية لآليات التكوين والتنظيم الجماعي	يعطي الأولوية لآليات التحسيس والإعلام

إن قراءة سريعة في عناصر هذا التقابل قد توحى بالتعارض الذي يفرض إلى ضرورة ترجيح أو إلغاء أحد المنطقتين. إلا أن الواقع يقتضي العمل بهما معاً، ولكن في إطار من التكامل في أفق تحقيق الاندماج الضروري للبنيات والبرامج القائمة والمرتبقة. فإذا كان العمل الجماعي كأحد المحاور الإستراتيجية في تصور المبادرة الوطنية للتنمية البشرية يركز، كما أسلفنا، على منهجية القرب وبناء المشاريع المحلية ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي التضامني، فإن الدولة والسلطات العمومية تستمر في تطوير برامجها القطاعية أو المندمجة العامة والأكبر حجماً لتنمية كافة المجالات .

ونعتبر أن من أهم شروط التقريب بين المنطقتين نهج مقارنة جديدة، وإيجاد الآليات الضرورية لاندماجهما، بهدف رسم قطيعة نهائية مع طابع التوازي الذي ميزهما لعدة عقود. ولن يتأتى ذلك إلا

من خلال وضع أسس جديدة للتنمية يكون من أهم أهدافها تحقيق التنمية المحلية عن طريق مقارنة أفقية تركز على تنسيق أهداف وتدخلات الفاعلين، وتنبثق من التعبئة المتكاملة والشاملة للموارد الخاصة بكل حيز ترابي. وهو ما يصطلح عليه بالمقاربة الترابية للتنمية، وتميزها خمس خصائص رئيسية :

- بناء المشروع على أساس تعبئة وتثمين الموارد المحلية الخاصة التي تخول للحيز الترابي المعني مزايا مقارنة إزاء النطاقات الترابية المنافسة.

- بلورة مشروع تنمية مشترك بين الفاعلين من خلال الانخراط الفعلي لهؤلاء في كل مراحل المشروع من التصور إلى التنفيذ.

- تبني المقاربة الأفقية للتنمية في بناء المشروع بمراعاة تنسيق أهداف وانتظارات وتدخلات الفاعلين لغاية ترشيد الوسائل والرفع من نجاعة وفعالية المشاريع والعمليات .

- بناء مشروع شمولي يقوم على تعبئة مختلف مكونات الحقل التنموي في أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية بهدف تحقيق الاندماجية في المشروع.

- مراعاة البعد الإستراتيجي في بناء المشروع ليندرج في الديمومة وفي السياق الجهوي والوطني للتنمية، وحتى لا يصبح عملية استثمارية معزولة ومنعدمة المفعول.

ونجد اليوم لهذه المقاربة موطئ قدم في السياسة العمومية للتنمية بالمغرب، أقام قواعدها صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله غداة توليه عرش أسلافه الميامين، من بينها الحوار الوطني حول إعداد التراب الذي انبثق عنه الميثاق والمخطط الوطني لإعداد التراب، وكذا المخططات الجهوية لإعداد التراب، والمخططات الجماعية للتنمية والتي أصبحت كل جماعة حضرية أو قروية مطالبة بإنجازها إيدانا بانتقال سياسة التنمية ببلادنا إلى منطق وثقافة جديدين، إي إلى العمل بالمخطط المبني على التشخيص الترابي التشاركي، وبالمقاربة الترابية التي تحقق التكامل والاندماج بين المشاريع التي تقبل عليها الجماعات المحلية ومختلف القطاعات الحكومية فوق التراب الجماعي.

وإذا أضفنا إلى هذه المبادرات الأهداف التي من أجلها أحدثت المبادرة الوطنية للتنمية البشرية وهي محاربة الفقر والهشاشة والإقصاء وتحسين مؤشرات المغرب في مجال التنمية البشرية، يتضح أن السياسة الملكية الرشيدة ما فتئت تؤسس لمقاربة تنموية شمولية تجعل من الإنسان ومن رفاهه الاجتماعي وارتقائه القيمي الهدف الرئيسي في اختياراتها الإستراتيجية القارة والدائمة.

وهي سياسة تعتمد في مضمونها وأدائها على بعدين أساسيين :

ما هو اقتصادي في المبادرة الفردية أو الجماعية، وما هو اجتماعي في وظائف ومهام المجموعات البشرية والمؤسسات المحلية. وهو مطلب أولا، كما انه أسلوب يناسب الأوضاع الاجتماعية والثقافية للمجتمعات المحلية في جل الأوساط القروية والحضرية المغربية، حيث إنه يرمي إلى تدعيم أسس الاقتصاد الاجتماعي والتضامني، وخلق ديناميات محلية من خلال تعبئة كل الموارد والمقومات الذاتية الخاصة بكل وحدة ترابية، ويوظف الموروث الثقافي وقيم التعاون والتبادل في الإنتاج والتدبير.

وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن الاستثمار أصبح متزايدا في العقود الأخيرة في أساليب التنمية المعتمدة على التضامات التقليدية، والعمل الجماعي، التي أبانت عن أهميتها ونجاحاتها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجموعات المحلية من خلال أشكال التعاون، والتعاقد، والتدبير المشترك للموارد المحلية. وإن ما يكتسيه حاليا العمل الجماعي والأنسجة الجمعوية من أهمية وحيوية في جل مناطق المغرب. إنما يكمن في التجدر العريق لتقاليد التعاون والتضامن، والعمل الجماعي، التي عرف بها سكان هذه المناطق، من جهة، وفي الوعي المتزايد بندرة الموارد وما يترتب عنها من تدبير محكم لأشكال الخصائص وتوزيع دقيق للأدوار والثمار بين كل ذوي الحقوق، من جهة ثانية.

أما الواجهة الثانية لهذه المقاربة فتتجلى في خاصية التشكيلة الاقتصادية التي تنتظم فيها الأنشطة في إطار تركز جغرافي يسمح بتعبئتها وثمرتها في تكامل في ما بينها، وبهدف توفير إنتاج محلي ذي خصوصية، حيث يتيح كل من القرب الجغرافي، وصفة التفرد، القيمة المضافة والجودة المطلوبين في المنتج المحلي والمعبر عنه عادة بالمنتوج المحلي، المترتب عن نسق إنتاج محلي.

وعندما نتأمل هذا النوع من التنظيم والتدبير نجد أن المغرب يتوفر على إمكانيات وفرص هائلة لتطوير عشرات الأنساق الإنتاجية المحلية عبر التراب الوطني، وذلك حول موارد ترابية ذات الخصوصية ومواد مجالية متميزة (زيتون، أركان، لوز، نخيل، تربية الماشية، خزف، نسيج، تربية النحل، سياحة قروية ...) يساعد في ذلك قابلية المجموعات البشرية المحلية للانخراط في هذا المسلسل وتطوير سلاسل الإنتاج فيه، نظرا للموروث الثقافي والتقاليد والأعراف التي توطد علاقات أعضائها بعضهم ببعض، وتقليد التكافل والتضامن والتعاون الجماعي الذي مازال سائرا بين الناس.

ويحتل المجتمع المدني الصدارة في بناء وتدير هذه الأنساق. ولتحقيق الأهداف القصوى من هذه العملية أحدثت المبادرة الوطنية للتنمية البشرية بإرادة ملكية سامية لدعم هذا المسلسل ماديا وبشريا وييداغوجيا وعلى مستوى الحكامة.

والتنمية التضامنية التي هي من أركان المبادرة الوطنية للتنمية البشرية هي مرادف للاقتصاد الاجتماعي ومحاربة أشكال الفقر والإقصاء والهشاشة التي تطل فئات من سكان البوادي والمدن. وترتكز على العمل الجماعي وبناء التضامات المحلية بفعل تراكمي بدأنا نلمسه اليوم في مؤشرات نجاح المبادرة الوطنية للتنمية البشرية على أكثر من صعيد. في حين تظل مؤشرات أخرى دون المستوى المطلوب ويحتاج تحسينها إلى مزيد من الجهد.

ولقياس درجة نجاح أو فشل هذه المؤشرات، نعتقد أن هنالك سبع أفكار محورية يمكن على أساسها تقييم النتائج التي حققتها هذه المبادرة كمنهجية جديدة في التنمية.

ولن نتطرق هنا إلى الانجازات المادية وكلفتها المالية طبعا لأن قياس درجة النجاح ونسبة الإنجاز في هذا الباب لن يكون ممكنا إلا مقارنة بحجم الخصائص الذي يصعب تحديده بدقة. لذا فإن الاهتمام سينصب أساسا على الجوانب المنهجية والبيداغوجية لهذا الورش الكبير ومدى تحقيقها لتحول ملموس على مستوى العقلية والسلوك في الأوساط المعنية.

وتنقسم هذه الأفكار المحورية حسب طبيعتها وتبعاً لما لمسه من بوادر النجاح ومؤشرات التحول الإيجابي إلى ما يلي :

1- موقف جديد من الساكنة وبناء المقاربة الإيجابية:

من خاصيات شخصية جلالة الملك محمد السادس نصره الله أنه ملك عادل، كبير العطف على شعبه وخاصة الفقراء منه. وقد تبلور في عهده وعلى يديه توجه جديد، وهو النظر إلى سكان المحيط الفقير أو الهش على أنهم طاقة قابلة للتعبئة وقادرة على أخذ زمامها بيدها على غرار باقي السكان، كما أنها تحتزن معارف ومهارات، وتحمل بوادر التغير نحو الأفضل.

2- مبادرات جماعية وتأهيل الموارد البشرية:

فرضت شروط الانخراط في برامج المبادرة الوطنية للتنمية البشرية تأهيل التنظيمات والتكتلات المحلية لترقى إلى مستوى الشراكة والتعاقد مع المؤسسة المعنية وباقي الفاعلين. وقد مكن هذا التأهيل من الرفع من مستوى التكوين لدى الأفراد لاستيعاب المغزى من المبادرة واكتساب القدرة على بلورة المشروع وتديره.

3- عمليات معبئة من أجل تدبير منسجم:

أقرت المبادرة الوطنية للتنمية البشرية منهجية عمل خاصة ساعدت على تطوير روح المسؤولية لدى الأفراد والجماعات وأسست لتعبئة جماعية حول الهدف المشترك، يقوم في إطارها كل فاعل بدوره في حدود صلاحياته، وترتكز هذه المنهجية على التنظيم والتكوين والتشيط كأدوات لتعميم مبادئ التنسيق والتفاوض واقتسام المعرفة وتجميع الوسائل والإمكانيات.

4- نزوع نحو ترقية جماعية واستدامة التنمية:

تهدف المبادرة الوطنية للتنمية البشرية من خلال منهجية العمل التي بلورتها إلى الرفع من مستويات قيم المواطنة والتضامن، والقدرة على التنظيم والانتظام في إطار هياكل وبنيات مؤسسية مواطنة ومسؤولة تضمن الفعل الجاد والتدبير المسؤول والنتيجة الإيجابية والمستدامة.

5- الانخراط الجماعي وتملك المشروع:

لا تقوم منهجية المبادرة الوطنية للتنمية البشرية على التدخل المباشر فيما ينجز من مشاريع بل تبقى أداة مواكبة للمشاريع والعمليات التي تقوم بها الفئات المستهدفة، والتي تأخذ بزمام المبادرة من بداية المشروع إلى نهايته.

وهي بذلك تسعى إلى تحقيق الانخراط الضروري للمعنيين في كل مراحل بناء مشروعهم، وتمكينهم من امتلاك فصوله وآليات تدبيره.

6- ترسيخ ثقافة بناء النسق الشمولي:

يؤكد تنوع الأهداف العامة للمبادرة الوطنية للتنمية البشرية وتكاملها على أن التنمية المحلية هي عملية شمولية متعددة الأوجه ومنهجية، وأنها لا تتم إلا بتطوير كل أبعادها الرئيسية، وهي: إنعاش الميدان الاقتصادي وتطوير النسيج الاجتماعي، وتنمية المجال الثقافي، وصيانة المحيط البيئي. وترمي هذه الأبعاد مجتمعة إلى تأهيل المجتمع والمجال في نفس الوقت، والحفاظ على توازناتهما الأساسية.

7- بناء مجالات للتضامن وتكريس ثقافة التعاضد والالتزام والتعاقد:

يتضح من منهجية المبادرة الوطنية للتنمية البشرية ومن آليات اشتغالها أنها ترمي في العمق إلى تكريس التوجهات الرئيسية التالية في عملها وفلسفتها:

- تعزيز علاقات التشارك وتبادل المنافع فوق مجال الانتماء بين الفاعلين المعنيين بتنمية هذا المجال، يحدوهم في ذلك الشعور بوحدة المصير والتحدي المشترك.

- تحقيق تكافؤ الفرص في التأهيل وولوج المعرفة، وفي استغلال الموارد المشتركة.

- الدفع بالتعبئة والتنظيم الجماعيين إلى تقوية التعاون بين الشركاء السياسيين والمؤسستين والجمعويين في إطار من التضامن والتكامل والالتزام والتعاقد، بهدف تجميع الطاقات والوسائل والموارد المتاحة وتوجيهها نحو الهدف المشترك.

تدل المؤشرات وبوادر التحول السالفة الذكر على أن المغرب في عهده الجديد رسم معالم سياسة تنموية مبتكرة قوامها معالجة الاختلالات وردم البون القائم بين فئات المجتمع ووحدات المجال من خلال ورش المبادرة الوطنية للتنمية البشرية. وتفرض هذه المنهجية الجديدة في المقاربة والتدخل إعادة النظر في المفاهيم والمناهج والسلوك، وتكييف البنيات والأدوات والوسائل المعتمدة وفق فلسفة وتصورات المبادرة الوطنية للتنمية البشرية ومنهجية اشتغالها كما يراها رائدها وواضع خطتها صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده.

ويتعين على الخصوص إعادة النظر في العناصر والمكونات التي شكلت العوامل والأسباب الرئيسية في المعضلات التي من أجل محاربتها أحدثت المبادرة الوطنية للتنمية البشرية. وتعتبر العناصر التالية خلاصة تركيبية لتحليلنا المتواضع وتأويلنا للتصور والمنهجية المشكلين لروح هذه المبادرة. وتقريبا للمضامين نهج سبيل التقابل مرة أخرى لإبراز الحد الفاصل بين منطقتين، أحدهما سالف ترتبت عنه المعضلات الراهنة، والآخر جديد وواعد يؤسس للإصلاح والتنمية المتوازنة.

ونقدم هذا التقابل في تسعة محاور رئيسة، نعرضها على الشكل التالي:

مؤشرات الانتقال الإيجابي بفضل المبادرة الوطنية للتنمية البشرية

المؤهلات	- من : تشخيص لعبات الفقر والخصاص وتحديد لمستويات التفاوت والهشاشة والإقصاء. - إلى جرد للمؤهلات وتثمين للطاقات والمهارات وتعبئة للموارد الذاتية.
التضامن	من : خطاب حول السكان، وبؤر الفقر، والتهميش، والتوتر إلى : العمل الجماعي التضامني المبني على التنظيمات المحلية وتعبئة الموارد المشتركة.
الارتقاء الجماعي	من : العلاقات الشخصية المركزة على الأفراد إلى : العمل الجماعي التضامني المبني على التنظيمات المحلية وتعبئة الموارد المشتركة.
المواكبة الإيجابية	من : اليقظة الدائمة والتأهب لتهدة الصراعات إلى : نهج التفاوض ومواكبة الأفراد والجماعات لتفادي هذه الصراعات.
المبادرة	من : تنفيذ توجهات التخطيط المركزي للبرامج الإنمائية إلى : دعم ومواكبة المبادرات المحلية المنبثقة عن السكان كحلول يقترحونها لمشاكلهم.
الالتزام	من : مهام إدارية وصلاحيات محدودة في القطاع إلى : الانخراط في المشروع الجماعي المشترك.
الشراكة	من : التنفيذ الحرفي للمنطق المؤسسي إلى : تحالفات جديدة قميئة بحل العقد عن طريق التعامل مع شركاء وفي إطار عقد اجتماعي

المشروع	من: برامج وأنشطة على المدى القريب إلى بناء المشاريع والإستراتيجيات، وهي عمليات تفاوضية متطورة، و ذات المدى البعيد.
الانبعاث والاستدامة	من: منطق الدعم والتبرع والإغاثة (مفهوم منح السمكة). إلى: تشغيل آليات العمل الجماعي والتعبئة والتنظيم بهدف تجميع الطاقات والموارد الذاتية. (مفهوم تلقين صيد السمكة).

واليوم، وبعد مرور عقد واحد على انطلاق المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، بدأت تلوح في الأفق بوادر ثورة حقيقية على مستوى السلوك والعقليات في الأوساط الاجتماعية والمجموعات المحلية المنخرطة في برامج هذه المبادرة. كما أن وقعها أصبح ملموسا والعمل بمنهجيتها وفلسفتها بدأ يمتد تدريجيا إلى باقي التكتلات والتنظيمات وإلى قطاعات ومؤسسات حكومية برمتها، بل وإلى بعض البلدان النامية التي رأت فيها بديلا مبتكرا، ونموذجا هاما يحتذى.

وختاما نجدد التأكيد على أن المبادرة الوطنية للتنمية البشرية هي ورش كبير يتجاوز من حيث الأهداف والاهتمامات محاربة الفقر والتهميش والإقصاء الاجتماعي ليشكل نموذجا لمقاربة تنموية جديدة تدمج الأبعاد الاقتصادية والبيئية والمجالية في التنمية، كما أنها ورش بيداغوجي كبير، ومدرسة وطنية للتأهيل والترقية، من أركان إستراتيجيته :

- توفير المحيط الملائم للمبادرات المحلية قصد تقوية القدرات الفردية والجماعية في الاستثمار والإنتاج وضمان العيش الكريم لكل الأفراد.

- تطوير بدائل للتنمية قوامها تنويع الموارد وابتكار أشكال جديدة للتنظيم والتدبير.

- التكيف مع المستجدات وتحقيق التأهيل الذاتي كشرط أساسي للبقاء والاستدامة.

والمبادرة الوطنية للتنمية البشرية هي مسار تصحيحي للاختلالات الاجتماعية والمجالية التي يعرفها المغرب تهدف إلى تدارك الخصاص الحاصل في هذا الباب وإلى تحسين مؤشرات المغرب في سلم ترتيب الدول من حيث التنمية البشرية والاجتماعية. وهي بذلك تؤسس من حيث البرامج والمنهجية لمشروع اقتصاد اجتماعي، كما أسلفنا، وتشكل رافعة حقيقية للعمل الجماعي التضامني الذي تعتبر التنظيمات الجماعية والجمعية الفاعل الرئيسي فيه.

والحمد لله الذي بعونه تتم الصالحات.

مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف في ربوع إفريقيا (المصحف المحمدي الشريف برواية ورش عن نافع المدني، بأوثق سند في بلدان الغرب الإفريقي)

ذ. محمد طابخ
باحث، فاس.

إن مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف التي تسجل حضورها القوي والتاريخي في قلب إفريقيا لجديرة بأن يعطى لها اعتبار خاص، وأن يخصص لها جانب من البحث والدراسة؛ إنها تثير في النفوس مشاعر وإحساسات قوية، وتحرك العقل والوجدان، وتهز الكيان، كما تثير الرغبة الأكيدة في قراءة هادفة في السياسة الحكيمة لجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، داخليا وخارجيا، وفي تدبير الشؤون العامة والخاصة لشعبه داخل المغرب، وإدارة العلاقات بين الدول المغاربية ودول إفريقيا والأمة الإسلامية والعالم، وكذا في الأعمال والمنجزات التي تتجسد في البناء والنهوض، أو تتجسد في المشاريع العديدة، ومنها - على سبيل المثال - مشروع المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، ومشروع التعاون جنوب / جنوب.

لا نقرأ فقط في هذين المشروعين التاريخيين الكبيرين، ولا في المشاريع الكبرى المتعددة والمتنوعة، ذات المدى القريب أو المتوسط أو البعيد بحكم البعد النظري، والرؤية المستقبلية لجلالته مجرد التنمية الموجهة إلى فئات من المجتمع، ولا مجرد التعاون الإفريقي، بل نقرأ فيهما وفي كل المشاريع فكره السامي الذي تملؤه صور وتمثلات عن الأفق الواسع والعريض، للمغرب وإفريقيا والعالم، الفكر الثاقب الذي يقوم على توجهات ملكية عميقة لمد الجسور القوية والمتينة، للتواصل والأخوة الإنسانية المشتركة بين بني الإنسان في كل المجالات، السياسية منها والثقافية والاجتماعية

والعلمية، وبخاصة مجال الشأن الديني الذي ما فتى جلالته منذ توليه مقاليد إمارة المؤمنين، وتربعه على عرش أسلافه المنعمين، يوليه الاهتمام البالغ، والعناية الفائقة، وما مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف إلا واحدة من بين العديد من المبادرات السامية، والريادات الحسنة الكبرى، والأعمال الجليلة، والمنجزات العظمية في كل ميدان. ومنها الإنجاز التاريخي الذي يتمثل في ذلك المجال الحيوي الروحي الذي يجسد الآصرة العقدية الإيمانية، ويجسد كذلك الروابط المغربية/الإفريقية الأخوية القائمة على التعاون والتضامن والتبادل وحسن الجوار. وما المصحف المحمدي الشريف ونشره وتوزيعه في بلدان إفريقية بطبعته الشريفة التي تركز على سند أقوى، برواية ورش عن الإمام نافع، التي قال فيها إمام دار الهجرة مالك بن أنس: "قراءة نافع سنة"، إلا برهان ساطع على النية الحسنة لجلالته في تنمية الجوانب الروحية والمعرفية والثقافية. والنية الطيبة في تربية الأجيال وتعليمهم.

وفي هذا الصدد - أيضا - نقرأ في الزيارات الملكية لدول غرب إفريقيا حدثا تاريخيا كبيرا؛ إذ شكلت تلك الزيارات ريادة محمدية لتجسيد مشروع التعاون جنوب/جنوب في القارة السمراء التي ما فتئت تنتظر هذه الريادة السامية لجلالته؛ للنهوض بها، ولتحفيز كل العناصر البشرية والمادية، إلى العمل المشترك، والفعالية والتنمية المستدامة، ولتعزيز الحضور المغربي على كل الأصعدة، إفريقيا وعالميا، من خلال الفعل المباشر، والحركة الميدانية على أرض الواقع، بالفكر والتطبيق، والعمل الفعلي.

ولقد أثمرت هذه الريادة عددا من الاتفاقيات، التي تعرب عن رغبة أكيدة لدى جميع الأطراف في الحضور المغربي الذي سينقل إفريقيا من عهد إلى عهد جديد، فهذه المرحلة المباركة تمثل فصلا جديدا، ومحطة تاريخية عظمية، وتذكرنا بالحضور التاريخي للملوك المغاربة في محيطهم الإفريقي بروح أخوية، وبرغبة تعاونية تقوم على التقدير والاحترام، والمودة وحسن الجوار، فهاهو جلالة الملك محمد السادس نصره الله يبعث حياة جديدة في هذا المحيط، وينطلق بنشاط وحيوية مجسدا الأب الروحي والأخ العزيز في كنف الأسرة الإفريقية.

وإذ تتجلى ريادة جلالته في الاتفاقيات البناءة، والمبادرات الحسنة، والاتصالات المباشرة بالجماهير بكل تلقائية، وبالقوى السياسية، فإنها تبعث الحياة في كيان هذه القارة التي فيها من الكنوز والثروات العديدة والمتنوعة ما يعجز الوصف عنه، ومن خلالها تبعث الحياة في العالم على أكثر من صعيد؛ مما يحق معه للمغاربة داخليا وخارجيا أن يعتزوا بملكهم، وبوطنيتهم ووطنهم، وأن يفخروا

بقيادة عاهلهم المفدى، وكم يحق للأفارقة جميعاً أن يرفعوا رؤوسهم عالية أمام دول العالم التي لم تفتأ - عبر وسائل الإعلام على اختلاف مستوياتها - تشاهد صوراً حية لالتحام المغرب والمغاربة، بإفريقيا والأفارقة، فهل من دليل على ذلك أكثر من تلك الصور الحية الرائعة - التي نقلتها وسائل الإعلام خلال تلك الزيارات - للعناق والتحية والترحاب بجلالة الملك أينما حل، في أي دولة من تلك الدول؟

كما لا أدل على ذلك من الاتفاقيات ذات العدد والنوع: اتفاقيات تعاون، واتفاقيات شراكة، واتفاقيات إطار، وبروتوكولات اتفاقيات، ولا أدل - أيضاً - من تلك المبادرات الملكية التي كرم بها أوساطاً متعددة، وأبرزها تلك المبادرة الفعالة والغنية عن كل قول أو كلام، وهي مبادرة هدية الـ 10000 نسخة من المصحف المحمدي الشريف، هذا المصحف الذي يجمع من الخصوصيات ما لا يتسع المجال لبلورتها في عدد من الصفحات، لكن سوف أقارب بعضها بشكل موجز ضمن النقاط التالية:

- التعاون الروحي جنوب / جنوب التحدي الكبير.
- انتشار القرآن الكريم ونشره في إفريقيا ريادة محمدية نموذجية.
- المصحف المحمدي الشريف في غرب إفريقيا.
- قراءة نافع بين القراءات القرآنية السبع أو العشر:
- 1 - قراءة نافع أصح سنداً.
- 2 - قراءة نافع سنة.
- المصحف المحمدي الشريف في بلدان غرب إفريقيا بأدق رسم وضبط.
- خطيب الجمعة بالمسجد الكبير ببياماكو يشيد بجلالة الملك محمد السادس.

ويهدف هذا الموضوع الموجز إلى تسليط بعض الضوء على ريادة محمد السادس ملك المغرب في إفريقيا، وجعلها في موقعها الاستراتيجي كأولوية من الأولويات التي ما فتئ جلالته يوليها أهمية منقطعة النظير. وتتمثل هذه الأولويات في مشاريع عديدة، منها النهوض بالشأن الديني، متجسداً في توزيع نسخ من المصحف المحمدي الشريف، وفي تكوين الأئمة؛ لإمداد البلاد بالقيمين الدينيين

المؤهلين، وبالعلماء بالشرعية الذين يتعزز الشأن الديني بهم في تلك البلدان، وتنشط بهم حركة الاجتهاد والتربية الروحية. والذين - كذلك - يتعزز بهم الدور الريادي في البحث والدراسة والتأليف في العلوم الشرعية واللغوية، وفي المعارف الإنسانية كلها العلمية والأدبية، وفي التعليم والدعوة إلى الإسلام، والتوجيه والإرشاد والإفتاء.

التعاون الروحي جنوب / جنوب التحدي الكبير:

في الحقيقة تعتبر مبادرات جلالة الملك في إطار التعاون جنوب/جنوب من التحديات الكبيرة، التي عرفتها السنة 1435 هـ / 2014 م ؛ ذلك بأنها - كما أكد سفير المغرب السابق لدى الأمم المتحدة السيد محمد لوليشكي - دليل "على التزام جلالتة بتحقيق صالح القارة في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والروحية والثقافية والإنسانية"، مبرزا أن هذه الأبعاد هي التي "تحفز عمل جلالة الملك لصالح إفريقيا"¹.

كما أبرز الدبلوماسي المغربي أن "جلالة الملك ذهب إلى إفريقيا بمشاريع هائلة محددة ومبادرات تشمل المجالات الثقافية والاجتماعية والسكن وترميم الأرشيف والوثائق التاريخية"، مسجلا أن عددا قليلا من البلدان التي تقوم بمبادرات في إطار التعاون جنوب/جنوب.

وشدد لوليشكي على أن الدبلوماسيين غير الأفارقة بالأمم المتحدة أبرزوا كذلك أن المغرب قدم، من خلال الجولة الملكية بإفريقيا، "تجسيدا للتعاون جنوب/جنوب، والشكل الذي يمكن أن يكون عليه هذا التعاون، وكيف يمكن أن يكون، والمدى الذي يتعين أن يتطور إليه"².

نعم، ذهب جلالة الملك إلى إفريقيا يحمل مشروعا لتنمية الإنسان والأرض، ومعالجة القضايا الراهنة والمستقبلية للقارة، كما ذهب من أجل العمل المشترك، وخلق فرص الشغل والاستثمار، وتوفير الخدمات الاجتماعية، والنهوض بالإنسان هنا وهناك سياسيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وتكنولوجيا.

وإذا كانت مجالات التعاون في هذا الإطار قد تعددت فإن المجال الروحي كان حاضرا بقوة؛ إذ برزت الرغبة الأكيدة لجلالة الملك وإخوانه الرؤساء الأفارقة الأشقاء في تقوية التعاون في النهوض بالشأن الديني على مستويات عدة، منها نشر المصحف المحمدي الشريف وتوزيعه؛ ففي ذلك ما فيه

1 - <http://www.almaghribia.ma/News/Article.asp?idr=7&id=181412>.

2 - المصدر نفسه.

من دلالات ذات أبعاد للوحدة الإفريقية، وربط للجسور بين أقطارها على أسس ومبادئ تقوم على وحدة العقيدة الإسلامية بمرجعياتها وثوابتها التي ارتضتها.

ومن تجليات التعاون الروحي - مثلا - بين المغرب وغينيا "طلب غينيا للمغرب بتكوين مجموعة من الأئمة، واستجابة المغرب لذلك، وهو ما أكدته الرئيس الغيني الذي اعتبر زيارة جلالة الملك شرفا كبيرا لبلده، على المستوى الديني، مشيرا إلى أن الزيارة الملكية ستفتح آفاقا جديدة للتعاون بين المغرب وغينيا.

ولا شك أن استقبال المغرب عددا من الذين سيتم تكوينهم هو أكبر تجسيد للتعاون الروحي جنوب/جنوب. وهو مما سيعزز مكانة المغرب والمغاربة في قلوب الإخوان الأفارقة.

انتشار المصحف المحمدي الشريف ونشره في إفريقيا ريادة محمدية نموذجية:

إن أي بلد من بلدان إفريقيا ليسير في الوقت الحاضر على خط رائد، لتحقيق تنمية شاملة، وتغيير هادف وبناء، وتحول نحو ريادة نموذجية، هذه الريادة تستند إلى فلسفة محمدية. إنها الريادة التي انطلقت من المغرب بمشروع روحي - من بين مشاريع عديدة - تحت شعار عظيم يجسده المصحف المحمدي الشريف الذي وزع هناك على أكثر من نطاق، مما سيؤدي إلى السير بأمان وسلام في هذه البلدان على خارطة طريق لاحتلال الرتب والدرجات في سائر المجالات الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية والتكنولوجية.

وإذ تركز تلك الريادة على أسس رسالة سماوية هي القرآن الكريم في مصحف بدقة عالية في الرسم والضبط، وبسند أكبر في القراءات، يقوم على رواية ورش (ت 197 هـ)³. المصري عن نافع المدني (ت 169 هـ)⁴، فإنها هي تركز على دعائم قوية؛ لتثبيت مرجعية واحدة وموحدة. ومصدر أعلى يؤثق تاريخ الإنسانية، ويؤصل العلوم والمعارف في مختلف أبعادها الكونية والإنسانية.

إن المصحف المحمدي الشريف يوجد اليوم، وغدا، وفي المستقبل إلى آخر الحياة، في إفريقيا كما

3 - ورش: هو عثمان بن سعيد المصري، ويكنى أبا سعيد، وورش لَقَبُ لُقَبَ به فيما يقال لشدة بياضه، وتوفي بمصر سنة سبع وتسعين ومائة (ت 197).

انظر: كتاب التيسير في القراءات السبع، للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني. دار الكتاب العربي - بيروت. ط (2). نوفمبر 1406 هـ - 1985 م. ص 4.

4 - نافع المدني هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم مولى جَعُونَةَ بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب، أصله من أصبهان، ويكنى أبا رويم، وقيل أبا الحسن وقيل أبا عبد الرحمن، وتوفي بالمدينة سنة تسع وستين ومائة (169).

انظر: كتاب التيسير في القراءات السبع، للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني. دار الكتاب العربي - بيروت. ط (2). نوفمبر 1406 هـ - 1985 م. ص 4.

في المغرب، بأرفع توثيق، وأعلى سند، ومن ثم فإنه يجسد معلمة قرآنية محمدية في ربوع إفريقيا، يُشعُّ نور الهداية والإيمان، ويقوي العلاقة بالله خالق الكون والإنسان وكل شيء. كما يجسد واحدة من الخطط والأولويات الاستراتيجية لجلالته؛ إيماناً بما يحققه انتشار القرآن ونشره، من تعاون روحي، هو تحدي كبير للمخاطر التي تحدق ببلدان غرب إفريقيا خاصة، وبلدان العالم، والتي لن يحافظ على وحدتها وأمنها وسلامتها إلا القرآن الكريم؛ لذلك تم العمل على نشر المصحف المحمدي الشريف في هذه البلدان بدعم من مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف.

لقد نهج جلالة الملك محمد السادس نصره الله منذ توليه العرش سياسةً اتسمت بالانفتاح على العالم كافة، بكل اتجاهاته وتياراته، وعلى كل قاراته، وبخاصة القارة السمراء التي يقع منها المغرب موقع الرأس من الجسد، وكان من بين الأولويات الإستراتيجية لجلالته الاتجاه نحو إفريقيا ودول الجوار، وجسد جلالته ذلك على أرض الواقع، بإبراز قطب الدولة المغربية في إفريقيا في ظرف تاريخي يعرف فيه العالم هزات سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة، كما يعرف تحولات وتغيرات إن على مستوى القطبية، وإن على مستوى الأولويات الإستراتيجية في العالم.

كانت سنة 1435 هـ / 2014 م بحق سنة إنجاز كبير لجلالته من بين إنجازات كبيرة في جميع الميادين داخليا وخارجيا. ويتجلى ذلك الإنجاز التاريخي في أولوية استراتيجية، هي التعاون جنوب / جنوب، التي شكلت كيانا قارياً هو النموذج المثال، والإطار للتعاون والتبادل في التنمية والاستثمار والبناء المشترك بين عدة دول إفريقية وغير إفريقية.

المصحف المحمدي الشريف في غرب إفريقيا:

شملت مبادرات جلالة الملك في بلدان غرب إفريقيا عدة نواح، اقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية، ولقد تجسدت تلك المبادرات الملكية في المجال الديني - مثلاً - في إهداء (10000) عشرة آلاف نسخة من المصحف المحمدي الشريف لتوزع في مساجد مالي التي أدى بها جلالته صلاة الجمعة بالمسجد الكبير بياماكو برفقة فخامة رئيس جمهورية مالي إبراهيم بوبكار كيتا.

وإننا لنقرأ في الصورة التاريخية لجلالة الملك وهو يؤدي صلاة الجمعة بمعية الرئيس المالي بالمسجد الكبير بياماكو عدة معان ودلالات، وكثيراً من الأبعاد والأولويات، إنها صورة حية ومعبرة، تغني عن كل تحليل وقراءة، تجسد المغرب ملكاً وحكومة وشعباً في ذلك البلد الشقيق، وفي قلبه النابض.

سيما وأن المشهد هو مشهد روحي إنساني تماسكي تضامني تلاحمي، في قلب ذلك المسجد الذي غص بجموع المصلين من المغاربة والمالين في خشوع وابتهاال، وتضرع إلى العلي القدير. ما أروعها من صورة ! وما أجمله من مشهد روحي !

بعد ذلك المشهد التعبدي الروحي أي بعد أداء صلاة الجمعة " تفضل أمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله، بإهداء الجهات المكلفة بتدبير الشؤون الدينية بجمهورية مالي، (10000) عشرة آلاف نسخة من المصحف المحمدي الشريف في طبعته الصادرة عن مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف قصد توزيعها على مساجد الجمهورية.

وتأتي هذه المجموعة من المصاحف كدفعة أولى في إطار تنفيذ التعليمات الملكية والقاضية بأن تقوم هذه المؤسسة بتزويد مساجد بلدان غرب إفريقيا بكل ما تحتاجه من مصاحف برواية ورش عن نافع التي هي من الاختيارات المشتركة بين المغرب وهذه البلدان"⁵.

فلما ذا تم هذا الاختيار؟

قراءة نافع بين القراءات القرآنية السبع:

إذا تصفحنا الكتب التي ألفت في القراء والقراءات نجد الغالبية من المؤلفين عند الحديث عن القراء السبعة أو العشرة وأمصارهم يبدؤون بنافع وقراءته، قال ابن مجاهد في معرض الكلام عن "أئمة القراء وأنسابهم وأساتذتهم وتلاميذهم": "قال أبو بكر: فأول من ابتدئ بذكره من أئمة الأمصار من قام بالقراءة بمدينة رسول الله ﷺ، وإنما بدأت بذكر أهل المدينة لأنها مهاجرة رسول الله ﷺ ومعدن الأكابر من صحابته، وبها حفظ عنه الآخر من أمره. فكان الإمام الذي قام بالقراءة بمدينة رسول الله ﷺ بعد التابعين: أبو عبد الرحمن نافع"⁶.

يكفي هذا الذي نقله ابن مجاهد عن مكانة نافع وقراءته بين القراءات والقراء، فلا غرو - إذن - إذا تمت الإشادة هنا بنافع وبقراءته، ولا عجب إذا أخذ المغاربة قديما وحديثا بها، ولا عجب أكثر إذا أمر صاحب الجلالة محمد السادس بطبع مصحف بقراءة نافع رواية ورش، ونشره وتوزيعه في المغرب وإفريقيا وبخاصة في بلدان غربها.

5 - مجلة طنجة نيوز. 21 /02/2014 . <http://tanjanews.com/news.php?extend.6132>

6 - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد. تحقيق الدكتور شوقي ضيف. ط (2) منقحة. دار المعارف. 1980 هـ. ص 53.

ولا يحتاج الأمر إلى تأكيد ما لقراءة نافع من خصوصيات تتمثل في:

✓ موافقتها مذهب مالك بن أنس رحمه الله تعالى، وهو المذهب الذي يأخذ به غالبية الأفارقة والمغرب خاصة.

✓ كونها قراءة إمام دار الهجرة؛ حيث توالى نزول الوحي على رسول الله ﷺ الذي هو القرآن المدني وما يتضمنه من أحكام تخص مختلف شؤون الحياة من معاملات الناس وعلاقاتهم ببعضهم ببعض وبغيرهم.

✓ كونها قراءة قرآنية شاعت بين المدنيين الذين تلقوها من منابعها ومناهلها إقراء وتعلima ونقلًا وسمعا وأحكاما وتوجيها ورواية ودراية.

✓ قول مالك رحمه الله تعالى: "قراءة نافع سنة" ⁷؛ ذلك بأن نافعاً أقرأ بالمدينة "أكثر من سبعين سنة" ⁸.

✓ قول ابن مجاهد في حق نافع: "وكان عالماً بوجوه القراءات متبعاً لآثار الأئمة الماضين ببلده، أخذ القراءة عن جماعة من التابعين" ⁹ إلخ.

ومما يقوي مكانة نافع وقراءته أنه - كما ذكر ابن مجاهد وغيره - أخذ القراءة عن جماعة من التابعين. فهو تابع التابعين أخذ عن التابعين الذين أخذوا عن الصحابة رضوان الله تعالى عنهم عن النبي ﷺ.

1- قراءة نافع أصح سنداً:

ألف العلماء في القراءات فأجادوا وأحكموا، وميزوا بين الصحيح منها والشاذ، والمقبول والباطل، وقعدوا القواعد، ووضعوا الضوابط والأحكام، وذكروا القراء ومنازلهم، وأمانتهم وعدلهم، والرواة ومن أدوا إليهم، ورصدوا ما لكل منهم من شهرة واشتهار قراءة، ومكانة القراءة والإقراء في الأمصار، وأحاطوا بها لهم من وجه واختيار، فأنزلوا كلا منزلته وقراءته وسنده، وحددوا لكل روايات، وطرائق ومذاهب مشتهرات.

7 - شرح طيبة النشر في القراءات العشر. تأليف أ. د. محمد سالم محيسن. مكتبة الصفا للنشر والتوزيع. ط (1). 1434 هـ - 2013 م. ص 10.

8 - نفسه. ص 10.

9 - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد. تحقيق الدكتور شوقي ضيف. مرجع سابق. ص 54.

أخذ الناس في كل مصر أو مجموعة أمصار بقراءة إمام من الأئمة السبعة المشتهرين. " والسبب في اشتهاهم هؤلاء السبعة دون غيرهم أن عثمان رضي الله عنه لما كتب المصاحف ووجهها إلى الأمصار، وكان القراء في العصر الثاني والثالث كثيري العدد، فأراد الناس أن يقتصروا في العصر الرابع على ما وافق المصحف، فنظروا إلى إمام مشهور بالفقه والأمانة في النقل، وحسن الدين، وكمال العلم، قد طال عمره، واشتهر أمره، وأجمع أهل مصر على عدالته، فأفردوا من كل مصر وجه إليه عثمان مصحفا إماما هذه صفة قراءته على مصحف ذلك المصنف¹⁰. فكان اختيار الناس إماما من كل مصر وجه عثمان رضي الله عنه إليه مصحفا، ومنهم الإمام نافع الذي هو من أهل المدينة؛ حيث اشتهرت إمامته، وطال عمره في الإقراء، وارتحل الناس إليه من البلدان¹¹. فاختره أهل المدينة، ثم اختاره من بعدهم أهل الأمصار في إفريقيا وغيرها، ومن بين تلك الأمصار المغرب طبعاً.

وسند هذه القراءة وروايتها ما أورده الإمام الحافظ أبو عمرو الداني في التيسير، قال في (باب ذكر الإسناد الذي أدى إلى القراءة عن هؤلاء الأئمة من الطرق المرسومة عنهم رواية وتلاوة): "وأما رواية ورش فحدثنا بها أبو عبد الله أحمد بن محفوط القاضي بمصر، قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن جامع، قال: حدثنا أبو محمد بكر بن سهل، قال: حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن، قال: حدثنا ورش عن نافع، وقرأت بها القرآن كله على أبي القاسم خلف بن إبراهيم بن محمد بن خاقان المقرئ بمصر، وقال لي: قرأت بها على أبي جعفر أحمد بن أسامة التجيبي، وقال قرأت على إسماعيل بن عبد الله النحاس، وقال قرأت على أبي يعقوب يوسف بن عمرو بن يسار الأزرق، وقال قرأت على ورش، وقال قرأت على نافع¹².

فكل قراءة - إذن - توافرت فيها الأركان، وصحت واشتهرت على مر الزمان، تُلْقِيَتْ بالقبول والاعتناء، وحفظت بالقراءة والإقراء، حيثما انتشرت وذاعت، وفي كل قطر سادت، قراءة قارئ مشتهر، لدى كل عالم نحري، ومنه قراءة نافع الشهير، المدني أبي رؤيم، برواية ورش، طريق الأزرق. اختار المغرب وبلدان غرب إفريقيا قراءة نافع برواية ورش عنه؛ لما تتميز به هذه القراءة من صحة سند وفصاحة عربية. قال مكّي: "وقد اختار الناس بعد ذلك، وأكثر اختياراتهم إنما هو في

10 - البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي (ت 794 هـ. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. ط (1). 1408 هـ - 1988 م. ص 406.

11 - انظر المصدر نفسه. ص 406.

12 - كتاب التيسير في القراءات السبع، للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني. دار الكتاب العربي - بيروت. ط (2). نوفمبر 1406 هـ - 1985 م. ص 10-11.

الحرف إذا اجتمع فيه ثلاثة أشياء: قوة وجه العربية، وموافقة المصحف، واجتماع العامة عليه. والعامة عندهم هو ما اتفق عليه أهل المدينة وأهل الكوفة؛ فذلك عندهم حجة قوية توجب الاختيار.

وربما جعلوا العامة ما اجتمع عليه أهل الحرمين¹³.

ولم يكن اختيار المغاربة وبلدان غرب إفريقيا قراءة نافع كيف اتفق، بل كان ذلك لصحة سندها، واشتهار إمامها، وأخذ الكثرة الكثيرة عنه رواية وقراءة، ولأن القراءات التي تحظى بالأولوية من القراءات السبع أو العشر أو من قراءات أخرى صحيحة قراءتا الإمامين نافع وعاصم. قال الإمام بدر الدين الزركشي رحمه الله تعالى: "وربما جعلوا الاعتبار بما اتفق عليه نافع وعاصم؛ فقراءة هذين الإمامين أولى القراءات، وأصحها سنداً وأفصحها في العربية"¹⁴.

يلاحظ أن الزركشي قدم نافعاً؛ مما يدل على اختيار قراءته على غيرها من لدن المغاربة والأفارقة؛ ليس لأن غيرها من القراءات غير صحيحة ولا غير مشتهرة، ولا غير متواترة، كلا. إن كل القراءات السبع أو العشر متواترة. قال الشيخ موفق الدين الكواشي: "كل ما صح سنده، واستقام مع جهة العربية، ووافق لفظه خط المصحف الإمام فهو من السبع المنصوص عليها"¹⁵.

وقد أجاد ابن الجزري الكلام في هذا فقال: "كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين. ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة، أو عمن هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف"¹⁶.

13 - البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي (ت 794 هـ). مصدر سابق. ص 408.

14 - المصدر نفسه. ص 408.

15 - المصدر نفسه. ص 408.

16 - النشر في القراءات العشر للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت 833 هـ). تصحيح ومراجعة شيخ عموم المقارئ بالديار المصرية فضيلة الأستاذ علي محمد الضباع. (في جزئين). دار الفكر. غفل من التاريخ. 9/1.

وانظر: الإتيان في علوم القرآن لشيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي (ت 911 هـ). دار ابن كثير، دمشق - بيروت. ط (4). 1420 هـ - 2000 م. 236/1.

ولا يخفى ما كان لعلماء المغرب وقراءتهم من الاهتمام والعناية بقراءة نافع رواية وحفظا وإقراء ونظما ونثرا، فهذا واحد من الذين عُنُوا بقراءة نافع، هو الإمام ابن بري أبو الحسن الرباطي التازي، الذي نظم منظومة رائعة، هي: "الدرر اللوامع في أصل مقراً الإمام نافع" جمع فيها قراءة نافع من رواية ورش طريق أبي يعقوب الأزرق، ورواية قالون طريق أبي نشيط المروزي؛ حيث تلقفها الناس حفظا وفهما وشرحاً، واعتمدها العلماء واتخذوها أساساً في تعليمهم وتدريسهم في المدارس العلمية وغيرها، وما يزال العلماء يعتمدونها في التعليم والتدريس.

2 - قراءة نافع سنة:

لقد أطلق إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي قوله المدوية "قراءة نافع سنة"، فكان لها صدى كبير، وتأثير عظيم بين القراء، وفي مجال القراءات القرآنية، مما أدى إلى انتشارها بفضل الذين نقلوها عن الإمام نافع مباشرة، أو عن الذين رَوَوْها عنه من طرق مختلفة. وكان حظ المغاربة أو لِنَقْلِ الشمال الإفريقي عامة، أن انتشرت بينهم قراءة نافع المدني، التي قال فيها مالك بن أنس رحمه الله تعالى قوله المشهورة. قال ابن مجاهد رحمه الله تعالى في كتاب السبعة في القراءات:

"حدثني الحسن بن علي بن مالك، قال: حدثنا أحمد بن صالح المصري، قال: سمعت ابن وهب، يقول: قراءة نافع السنة.

حدثني الحسن بن أبي مهران، قال: حدثنا أحمد بن يربيد، قال: سمعت سعيد بن منصور، يقول: سمعت مالكا، يقول: قراءة نافع سنة.

حدثني محمد بن أحمد بن محمد بن شاهين، قال: حدثنا روح بن الفرغ، قال: حدثنا عبد الغني بن عبد العزيز المعروف بالعسّال، قال: سمعت عبد الله بن وهب، يقول: قراءة أهل المدينة سنة. قيل له قراءة نافع؟ قال: نعم. وعلى قراءة نافع اجتمع الناس بالمدينة العامة منهم والخاصة¹⁷.

إن نظرة سريعة في هذه الآثار توحى بأمور، منها:

- أن اثنين من الأئمة المشهورين وهما: ابن وهب ومالك رحمهما الله تعالى، نُقِلَ عنهما قولاهما: "قراءة نافع السنة" و"قراءة نافع سنة".

17 - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد. تحقيق الدكتور شوقي ضيف. ط (2) منقحة. دار المعارف. 1980 هـ. ص 62.

- أن قول ابن وهب رحمه الله تعالى كما نُقِلَ عنه: "وعلى قراءة نافع اجتمع الناس بالمدينة العامة منهم والخاصة"، يفهم منه أن قراءة نافع مجمع عليها.

- أن ابن وهب رحمه الله تعالى، نُقِلَ عنه - أيضا - قوله: "قراءة أهل المدينة سنة".

نستنتج من هذه الأقوال أن أخذ المغاربة والشمال الإفريقي بقراءة نافع له ما يقويه ويثبت؛ إذ تعززه شهادات الأئمة المشهورين الذين أكدوا أن قراءة نافع سنة، وأنها مما اجتمع عليه الناس في المدينة من العامة والخاصة.

هذا عن قراءة الإمام نافع، وأما عن الإمام نافع نفسه فقد قال ابن مجاهد في نفس السياق:

"حدثني محمد بن أحمد بن شاهين، قال: سمعت أبا الزنبرج روح بن الفرج، يقول: سمعت محمد بن رمح، يقول: سمعت الليث بن سعد، يقول: حججت سنة عشر ومائة وإمام الناس بالمدينة في القراءة نافع بن أبي نعيم.

حدثني عبد الله بن الصقر أبو العباس السكري، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، قال: سمعت أبا خُليل الدمشقي يحدث عن الليث بن سعد أنه قدم المدينة سنة عشر ومائة، فوجد نافعا إمام الناس في القراءة لا يُنَازَعُ، قال المسيبي ويعني، وشيئة يومئذ حيٌّ.

أخبرني سليمان بن يزيد أبو عبد الله البصري عن أبي حاتم عن الأصمعي، قال: قال فلان: أدركت المدينة سنة مائة، ونافع رئيسُ القراء بها. وعاش عمرا طويلا¹⁸.

وأخذ القراءة عنه عدد، منهم: عيسى بن مينا قالون، وعثمان بن سعيد الملقب بورش، "وفي ذلك يقول صاحب الشاطبية:

"فَأَمَّا الْكَرِيمُ السَّرُّ فِي الطَّيِّبِ نَافِعٌ فَذَاكَ الَّذِي اخْتَارَ الْمَدِينَةَ مَنْزِلًا
وَقَالُوا عَيْسَى ثُمَّ عُثْمَانُ وَرُشُّهُمْ بِصُحْبَتِهِ الْمَجْدَ الرَّفِيعَ تَأْثَلًا"¹⁹.

إننا هنا أمام أقوال ومنقولات مسندة عن أئمة قراء، تؤكد كلُّها مكانة الإمام نافع بين القراء السبعة، وتشهد له بـ:

- الإمامة في القراءة بالمدينة.

18 - المصدر نفسه. ص 62-63.

19 - مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني. دار الفكر. غفل من الطبعة والتاريخ. 1/ 461-462.

- عدم منازعته في إمامة الناس في القراءة.

- رئاسة نافع القراء بالمدينة.

- طول عمر نافع وهو إمام ورئيس القراء بالمدينة، وشيئة حي.

فماذا يمكن أن يستنتج هنا من هذه الأمور؟

لعل القارئ لا يلبث أكثر من أن ينهي قراءة هذه الأمور إلا ويسارع إلى القول، بأن قراءة نافع هي قراءة إمام مشهور ومشهود له، وأن الإمام نافعاً نفسه ممن اجتمع الناس على قراءته. فلا عجب بعدئذ أن أخذ المغاربة والشمال الإفريقي وغيرهم قراءة نافع، ولا عجب - كذلك - أن تكتب وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية مصحفاً وتطبعه بأمر من صاحب الجلالة ملك المغرب محمد السادس نصره الله، الذي وجد في نشر هذا المصحف المحمدي الشريف وتوزيعه في بلدان غرب إفريقيا أعظم عمل من بين الأعمال التي قام به جلالته أثناء زيارته التاريخية إلى هذه البلدان؛ إذ قام جلالته بالدعم الملكي في الجانب المادي بموازاة مع الجانب الروحي، وهذا التزاوج بين المادي والروحي هو الحكمة بعينها، إذ يدل على فكره وتفكيره السديدين، ولأن الحضارة الحديثة أكدت أن طغيان الجانب المادي على الجانب الروحي أفقد العالم التوازن والاعتدال، وأفقدته الحكمة والصواب، فهذه فلسفة ملك خبير، وسياسي محنك، ومفكر يرى بعينين لا بعين واحدة، يرى العالم المادي بطغيانه، واستكباره، واستبداده، واضطهاده، ويرى العالم الروحي بتسائحه، وعدالته، وإنصافه، ورحمته، فأبى جلالته إلا أن يوجه نداء إلى إفريقيا أولاً، وإلى العالم ثانياً، لبناء عالم جديد متوازن معتدل لا طغيان فيه للمادة على الروح، ولا للروح على المادة، عالم تنعم فيه الإنسانية جمعاء بالأمن والسلام، والأمان والاستقرار، تسود الأمم والدول والحكومات والشعوب نعمة الأخوة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها.

المصحف المحمدي الشريف في بلدان غرب إفريقيا بأدق ضبط:

يتميز المصحف المحمدي الشريف الذي يوجد الآن في مساجد بلدان غرب إفريقيا عامة، وبالمسجد الكبير في باماكو بهالي خاصة، يتميز بضبط جيد، يجمع بين صفات الدقة والشكل، وبين الدلالة والحكم؛ إذ يراعي ما تستلزمه قراءة نافع برواية ورش طريق الأزرق مذهب الداني، فلنتأمل النماذج التالية التي - هي مجرد مثال لدقة الضبط ولا سيما النموذج الأول - تبين ضبط الكلمات

الأواخر من السور، والكلمات الأوائل من السور الموالية، باللون الأحمر، قال تعالى:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (بسم الله الرحمن الرحيم) ألم نشرح لك صدرك ﴿١﴾

﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ (بسم الله الرحمن الرحيم) اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴿١﴾

﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ (بسم الله الرحمن الرحيم) إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴿١﴾

إن كلمة «فحدث» - مثلاً - من سورة الضحى في النموذج الأول، و«آلم» من سورة الشرح يدل ضبطهما على اختيار ورش:

1 - السكت، قال أبو عمر الداني في التيسير: "ويختار في مذهب ورش وأبي عمرو وابن عامر السكت بين السورتين من غير قطع" ²⁰.

2 - الوصل من غير بسملة، مع تسهيل الهمز بالنقل التي رواها ورش عن نافع ونقلها عنه يعقوب الأزرق وأخذها عن هذا الداني؛ إذ يلاحظ أن «فحدث» نقلت إلى الحرف الساكن الأخير فيها وهو (الثاء) حركة همزة «آلم» ثم حذفت الهمزة ووضعت جرة هكذا (—) فوق الألف دلالة على أن الهمزة المحذوفة مفتوحة. ويتلى - في حالة الوصل - هكذا: «فحدث ألم نشرح» وعلى ذلك لا تجد علامة الوقف (ص) على الحرف الأخير من كلمة «فحدث» من قوله تعالى: «فحدث ﴿١﴾» (بسم الله الرحمن الرحيم) «آلم نشرح لك صدرك ﴿١﴾» ²¹. وكذا في نهاية كل سورة سوى مواضع أربعة؛ حيث يجمع بين البسملة والسكت. كما في هذا المثال:

﴿والأمر يومئذ لله ﴿١٩﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ويل للمطففين ﴿١﴾﴾

ترى علامة الوقف على آخر حرف من "لله" وعلى "بسم الله الرحمن الرحيم"

وذلك مبني على اختلافهم في البسملة بين السورتين والوصل بينهما، قال ابن الجزري بعد أن حكى اختلاف بعضهم في الفصل بين السورتين بالبسملة وبغيرها، والوصل والسكت بينهما: "واختلف أيضاً عن الباقيين. وهم أبو عمرو وابن عامر ويعقوب وورش من طريق الأزرق بين الوصل والسكت والبسملة (...) وأما ورش من طريق الأزرق (وعليه قراءة المغاربة وبلدان غرب

20 - كتاب التيسير في القراءات السبع، للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني. دار الكتاب العربي - بيروت. ط (2). نوفمبر 1406 هـ - 1985 م. ص 17-18.

21 - لأنه لا يُسَمَّلُ لورش بين السورتين من طريق الأزرق.

إفريقيا) فَقَطَعَ له بالوصل صاحب الهداية وصاحب العنوان والحضرمي وصاحب المفيد، وهو ظاهر عبارة الكافي، وأحد الوجوه الثلاثة في الشاطبية، وقطع له بالسكت ابنا غلبون وابن بليمة صاحب التلخيص، وهو الذي في التيسير وبه قرأ الداني على جميع شيوخه، وهو الوجه الثاني في الشاطبية، وأحد الوجهين في التبصرة من قراءته على أبي الطيب، وهو ظاهر عبارة الكامل الذي لم يذكر له غيره. وقطع له بالبسملة صاحب التبصرة من قراءته على أبي عدي وهو اختيار صاحب الكافي وهو الوجه الثالث في الشاطبية وبه كان يأخذ أبو غانم وأبو بكر الأذفوي وغيرهما عن الأزرق²². وبالوجهين الأول والثاني، أي السكت والوصل قراءة المغاربة، مقدمين السكت على الوصل؛ لما في التيسير، ولقراءة الداني به على جميع شيوخه.

قال صاحب كتاب المحجة في تجويد القرآن: "جمع بعض الشيوخ بين السكت والوصل بين كل سورتين في غير المواضع الأربعة²³. وكان هذا منهم - والله أعلم - إيذانا بأن السكت رواية، والوصل رواية، وهو كذلك، إلا أن أحد الوجهين كاف. وعلى كل حال فقد جرى العمل عندنا في المغرب بالجمع بين الوجهين وتقديم السكت، وعطف الوصل عليه"²⁴.

بالرجوع إلى المصحف المحمدي الشريف - مقارنة بالمصاحف المتداولة - لا نجد علامة الوقف (ص) على الحرف الآخر من الكلمة في نهاية كل سورة إلا في المواضع الأربعة التي أشرت إليها سابقا. إشارة أو دلالة على السكت أو الوصل بين السورتين دون وقف.

هذا، وأما في المواضع الأربعة:

- بين المدثر والقيامة: نجد علامة الوقف (ص) على الحرف الأخير من كلمة: «المغفرة» وعلى البسملة.

- بين الانفطار والمطففين: نجد علامة الوقف (ص) على الحرف الأخير من كلمة: «الله» وعلى البسملة.

- بين الفجر والبلد: نجد علامة الوقف (ص) على الحرف الأخير من كلمة: «جنتي» وعلى البسملة.

22 - النشر في القراءات العشر للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت 833 هـ). تصحيح ومراجعة شيخ عموم المقارئ بالديار المصرية فضيلة الأستاذ علي محمد الضباع. (في جزئين). دار الفكر. غفل من التاريخ. 261-259/1.

23 - المواضع الأربعة هي: بين المدثر والقيامة، وبين الانفطار والمطففين، وبين الفجر والبلد، وبين العصر والهمزة.

24 - كتاب المحجة في تجويد القرآن لمحمد الإبراهيمي. المكتبة السلفية. الدار البيضاء - المغرب. (ط 1). 1410 هـ - 1990 م 91-92.

- بين العصر والهمزة: نجد علامة الوقف (ص) على الحرف الأخير من كلمة: «والعصر» وعلى البسملة.

وذلك يعني - كما هو مستفاد من ضبط المصحف المحمدي الشريف - الفصل بين السورتين بالبسملة ثم السكت بينهما. قال الأستاذ سيدي محمد الإبراهيمي: "وقد جمع الذين استحسنوا البسملة في هذه المواضع الأربعة بين البسملة والسكت، مع تقديم البسملة والوقف عليها وعلى ما قبلها وما بعدها، ثم السكت بين السورتين، وهذا في المواضع الثلاثة الأولى.

وقدموا السكت على البسملة بين السورتين في الموضع الرابع، ثم الوقف على البسملة وعلى ما قبلها وما بعدها. فأما البسملة فَلِلْعَلِّ المذكورة، وأما السكت فلأنه رواية"²⁵.

يتبين مما سبق أن المصحف المحمدي الشريف بلغ من دقة الضبط ما هو معروف وملحوظ وملحوس، وإن مصحفا بهذه الدرجة لجدير بأن يُنشر، ويُؤخذ به، ويُعتمد مصدرًا يرجع إليه العلماء والمقرئون والمدرسون والأساتذة، والباحثون والدارسون في مختلف الحقول المعرفية.

خطيب الجمعة بالمسجد الكبير بباماكو يشيد بجلالة الملك محمد السادس:

تعرض خطيب الجمعة في المسجد الكبير بباماكو، حيث أدى أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس صلاة الجمعة لمبادرة جلالة الملك التي يتجسد روحها التضامني والتعاوني في حديث رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منهم عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"²⁶. وقال الخطيب: إن الله تبارك وتعالى أتم علينا نعمه مرة أخرى، بأن شهدنا طلعة أمير المؤمنين وسبط الحبيب النبي الأمين، صاحب الجلالة الملك محمد السادس ملك المملكة المغربية الشريفة، مذكرا بأن جلالة الملك نصره الله ما فتى يقتفي سبيل أسلافه الكرام من الملوك والسلاطين الأشراف الذين كانت لهم العناية التامة والرعاية الدائمة لمسلمي هذه الربوع الإفريقية، فسهروا على نشر تعاليم الإسلام فيها وترسيخ قيمه العظيمة السمحة.

وأكد أن الملك محمد السادس، لم يزل يعلي مكانة المسلمين الأفارقة، ممثلين في علمائهم ومشائخهم، وذلك بدعوتهم لحضور الدروس الحسينية الرمضانية والمشاركة في الندوات العلمية واللقاءات الصوفية"²⁷.

25 - كتاب المحجة في تجويد القرآن لمحمد الإبراهيمي. مرجع سابق. ص 91.

26 - البخاري: الأدب، 6011 (ومسلم: البر والصلة والآداب) 2586 (وأحمد) 4/270.

27 - مغاريكم - المغرب وجواره: <http://www.magharib.com/index.php/news/4806>

أبرزت الخطبة الحظوة المرموقة التي يخص بها جلالة الملك الأفارقة عامة والمالين منهم بخاصة؛ إذ يقدم جلالته لهم كل المساعدات المادية والمعنوية، ويفتح لهم أكثر من مجال لتطأ أقدامهم أرض المغرب، للمشاركة في مختلف الأنشطة الثقافية والدينية وغيرها، وفي مقدمة ذلك المشاركة في الدروس الحسنية الرمضانية التي لا يستدعى إليها إلى من لهم حظوة لدى جلالته، وتشكل الدروس الحسنية الرمضانية في الواقع مناسبة جليلة وعظيمة طيلة شهر رمضان المعظم؛ للالتحام، والتواصل، والتعارف، والتباحث، وتبادل المعارف والأفكار، بين العلماء وغيرهم من سائر دول العالم، وهذه المناسبة التي تتجدد كل عام هي مما ينفرد به المغرب في ظل الرعاية السامية لجلالته، إذ هي مناسبة لا ترقى أية مناسبة ولا أية تظاهرة مهما كانت - ثقافية أو دينية أو غيرها - إلى المستوى من التلاحم والتجاذب والتقارب بين الجيران والأشقاء، وبين الهيئات والمنظمات، وسائر الجهات في سائر دول العالم إلى مستوى هذه التظاهرة العظيمة التي تقام تحت عنوان تاريخي حضاري فكري علمي روحي: (الدروس الحسنية الرمضانية). ما أعظمها من مناسبة ! إنها تخلد ذكريات الملك الراحل الحسن الثاني طيب الله ثراه الذي كان له الفضل في سننها وإحيائها. فسار خلفه العاهل الهمام جلالة الملك محمد السادس على نهجه السديد، وسنته الحميدة.

خاتمة:

لا يمتلك إنساناً في الوقت الحاضر تفكيراً أقوى من تفكير في الإنجازات التاريخية لجلالة الملك محمد السادس، التي تتعالى عن كل تقدير، ولا يمكن لإنسان مهما كان أن يقدر الزيارات الملكية إلى بلدان غرب إفريقيا؛ لما تحمله من دلالات ومعان سامية تجل عن الوصف.

ومن تلك الإنجازات العظيمة التي سجلها التاريخ لجلالته بمداد الفخر والاعتزاز، نشر المصحف المحمدي الشريف وتوزيعه في تلك البلدان، وعلى نطاق واسع.

وللتذكير، فإن المبادرة الملكية الحميدة القاضية بتكوين أئمة بالمغرب، والاستفادة من تأطير جد متطور يشرف عليه علماء مغاربة؛ ليعود أولئك الأئمة إلى بلدانهم حاملين رؤية روحية جديدة، ومتشبعين بفكرة استمرارية هذه القيمة المشتركة بين هذه البلدان، وناقلين التجربة المغربية في الشأن الديني... إن هذه المبادرة وغيرها من المبادرات العديدة لأقوى دليل على ما يتقاسمه جلالة الملك ورؤساء بلدان غرب إفريقيا وشمالها من قيم مشتركة روحية وثقافية.

ولا يمكن لكل ملاحظ ومتتبع، أو باحث ودارس، أو مفكر وعالم إلا أن يستخلص مما سبق قضايا هامة وكبرى، تتجلى في:

- الرؤية السياسية الرشيدة لجلالة الملك التي تقوم على النظر السديد والحكمة والعقلانية، والعدل والتوازن.

- فلسفة الحكم لدى جلالته التي تركز على بعد النظر، والتبصر والتروي، مع قوة العزيمة والمعنوية العالية.

- الاعتدال والوسطية، والمزاوجة الرشيدة بين الجانبين الروحي والمادي.

- الأخوة والتضامن، والاحترام والتبادل وحسن الجوار.

- العمل الدؤوب، والإصلاح العام، والتنمية الشاملة.

- الاهتمام بشؤون الأمة الإسلامية، والسهر على رعاية مصالح الإنسانية عامة، مغربا وإفريقيا وعالميا.

- إعلاء الشأن الديني، والحرص على التفعيل المؤسساتي وتأهيل العنصر البشري لتديره بكل فاعلية وخبرة ودراية.

- خدمة كتاب الله تعالى القرآن الكريم الرسالة المحمدية الخالدة.

هذه بعض القضايا التي تشكل دوائر واسعة، تتمركز داخلها رؤى وتصورات، وأفكار وآراء، تسترجع الماضي وتترقب المستقبل في ضوء الحاضر بكل مكوناته وعناصره السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، وفي مختلف الأبعاد المادية والروحية.

المرأة والتنمية البشرية في منظومة إمارة المؤمنين

د. حكيمة الخطري
كلية الشريعة، فاس

إن الهدف من توجيه سياسة محكمة نحو تحقيق التنمية البشرية للعنصر الإنساني ؛ جَعْلُهُ يعيش حياة كريمة آمنة ومستقرة بصفة مستمرة وعلى الدوام؛ بغض النظر عن الجنس أو العرق أو الطبقة ؛ مصداقا لقوله تعالى : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»¹.

والتنمية البشرية عبارة عن توسيع خيارات الناس ليحصلوا على المعرفة والدخل اللازم، وكذا الاستثمار المربح لتحقيق هدفهم المنشود في إحياء حياة مديدة وسعيدة وكريمة. ومشاركة الناس في تحقيق التنمية البشرية تستدعي جهود الجميع في المجتمع رجالا ونساء ؛ باعتبار أن الإنسان هو العنصر الأساس والداعم لجهود التنمية. فالتنمية الحقيقية هي التي يعتمد فيها على جهود كل طبقات المجتمع وأفراده ؛ وفي هذا الصدد يمكن اعتبار مشاركة المرأة في بناء المجتمع ضرورة إنسانية لا غنى عنها ؛ وقد أكدت ذلك التوجيهات الإسلامية من خلال نصوص شرعية عديدة نذكر منها : قوله تعالى : «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف»² وقوله صلى الله عليه وسلم : "طلب العلم فريضة على كل مسلم"³ وقوله صلى الله عليه وسلم : "إنما النساء شقائق الرجال"⁴ كما تم تأكيد ذلك من خلال المواثيق والمعاهدات الدولية لحقوق الإنسان.

1 - الحجرات 13.

2 - سورة البقرة الآية : 226.

3 - رواه البخاري ولفظ مسلم هنا يعني الذكر والأنثى.

4 - أخرجه الإمام أحمد في باقي مسند الأنصار من حديث أم سليم بنت ملحان حديث 5869، و الترمذي في كتاب الطهارة حديث 113، وأبو داود في كتاب الطهارة باب في الرجل يجد البلة في منامه حديث 236..

واستيعاباً منه للدور الأساس الذي يقوم به العنصر البشري في تطوير المجتمع نحو الأفضل، وبصفة دائمة ومستمرة بادر أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله إلى الاهتمام بهذا العنصر الفعال، فكانت أولى توجهاته لتحقيق التنمية البشرية المستدامة الاعتناء بالعنصر الإنساني رجالاً ونساء⁵.

ومن هذا المنطلق جاءت الدعوة الملكية إلى توفير مستلزمات قيام المرأة بدورها في عملية التنمية، وتوعيتها بحقوقها وواجباتها، ودمجها في الحياة العملية وتمكينها من المشاركة في العمل مما يشعرها بكيانها وثقتها بنفسها؛ بدءاً بتعزيز دورها في مؤسسة الأسرة التي تعتبر المؤسسة الأولى لانطلاق حياة صحية جيدة للمجتمع؛ إذا ما توفرت لديها الآليات الضرورية لتنشئة وتكوين العنصر الإنساني على وجه يجعله مواكباً للتنمية في مختلف مجالاتها: الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية...

ولما كانت المرأة تشكل محور دعامة الأسرة؛ كان لابد من وضع السياسات، والاستراتيجيات التي تساعد على التفاعل مع التطورات الجديدة واستيعاب التكنولوجيا الحديثة.

وإدراكاً لأهمية المرأة ودورها في بناء الأسرة؛ فإن الاهتمام بقضاياها جعلت ضمن أولويات مخطط التنمية البشرية؛ باعتبارها المحور الرئيس في الحياة الاجتماعية، إذ لا يمكن الحفاظ على أسرة مستقرة إلا إذا كانت المرأة واعية ومدرّكة لأدوارها داخل هذا الفضاء الفعال المنتج لأهم طاقة تعتمد عليها التنمية في تحقيق أهدافها المرجوة؛ وهي الطاقة البشرية؛ فهي الأم المربية الأولى التي يعود إليها الفضل في زرع المبادئ والمفاهيم والقيم الإنسانية في نفوس الأطفال؛ بالنظر إلى أنهم صانعو المجد في المستقبل. وأدوار المرأة داخل الأسرة لها صلة وطيدة بالتعليم والعمل والرعاية الصحية، والتنشئة الاجتماعية؛ وهذا هو المصدر الأساس لتحقيق تنمية اجتماعية شاملة.

وإذا كانت الدعوة موجهة نحو تمكين المرأة من المشاركة الفعالة في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ فإن ذلك لا يتناقض مع الدور الذي تقوم به داخل مؤسسة الأسرة من أجل تحقيق هذه التنمية من خلال تنشئة أفراد أسرتها ورعايتهم والعناية بهم.

وقد يتصور البعض أن صنع القرار إنما يختص فقط بالمجالات السياسية والاقتصادية؛ مثل التواجد في البرلمان، أو السلطة التنفيذية، أو العمل الاقتصادي، أو الإسهام في القطاعات المالية

5 - انظر مثلاً الخطاب الذي وجهه أمير المؤمنين إلى القمة الثانية للدول العربية ودول أمريكا الجنوبية بالدوحة بتاريخ مارس 2009 والذي جاء فيه ما يلي: "وإيماناً منا بأن الهدف الأساسي من كل سياسة اقتصادية واجتماعية هو تمكين الشعب ولاسيما فئاته المحرومة من مقومات العيش الكريم، والمواطنة الكاملة، فقد حرصنا على إطلاق المبادرة الوطنية للتنمية البشرية في نطاق مقارنة تشاركية تستهدف محاربة الفقر والتمهيش والاقتصاد الاجتماعي جاعلين المواطن المغربي في صلب عملية التنمية".

الكبيرة وغيرها ؛ ولكن يمكن اعتبار تأثير المرأة في دوائر صنع القرار في المجتمع مقابلا لقدرتها على التأثير في القرار العائلي الخاص بأسرتها ؛ فدورها لا يقل أهمية عن صنع القرار التشريعي، أو التنفيذي. فالأسرة مؤسسة اجتماعية مصغرة تمثل الهيكل الأول لأوسع دوائر القرار المجتمعي ؛ ومن خلال ما تقوم به المرأة من أدوار داخل الأسرة يمكن رصد التقدم نحو النهوض بالمرأة وتعزيز دورها ليس فقط على مستوى الأسرة بل على مستوى المجتمع أيضا.

وانطلاقا من هذا حرص جلالته على أن يكون من ضمن أولويات المبادرة الوطنية للتنمية البشرية دعم المرأة، قصد تسهيل مهمتها في الانخراط في عملية التنمية انطلاقا من بيت الأسرة ؛ باعتباره الفضاء الأول الذي تنطلق منه للمشاركة في الحياة العامة ؛ وذلك بتوفير مراكز للنساء تهيئ لهن تكوينات عديدة في ميادين شتى : كالمعلومات، والسكرتارية، وإدارة المقاولات، وكذلك الاستفادة من دروس محو الأمية، والتربية الصحية والعائلية، والتربية على المواطنة، والتوجيه النفسي والاجتماعي والقانوني⁶.

وإيماننا منه بأن المرأة لا يمكن أن تندمج في عملية التنمية المستدامة من خلال دورها داخل بيت الأسرة ؛ إلا إذا هيئت لها الوسائل الضرورية لإعانتها على القيام بوظيفتها الأولى، بادر أمير المؤمنين نصره الله إلى إعطاء أوامره السامية من أجل العناية بإنشاء دور للطالبات في مختلف المناطق المغربية⁷. وفي إطار تشجيع ودعم الأنشطة المدرة للدخل ؛ عمل جلالته على تدشين تعاونيات تستفيد منها المرأة من أجل رفع دخل الأسرة، وتحسين وضعيتها الاقتصادية⁸.

وكان للمرأة⁹ القروية نصيب وافر من الأنشطة الملكية التي تسعى إلى تأطيرها وتحسين وضعيتها الاقتصادية والاجتماعية، وتمكينها من معارف واسعة في مجال الأنشطة الحرفية والتقنيات الحديثة، وتحسين القدرات التربوية والتعليمية لديها.

ومع اعتبار مبدأ المساواة بين الذكر والأنثى مبدأ أساسيا لتحقيق الاندماج في التنمية المستدامة؛ فقد تم توفير الآليات التي تساعد المرأة على قدم المساواة بالرجل؛ على مشاركته في كافة الميادين بما يوافق فطرتها كأنتى، بما يلائم طبيعتها بصفقتها هذه.

6 - انظر مثلا النشاط الملكي الذي دشن من خلاله مركز وإنعاش المرأة بالناظور في 18-7-2008.

7 - انظر مثلا تدشين جلالته لدار الطالبة بمدينة إيموزار كندر بتاريخ 2-4-2009، و تدشين دار الطالبة بتازة و مركز لتكوين و تأهيل المرأة يوم الجمعة 5-9-2008 (عن جريدة المغربية 6-9-2008).

8 - انظر مثلا النشاط الملكي الخاص بإقليم الصويرة ؛ والذي ضمنه دشن تعاونية نسوية لاستخراج زيت أركان أثناء زيارته للإقليم بتاريخ 12-4-2007.

9 - أنظر النشاط الملكي أثناء زيارة جلالته لمدينة الحسيمة يوم الثلاثاء 22-7-2008.

وتكريسا لمبدأ المساواة بين الذكر والأنثى بالمفهوم الإسلامي؛ فقد صرح جلالته بوجود "ميادين يكون فيها حضور المرأة أكثر من حضور الرجل، وهناك ميادين يحصل فيها العكس"¹⁰.

وحفاظا على الخصوصية الإسلامية؛ أكد جلالته لبعض الجهات الغربية التي تنادي بالمساواة المطلقة بين الذكر والأنثى في كل المجالات بقوله: لديكم في فرنسا وفي عدد من الدول الغربية الأخرى نقاش أيضا حول المساواة... لا أعتقد أن المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة يمكن أن تتحقق في يوم من الأيام، ولكن ماذا تعني المساواة في الواقع، إنها تعني الحفاظ على الهويتين الأنثوية والذكورية؛ وذلك بصيانة كرامة المرأة والرجل معا...¹¹.

ولعل التعديل الذي لحق مدونة الأسرة المغربية يعتبر أهم حدث كرس تطبيق مبدأ المساواة بما يحقق مصلحة الأسرة امرأة ورجلا وأطفالا. ولتحقيق هذا الهدف؛ فإن جلالته لم يعتبر مدونة الأسرة قانونا خاصا بالمرأة وحدها؛ بل قانونا للأسرة، أبا وأما وأولادا؛ وهذا ما أكدته جلالته بقوله: "وبصفتنا ملكا لكل المغاربة فإننا لا نشرع لفئة أو جهة معينة، وإنما نجسد الإرادة العامة للأمة التي نعتبرها أسرتنا الكبرى"¹². وتأكيدا لذلك صرح جلالته بما يلي: "... فإننا بقدر ما نحمد الله تعالى على توفيقنا في إنجازها بما يتضمنه من إنصاف للمرأة وحماية لحقوق الأطفال، وصيانة لكرامة الرجل، نجدد التأكيد على أنها مكسب المغاربة جميعا"¹³.

كما جاء دستور 2011 بدعم قانوني للأسرة والمرأة من خلال إنشاء هيئتين دستوريتين تخدمان مصلحة المرأة في كثير من حقوقها الإنسانية والطبيعية، وذلك بإحداث هيئة للمناصفة ولل قضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، والمجلس الاستشاري للأسرة والطفولة اللذين قدما في صيغة مشروع قانون للأمانة العامة للحكومة في غشت 2014 بمبادرة من وزارة التضامن والمرأة والأسرة والتنمية الاجتماعية، باعتماد مقاربة تشاركية أمنت انخراط مختلف الفاعلين المعنيين بقضايا المرأة والأسرة والطفولة، بتأطير أكاديمي عملت من خلاله لجنة علمية أحدثت لهذا الغرض على استثمار مختلف الأفكار والتصورات الواردة عليها في الموضوع، في عدد مهم من المذكرات الاقتراحية لفعاليات المجتمع المدني والهيئات السياسية والنقابية وغيرها، هذا فضلا عن جلسات الاستماع التي

10 - نص الخطاب الملكي الذي ألقاه جلالته أمام المجلس الأعلى لإعداد التراب الوطني بالرباط يوم الأربعاء 12-5-2004.

11 - نفس الخطاب السابق.

12 - من نص الخطاب الملكي الذي ألقاه جلالته بمناسبة افتتاح الدورة الثانية من السنة التشريعية السابعة للبرلمان يوم الجمعة 10-10-2003.

13 - من نص الخطاب الملكي بمناسبة استقبال جلالته لرئيسي البرلمان بتاريخ 3-2-2004 بالرباط، و الضمير في الجزء المقبَس من النص يعود على مدونة الأسرة.

خصصت لخبراء وأكاديميين وطنيين ودوليين مهتمين بالمجال في سياق مواصلة سلسلة الإصلاحات التي باشرها المغرب والرامية إلى بناء دولة ديمقراطية حديثة، تحت القيادة الرشيدة لأمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده.

كل هذه الإرادة السامية كانت موجهة نحو تحسين أوضاع المرأة على جميع المستويات ؛ قصد تسهيل أداء أدوارها داخل الأسرة التي تعتبر الخلية الأولى لقيام المجتمع. وهنا يمكن أن نتساءل عن الأدوار التي تسهم بها المرأة في التنمية البشرية المستدامة انطلاقاً من دورها داخل الأسرة ؟

يمكن للمرأة أن تقوم بعدة أدوار خدمة لعملية تنمية المجتمع وتطويره نحو الأفضل والأحسن بصفة مستمرة. وفي مقدمة هذه الأدوار نجد قيامها بدورها التقليدي المعروف والذي قامت به منذ القدم وساهمت من خلاله بشكل حقيقي وعملي في تنمية المجتمع ؛ وهو العناية بالأسرة بصفقتها أما وربة بيت وزوجة. وهنا يمكن أن نطرح تساؤلاً وهو : كيف يمكن للمرأة وهي تقوم بهذا الدور المهم أن تسهم في تنمية المجتمع وتطويره، وجعله محققاً لعيش رغيد ورفاهية مضمونة على مر الزمان ولكل الأجيال القادمة ؟

دور المرأة في التنمية بصفقتها أما.

حظيت المرأة بصفقتها أما بمقام رفيع في الشريعة الإسلامية؛ فصفة الأمومة لديها جعلتها تفوق الصفة المقابلة لدى الرجل من حيث التكريم والتقدير والاحترام. وهذه المكانة الرفيعة التي حظيت بها المرأة كانت بسبب تأثيرها المباشر على تنشئة أولادها وتربيتهم. ولا يخفى على أحد مدى الجهود الجبار الذي تبذله المرأة وهي تقوم بهذه المهمة الصعبة التي عجز الرجل عن القيام بها وأعلن استسلامه الكامل اتجاه عدم قدرته على تحملها.

فكان للتوجيه الإسلامي نحو تقدير الأم واحترامها ونيل رضاها - من خلال نصوص شرعية متعددة - مغزى عظيم.

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ حملته أمه وهنا على وهن ﴾¹⁴.

وجاء رجل¹⁵ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال صلى الله عليه وسلم هل لك من أم ؟ قال: نعم، قال : ألزمها فإن الجنة تحت

14 - سورة لقمان، جزء من الآية 13.

15 - الرجل هو جاهمة السلمي.

رجليها¹⁶. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : (أملك) قال : ثم من ؟ قال : (أملك)، قال : ثم من ؟ قال : (أملك) قال : ثم من ؟ قال : (أبوك)¹⁷.

فالمرأة بوحى من فطرتها كأم، وبالنظر إلى غريزة الأمومة لديها سعت دائما نحو تحقيق الأفضل والأيسر والأجود لأولادها بصفة مستمرة . وربما تعدى مجهودها في تحقيق حياة آمنة ومزدهرة إلى أحفادها، ولا شك أن القول المأثور : (أعز من الولد ولد الولد) خير دليل على أن المرأة كأم لا يتوقف دورها في العطاء عند أولادها، بل يتعدى ذلك إلى أولاد الأولاد.

ومن هذا المنطلق يمكن الاعتراف بالدور المهم الذي تقوم به المرأة كأم في تنمية المجتمع بشكل مستمر من خلال عنايتها بأطفالها وتربيتهم، وكذا تنشئتهم تنشئة صالحة لمسايرة مجالات التنمية المختلفة.

فعملية التنشئة الأولى للطفل تبدأ في حضان أمه، ويخطئ كثيرا من يظن أن حكايا الطفولة التي تحكيها الأم لطفلها إنما يقصد بها التسلية، لأن هذه الحكايات هي التي تشكل جزءا كبيرا من ثقافة الطفل وقيمه ومبادئه، ونظرته إلى الناس والمجتمع . ولا شك أن عملية بناء شخصية الطفل هي جزء من عملية التنمية¹⁸. وبقدر ما تكون هذه التنشئة صحيحة بقدر ما تستقيم عملية التنمية ذاتها وتحقق أهدافها على النحو الصحيح أيضا¹⁹.

إن التنمية الصحيحة للطفل خلال المراحل العمرية المختلفة تبدأ من خلال اكتشاف مهارات الطفل وقدراته، ومواهبه والعمل على تنميتها وتغذيتها وتطويرها، والاهتمام بتدريب الطفل على التفكير العقلي والابتعاد عن تكوين ثقافة هشّة تعتمد على الخرافات، والتصورات الخيالية غير المثمرة.

أضف إلى ذلك تنشئته على القيم الدينية والروحية، وتأسيس العقيدة الإسلامية، والخصال الرفيعة.

16 - رواه النسائي في السنن كتاب الجهاد (6/ 11 / 3117) وابن ماجة في السنن مطولا، كتاب الجهاد 2886 وابن أبي شيبة في مسنده (6/ 815) برقم 33460 والطبراني في المعجم الكبير (8/ 311) برقم 8162.

17 - أخرجه البخاري 5971 ومسلم 1/ 2548 وابن ماجة 3658 وأبو داود 5139 والترمذي 7998 واللفظ هنا للبخاري.

18 - جريدة الرياض مرجع سابق.

19 - المرجع نفسه.

كما تستطيع الأم أن تزرع في أطفالها حب الحركة والنشاط الجسديين باعتبار أن العقل السليم في الجسم السليم. فمن خلال التعود على الحركة الجسدية النشيطة تتأكد في الطفل الروح الرياضية التي تقوم على المنافسة الشريفة.

دون أن ننسى طبعا التنشئة على النزوع إلى القراءة والاهتمام بالجانب المعرفي بالبحث والمطالعة المستمرة، لأن هذا يجعل الطفل مندمجا في عملية التنمية التي توفرها له أمه بأسلوب تلقائي وطبيعي. فالأم هي المدرسة الأولى التي يتعلم الطفل منها لغته الأولى والكثير من الأخلاق والقيم: فهي تساعد في نطاق بيت الأسرة على أن يكتشف نفسه ومحيطه، فتمنحه الحنان والأمان وتساهم بشكل فعال في تكوين هويته وشخصيته المستقبلية²⁰.

هذه مجرد إشارات ونماذج لما تستطيع أن تقوم به الأم أثناء تربية أطفالها، ومن ثم إعدادهم بشكل جيد لأداء دورهم المهم مستقبلا في مسيرة التنمية.

وباعتبار أن العنصر البشري يشكل الثروة الحقيقية التي يعتمد عليها المجتمع في تنمية مجالاته المختلفة، فإن المرأة والطفل يمثلان نسبة عالية من هذه الثروة الثمينة. "فالمرأة إلى جانب كونها مسؤولة عن نفسها فهي مسؤولة أيضا عن النصف الآخر في المجتمع فمن هنا نجد أن ما نسبته فوق 75 في المائة في المجتمع هم من النساء والأطفال"²¹.

دور المرأة في التنمية بصفتها زوجة وربة بيت

يمكن للمرأة أيضا أن تشارك في عملية التنمية انطلاقا من دورها كزوجة وربة بيت. فبالنظر إلى ما توفره لزوجها وأفراد أسرتها من الأمان النفسي والاستقرار الذي يساعدهم على العمل والإنتاج، فإنها تصبح مساهمة في تفعيل عملية التنمية بطريق غير مباشر، وذلك من خلال اهتمامها بمنزلها ليكون بيئة صالحة تشكل الخلية الأولى للمجتمع الصالح.

فالمرأة تربي الأجيال وتنمي فيهم حسن المسؤولية اتجاه البيئة، وهي تتحمل مسؤولية إدارة البيت، والتقليل قدر الإمكان من التلوث المنزلي، واختيار ما يناسب أسرتها من المأكول والملبس وهي بكل هذا تحافظ على محيطها عبر سلوك يمارس يوميا وبشكل تلقائي. فعلى المرأة تقع مسؤوليات بيئية كبرى باعتبارها ربة بيت تهتم بنظافة منزلها وتدير شؤونه الاقتصادية من خلال حسن استخدامها للطاقة المائية والكهربائية، واستعمالها للطعام، والتعامل مع المخلفات المنزلية. فهي مسؤولة عن

20 - جريدة الرياض اليومية الخميس 23 ذي الحجة 1425 - "فبراير 2005 ع 13373.

21 - جريدة الرياض مرجع سابق.

توجيه أفراد أسرتها عن اتباع الأساليب السليمة في استخدام المياه والحد من هدره والاهتمام بحمايتهم من الأمراض ليتمتعوا بحياة صحية دائمة ومستمرة.

ومن جهة أخرى فهي تعمل جاهدة من أجل الحصول على وضع بيئي من خلال ما تقوم به من تزيين البيت، فلا يكاد أي بيت يخلو من نباتات الزينة التي تملأ شرفات ونوافذ الغرف لتعطي جمالا وهدوءا، وما أكثر ما قامت به المرأة منذ القدم للمحافظة على البيئة وسلامتها، لذلك تبقى المرأة العنصر الأساس والهام في عملية التنمية البيئية حيث يعتبر البيت المحطة الأولى في حياة أي إنسان، فهي تقوم بترسيخ التربية البيئية لأفراد أسرتها وتنشئتهم تنشئة تؤهلهم للمحافظة على بيئتهم المحيطة، كما تقوم بغرس القيم لحماية الموارد الطبيعية والمحافظة على النظافة والتعاون من أجل البيئة²².

كما يمكن للمرأة أن تسهم في تطوير التنمية الاقتصادية انطلاقا من دورها كزوجة وربة بيت. وهنا أتوقف لأطرح تساؤلا على المرأة نفسها فأقول: هل فكرت يوما أن تعدي الراتب الذي يمكن أن تتقاضينه نظير الأعمال التي تقومين بها في البيت كزوجة وربة بيت ؟

لا شك أن وظيفة المرأة داخل البيت أسمى وأكبر من أن يتم التعامل معها على هذا النحو. إن الأمومة وحدها تعتبر وظيفة سمتها الأساسية العطاء وهي لا تقدر بأي ثمن إطلاقا. نفس الشيء بالنسبة للعلاقة الموجودة بين الرجل والمرأة في هذا الإطار، إنها شراكة موثقة في كتاب الله إلى يوم الدين، ومادامت كذلك فلا يمكن محاسبتها بهذا المفهوم. فالزوج لا يمكن أن يحاسب زوجته على الأكل والشرب واللبس والعلاج وغيرها من الفواتير التي هو مسؤول عن سدادها شرعا، كما لا يجوز للزوجة أن تسأل عن عوض مالي نظير خدمة زوجها وأطفالها، فهي مهام موكلة بها شرعا. وقد تحسر المرأة إذا دخلت في حسابات الشراكة الزوجية انطلاقا من أن عقد الزواج شرع ليجمع بين شخصين، ومن خلاله جعل الإسلام العلاقة الزوجية قائمة على المودة والرحمة والسكن. يقول تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾²³.

وقد حاول أحد المواقع حساب الأجر الذي ينبغي أن تتقاضاه المرأة المتفرغة لشؤون بيتها فوجد أنها تستحق حوالي 134 ألف دولار سنويا. لكن كيف تم حساب هذا الأجر ؟ قام الموقع بإحصاء الوظائف التي تقوم بها المرأة مثل : مديرة منزل، مسؤولة حضانة، أخصائية نفسية، محاسبة ميزانية البيت ومسؤولة عن دخل الأسرة وإنفاقه بالشكل الأمثل، مدرسة خصوصية فكل الأمهات

22 - سناء يعقوب، مجلة الزهراء بتاريخ 2005-12-27.

23 - سورة الروم، جزء من الآية 20.

تقريبا يجلسن مع أطفالهن للتأكد من أنهم يقومون بعمل واجباتهم المدرسية، ومساعدتهم على فهم المسائل المدرسية، ووظائف أخرى : من فض النزاعات والمشاجرات بين الأطفال وهي مهمة لا تنتهي، تشجيع الأطفال على السلوك الجيد مع وضع الاعتبار لساعات إضافية، والعمل في الإجازات الأسبوعية والسنوية...²⁴

تخيلوا أن هذا العمل الجبار الذي تقوم به المرأة ولا تأخذ عنه أجرا ولا مقابلا ماديا كيف يمكنه أن يساعد على التنمية من الناحية الاقتصادية.

كما يمكن للمرأة أن تسهم في التنمية من خلال دورها الإنتاجي كمعلمة وطبيبة، وفي عدد من القطاعات الاقتصادية، ومن خلال الأعمال التي تناسب طبيعتها وتحافظ على كرامتها والتي نهضت بها بنجاح.

وقد استطاعت المرأة المغربية أن تستثمر الفضاءات المهيأة لها من طرف الدولة لتسهم في مسيرة التنمية، فأصبحت تظهر في المجال العلمي بصورة مشرفة، وبمعدلات إنتاج مختلفة بعد ما تسلحت بالعلم والمعرفة وكونت ثقافتها التي تميزها وتمكنها من الانخراط في صفوف العمل التنموي بالمجتمع.

وفي الختام يمكن القول: إن الأسرة هي أفضل ضمان للنوام الاجتماعية وبالنظر إلى ما تحققه الأسرة من إنجازات هامة على كافة المستويات المادية والمعنوية، وجب تدعيم حقوق أفرادها وإرساء ثقافة أسرية حديثة تقوم على المشاركة والتضامن والمساواة باعتبارها خلية أساسية في المجتمع.

لهذا وجب تكثيف الجهود واعتماد تنسيق محكم بين جميع الأطراف من أجل تحقيق مصلحة الأسرة، وذلك بالعمل على تأهيلها للتعامل المتواصل مع محيط ثقافي واقتصادي.... لأن سرعة التحولات المعاصرة، وشدة تأثيرها على المجتمع في ظل التطورات الحالية تجعل الأسرة في مواجهة تحديات متجددة تقتضي مواصلة العمل لتوفير الظروف الملائمة لحماية الأسرة ودعم قدراتها في التنشئة الاجتماعية والعناية بأفرادها وتمتين الروابط بين الأجيال.

فكان الاهتمام بالمرأة وتحسين وضعيتها داخل الأسرة، وكذا مساعدتها على القيام بدورها على أحسن وجه ؛ من خلال فتح آفاق لتعليمها وتكوينها وتوجيهها توجيهها صحيحا ؛ من الأمور التي حرص أمير المؤمنين جلالة الملك على جعلها ضمن أولويات استراتيجية تحقيق التنمية البشرية.

24 - مجلة سورية الحديثة - مجلة إلكترونية، ثقافية اجتماعية، ومستقلة - الاثنين 28 أبريل 2008.

تقييد يضم تآليف
العلامة ابن الحاج

تقييد للعلامة محمد الطالب بن الحاج في مؤلفات وتقايد والده الشيخ حمدون

د. أحمد العراقي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس.

سبق أن حاولنا في بعض ما كنا كتباه عن الشيخ حمدون بن الحاج السلمي (1174-1232هـ/1760-1817م) القيام بإحصاء ما له من التأليف والتقايد؛ وكنا قد عملنا جهدنا في استقصائها وفي تصنيفها¹. ثم إنا وقفنا بعد ذلك على تقييد لابنه قاضي الجماعة العلامة محمد الطالب حاول فيه إحصاءها له. ومنه نسخة خطية، في وجه ورقة وحيدة، مودعة في مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، بالدار البيضاء، تحت رقم 2/316.

ومما يمكن ملاحظته في عمل محمد الطالب في هذا التقييد أنه قد جرد فيه لائحة بما وقف عليه لوالده من تأليف وتقايد، وأحيانا من قصائد مفردة منفصلة قبل ضمها لمحتويات ديوانه العام، ومن المنظومات. وقد تضمنت عناوين عدد مما كان ألفه أو نظمه ولم نكن قد وقفنا عليه له قبل؛ غير أنها أغفلت بعض ما كنا ذكرناه له. ويلاحظ أنه لم يسلك فيها ترتيبا معيناً يصنّف موادها حسب الفنون العلمية والأدبية، وإنما أوردتها كما تأتي له.

ونروم هنا وضع لائحة شاملة لجميع ما له، نعتمد فيها على ما ورد في هذا التقييد، وسنضع ما جاء فيه بين معقوفين، ونرتّب فيه العناوين وفق ما اخترناه في تصنيفها، ثم نضيف إليها ما لم تتضمنه وكنا قد وقفنا عليه من قبل.

التفسير والحديث :

- [تفسير سور كثيرة من الكتاب العزيز].-

1 - النوافح الغالية في الأمداح السليمانية، لحمدون بن الحاج، بتحقيقنا، -الدراسة التمهيدية- : 67-72 (ط.1)، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، (2000)؛ والديوان العام، له أيضا، بتحقيقنا، -التقديم- : 10/1-12 (ط.1)، منشورات كلية الآداب، فاس، (1995).

- [تفسير بالمأثور، لم يكمل، وكأنه رام الجمع فيه بين تفسير ابن كثير والدر المنثور] للسيوطي.
- [اختصاره لتفسير البقاعي في مناسبات الآي بعضها على بعض، لم يكمل، في عدة كراريس].

- [حاشية على أبي السعود مع متبوعه البيضاوي...، لم تكمل]؛ وقد سمى حاشيته على أبي السعود "مراقي الصعود على تفسير أبي السعود"، ذكر محمد الطالب في "الأزهار الطيبة" أنه يعمل على استخراجها من طوره².

- [حاشية على البيضاوي، لم تكمل]، ولعله تفصيل لما تقدم.
- [تقييد في بيان معنى كلام "الكشاف" في الحمدلة سماء: "القول الشاف"]
- [تقايد على التفسير والحديث وغيرهما كثيرة، لو جمعت لكانت سفرا]؛ وقد يكون منها ما سيأتي ذكره عنده مفصلاً من تقايد؛ وقد يكون منها كذلك ما كنا وقفنا عليه منها ولم يذكره في هذا التقييد وجمعناه له.

- تقييد في تفسير قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ (البقرة: 24)³.
- [تقييد على آية الصيام: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام..﴾ (البقرة: 182)، (في) كراسين في القالب الكبير...]
- [تقييد على آية: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب..﴾ (البقرة: 185)، في 16 ورقة من القالب الصغير]

- تقييد في قوله تعالى: ﴿تلك حدود الله... عذاب مهين﴾ (النساء: 13-14)⁴.
- [تقييد على آية: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم﴾ (النساء: 22)، في 6 أوراق صغار]
- [تقييد على آية: ﴿لقد جاءكم رسول...﴾ (التوبة: 129)، (وما) يتعلّق بها من جميع العلوم المتداولة، (في...) أوراق كبار]
- [تقييد على آية: ﴿الله نور السماوات والارض...﴾ (النور: 35)، وما يتعلّق بها من العلوم، أودعه شرح الميمية]

- تقييد في قوله تعالى: ﴿وما رب العالمين...﴾ (الشعراء: 22)⁵.
- تقييد في قوله تعالى: ﴿واضرب لهم مثلاً اصحاب القرية...﴾ (يس: 12)⁶.

2 - الأزهار الطيبة النشر فيما يتعلّق ببعض العلوم من المبادئ العشر، للطالب بن الحاج، بتحقيق: د. جعفر بن الحاج: 240/2 (ط. 2)، تطوان، (2007).

3 - رسائل أبي الفيض حمدون بن الحاج السلمي، بجمعنا وتحقيقنا: 13-22 (ط. 1، فاس، 2010).

4 - المصدر السابق: 23-33.

5 - نفسه: 35-41.

6 - نفسه: 43-52.

- [كشف الأستار على «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار» (يس : 36) ؛ ذكره في حاشية السعد]⁷.
- [تقييد على آية : «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم» (التين : 4)].
- [تقييد على آية : «أرايت الذي يكذب بالدين..» (الماعون : 1) ؛ في ورقة].
- [تقييد على سورة الإخلاص، سَمَاء بعضهم "أسرار من أيد بالإخلاص في كشف أستار مخدرات الإخلاص"]⁸.
- تقييد في "قال" الواردة في أثناء الحديث⁹.
- [نظم مقدمة ابن حجر في اصطلاح قراءة أحاديث البخاري وتعريف رجاله من عدالة وتجريح ؛ شرحها له ؛ وفيه إسناده إليه] ؛ وقد ورد النظم ضمن ديوانه العام¹⁰ ؛ وأما شرحه عليها فقد سَمَاء : "نفحة المسك الداري لقارئ صحيح البخاري"، وقد طبع¹¹.
- الفقه والأصول وأصول الدين :
- [شرح على خليل بالمأثور كالدّر المنثور ؛ لم يكمل].
- [شرح على عبادة مختصر خليل بالأحاديث، وبيان كل صورة منه من الكتاب والسنة].
- [نظم أبواب من الإحياء في العبادات].
- [وفق المراد في أحكام الجراد].
- [الصاعقة المرسلة على من يعتني بوضع اسمه ممتازا فوق السطر وتحت البسملة].
- إمتاع الأسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع¹².
- [حاشية على المحلى مع شروحه ؛ لم تكمل].
- [منظومة في التوحيد ؛ وشرحها لم يكمل].
- [نظم صغرى العلامة السنوني في العقائد الدينية].

7 - نفسه : 53-67.

8 - نفسه : 69-122.

9 - نفسه : 123-136 ؛ وضمن : ثلاث رسائل في "قال" في سند الحديث، بجمعنا وتحقيقنا : 49-64 (ط.1، دارالكتب العلمية، بيروت، 2012).

10 - الديوان العام : 321/2-345 (رقم 318).

11 - على الحجر، بفاس، سنة 1329 هـ.

12 - يوجد مخطوطا ضمن مجموع بالمكتبة الوطنية بالرباط، وانظر في شأن نسبته إليه : النوافح الغالية : 71، و376 ها*.

الأدب والتصوف والبلاغة والمنطق :

- [ديوان في أمير وقته، في سفر ضخم] ؛ وهو ديوانه في السلطان المولى سليمان، سَمَّاه "النوافح الغالية في الأمداح السليمانية" ؛ وقد طبع.
- الديوان العام ؛ وقد طبع.
- النوافح الغالية في المدائح السليمانية، وهو شرحه على قصيدته التي رفعها إلى المولى سليمان سنة 1202 هـ. وهي - مجرّدة - أولى قصائد ديوانه فيه¹³.
- [منظومة في السير النبوية ميمية، تشتمل على (نحو) 3000 بيت ؛ وشرحها له في خمسة مجلدات)، آخرها مما لَقَّقه ولده العلامة النحرير (أبو عبد الله محمد) رحمه الله بإذن منه عند وفاته] وقد سَمَّاه "عقود الفاتحة" ؛ وقد طبع المجلد الأول من شرحها وبعض من الثاني¹⁴ ؛ ولم نقف عليها مجرّدة، وقد قام أحد الباحثين بتجريدتها، وأحصى أبياتها فوجدها 4131¹⁵.
- [اليواقيت السنية في شرح (غريب) قوافي الميمية].
- [قصائد وتريات، على نمط قصائد البغدادي، كل واحدة اشتملت على بعض سِيره صلى الله عليه وسلم ؛ وشرحها لم يكمل]. كان نظمها في المولد النبوي عام 1224 هـ ؛ وهي موزعة على الحروف ضمن ديوانه العام، وتوجد مستقلة¹⁶.
- [همزية له في مدح خير البرية، جعل عدد أبياتها على عدد أهل بدر، عارض بها همزية البوصيري] ؛ وقد وردت ضمن ديوانه العام¹⁷، وكان قد قالها بالمدينة المنورة إبان مجاورته بها عام 1206 هـ.
- [تخميس همزية البوصيري في المدح] ؛ وقد وردت أيضا ضمن ديوانه العام¹⁸.
- [بديعية، عارض بها بديعية صفى الدين الحلّي في المدح النبوي، تقبّل الله منه ذلك، وزاد عليه بديعيات] ؛ وقد وردت كذلك ضمن ديوانه العام¹⁹.
- [حاشية على البردة ؛ لم تكمل].

13 - توجد من هذا الشرح نسختان خطيتان، واحدة تامة بالخزانة الحسنية بالرباط، وثانية مبتورة بالمكتبة الوطنية بالرباط.

14 - على الحجر، بفاس، زمان السلطان المولى عبد الحفيظ.

15 - عقود الفاتحة، تجريد وتحقيق، المحجوب المحجوبي (أطروحة دك، تحت إشرافنا، كلية الآداب، فاس، 2003)

16 - منها نسخة مخطوطة بالخزانة الحسنية، بالرباط.

17 - ديوانه العام : 66-45/1 (رقم 2).

18 - المصدر السابق : 44-27/1 (رقم 1).

19 - نفسه : 383-355/2 (رقم 329).

- [مقامات كمقامات الحريري] ؛ جعل ثمانية منها في مدح السلطان، وقد أدرجها ضمن ديوانه فيه²⁰؛ وله غيرها خارجه.
- [خطب كثيرة، تزيد على ثلاث سنين] ؛ ومنها : عشرة، استقى موضوعاتها بأمر سلطاني من الربع الأول من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي²¹؛ ومنها ديوان ضخم يضم خطبه التي ألقاها بجامع الرصيف الذي بناه السلطان المولى سليمان²².
- رحلة حجازية ؛ وقف أحد الباحثين على نقول منها²³.
- رسائل متنوعة، راسل بها بعض مثقفي عصره، ومن بينهم سليمان الحوات وأبو القاسم الزباني ؛ وكتب بعضها عن مخدومه السلطان المولى سليمان²⁴.
- إجازات علمية ؛ ومنها : إجازته لمحمد الزاكي بن محمد الهاشمي العلوي²⁵ ؛ وأخرى لمحمد بن علي المرتبي²⁶.
- [نظم حكم ابن عطاء الله، في نحو ألف بيت من مجزوء الكامل، مطلعته :
حمد لمن ناط الحكم بالحكم منه إذا حكم.
- [حاشية على شرح الشيخ الطيب على الحكم ؛ لم تكمل].
- [شرح الشريسية في طريقة السادات الصوفية ؛ لم يكمل].
- [منظومته في المنطق المسماة بـ : "الخريدة"، حاذى بها حذو السلم، وهي عن باعه في هذا الفن وغيره تنطق] ؛ وقد تناولها ولده أبو عبد الله محمد بالشرح، وسماه بـ "الجوهرة الفريدة في حل رموز الخريدة" ؛ كما شرحها أيضا الشيخ الطيب بن كيران ؛ وقد طُبِعَ الشرحان معا²⁷.
- [حاشية على مختصر السعد، أبدأ فيها وأعاد، مع حلّ مشكلات عجز عن إدراكها ذوو التحقيق] ؛ وقد سماها بـ : "الثمر المهتصر في روض المختصر" وبـ : "إناطة الدر الثمين بلباب مختصر سعد الدين"²⁸.

20 - النوافح الغالية : 257-293 (أرقام 71-78)

21 - توجد ضمن مجموع خطب مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط.

22 - توجد منه مخطوطة بالمكتبة الوطنية بالرباط.

23 - النوافح الغالية - الدراسة : 69.

24 - المصدر السابق : 69.

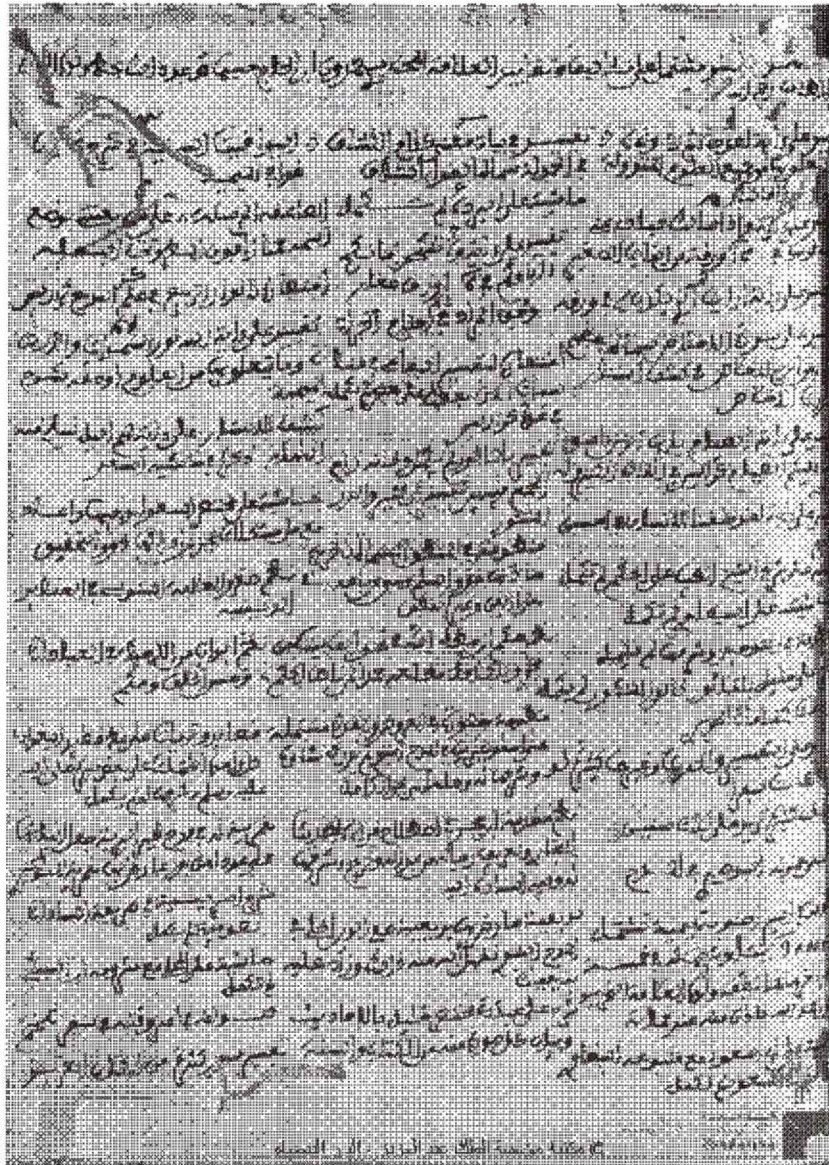
25 - نفسه : 69 ؛

26 - ديوانه العام - التقديم - : 11.

27 - على الحجر بفاس، 1329 هـ.

28 - توجد منه عدة مخطوطات بكل من الخزانة الحسنية والمكتبة الوطنية، بالرباط ؛ وكان تحقيقه موضوع أطروحتين بكلية الآداب بالرباط سنة 1999، تحت إشراف المرحوم د. علال الغازي.

- [اختصاره لأنوار الربيع في علم البديع؛ ...؟ كراريس].
- رسالة النصر والتأييد في اعتبارات اجتماع النفي والتقييد²⁹.
- [منظومة مقصورة في العروض (والقوافي)؛ مشتملة على أسلوب غريب في المدح النبوي لم يدرك شأوه؛ وشرحها له وصله إلى بحر الكامل]؛ وقد أتم الشرح ولده محمد الطالب³⁰.



29 - رسائل أبي الفيض : 137-152.

30 - وقد كان هذا الشرح موضوع تقديم وتحقيق ضمن أطروحة جامعية بكلية الآداب فاس، تحت إشرافنا أنجزها عبد الله البكاي، سنة 2009.

قراءة في كتاب

”منهج الدرس اللالي عند الامام الشافعي“

"منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي"

للدكتور عبد الحميد العلمي

د. عبد الرزاق وورقية

أستاذ الأصول والمقاصد

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس

مقدمة:

الحمد لله الذي جعل نوع الإنسان أشرف موجود في عالم السفليات، وكلفه بمعرفته تعالى التي هي أجل المطلوبات وأسنى المرغوبات، وخصه بالعقل الذي به إدراك المعقولات، والتمييز بين حقائق الموجودات، والصلاة والسلام على النبي المبعوث بأفصح اللغات وأبلغ العبارات، المكلف بتبليغ أشرف الرسالات، وعلى آله وأصحابه أهل العلم والمكرمات.

أما بعد فقد وهب الله تعالى الإنسان القدرة على تركيب المقاطع الصوتية لإنتاج الدلائل الكلامية والعبارات اللغوية، فاهتدى إلى اللغة والتواصل بها، وتمكن من تنويع تركيبات المقاطع الصوتية، فتنوعت لغاته وكثرت حتى أصبح لكل قوم لغة خاصة تختلف عن باقي اللغات، وكان ذلك آية منه سبحانه وتعالى من جملة الآيات، حيث قال عز وجل: ﴿ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾¹.

وكانت من تلك اللغات المختلفة اللغة العربية التي شرفها الله بتحميلها خطابه إلى البشر، فاللغة العربية شرفت بشرف الإسلام حيث اتخذها وعاء لتبليغ تعاليمه وأحكامه إلى الناس، وأغناها لفظاً ومعنى، وما كان لها أن تحيي وتستمر لولا انبعاث الإسلام ونزول القرآن بها. إذ تحولت مع مجيء الدين الحنيف من لغة الشعر والمفاخرة بالمساوىء إلى لغة الوحي والمنافسة في المحاسن، فاستقام آدابها بآداب القرآن وتحسنت ألفاظ أهلها بتهديب معلم القرآن صلى الله عليه وسلم، ولم يمض حين من الدهر على البعثة حتى أصبحت حياة اللغة العربية متوقفة على استمرار الإسلام، وأصبح فهم القرآن متوقفاً من جانبه على الارتواء من العربية والتمكن منها.

1 - سورة: الروم - الآية: 21.

وعلى هذا حاز الصحابة رضوان الله عليهم الدرجة العليا في فهم القرآن لكونهم أهل اللغة الأصلاء، وأصحابها البلغاء، نطقوا بها سليقة دونما حاجة إلى تعلم القواعد، فهم رضعوها من ألبان أمهاتهم العربيات الفصيحات وعاشوا مع أعرابها، واعتادوا على تداول ألفاظها وأساليبها حتى أضحت مختلطة بأمزجتهم ودمائهم، فمتى نزلت الآية من القرآن فهموها تلقائياً، فهم أهل القرآن وأهل اللغة معا.

وجاءت من بعدهم أجيال اختلطت لغتهم بلغات الأعاجم الداخلين الجدد في الإسلام، فابتعدوا في كلامهم عن الألفاظ الأولى كما عن معانيها، فأصبحت لغة القرآن غريبة عنهم، واحتاج أهل العلم إلى تأسيس القواعد وضبط الأساليب للحفاظ على آلة فهم القرآن، وتأسست علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة... جمع فيها علماء اللغة ما أمكن جمعه من مسالك وأساليب امتازت بها العربية الأولى وانبت عليها، وكان القرآن حكّمهم، وكلام الأعراب مرشدهم، فغاصوا كل في مجال تخصصه، بارعين في التأسيس والتدقيق والتحقيق والتقعيد... فحسن صنيعهم ومدحت طريقتهم.

ولما احتاج أهل الفقه والأصول إلى استنباط الأحكام من الخطاب الشرعي، بعد أن انقضى عهد السليقة اللغوية كما الفقهية، هرعوا إلى دراسة اللغة والبحث فيها من أجل ضبط آليات استفادة المعنى من اللفظ، والتوصل إلى مقصود الخطاب الشرعي، فأخذوا منجزات علماء اللغة مأخذ التسليم لأهلها، والاعتراف بالفضل لهم، وعند تعاملهم مع الخطاب الشرعي ألفوا أن بحوث اللغويين انصرفت إلى الاعتناء ببنية اللغة من حيث الوضع اللغوي ومن حيث الاستعمال العام في الغالب، وأن صنيعهم يحتاج إلى تنزيل على خطاب الشرع، فدعت الحاجة الفقهية إلى مزيد من البحث والدراسة، مما دفع أهل الأصول إلى قطع أشواط أخرى تزيد على ما أسسه اللغويون بكثير، حيث انكبوا على الخطاب بالبحث والتنقيب عن قواعد الاستنباط ووجوه الدلالات وأنواعها وأقسامها، فأسسوا علم الدلالة على قواعد متينة جمعت بين اللغة والخطاب الشرعي في علاقة مثمرة للمقصود أي الحكم الشرعي، منضبطين بضوابط اللغة من جهة، وبمقاصد الخطاب من جهة ثانية.

وأفضت دراساتهم وأبحاثهم إلى ترسيخ منظومة استنباطية متكاملة، دشنها الصحابة باستنباطاتهم، والأئمة المجتهدون باستثماراتهم، والشافعي على الخصوص برسائله الأصولية التأسيسية. ومنذ ذلك الوقت لم يستغن علم أصول الفقه عن المباحث اللغوية، حتى أضحي أهل الأصول أئمة لغة وزيادة، حيث برعوا في تقسيم المباحث الدلالية متبعين اللفظ في رحلته من الوضع إلى الاستعمال ومنه إلى الفهم والتلقي، واستقر درسه الدلالي على التنويع المعروف المبسوط في المؤلفات المخصصة لذلك.

ومر حين من الدهر توالى فيه المصنفات المتراوحة بين الشرح والتكرار لما سبق بناؤه، إلى أن قبض الله تعالى الإمام أبا إسحاق الشاطبي، فنخل تلك المباحث بمنخل المقاصد، فسلم منها البعض وبنى عليه، وأعاد صياغة البعض الآخر وفق منهجه المقاصدي، وبقيت أسرار ذلك المنهج مكونة في كتاب الموافقات، وقد اشتغل كثير من الدارسين المعاصرين على كشف تلك الأسرار، كل من زاوية تخصصه ونظره، وكلهم حاموا حول حى المقاصد، ومن أبرز هؤلاء الدارسين الدكتور عبد الحميد العلمي الذي خاض غمار البحث في الجانب الدلالي عند الشاطبي، مترسا بما وهبه الله تعالى من زاد لغوي، ومعين أصولي، وكرس لذلك السنوات ذوات العدد متخذاً كتاب الموافقات سميره وأنيسه، جاعلاً إياه جليسه على مر الأيام والليالي، فكانت ثمرة ذلك الكتاب النفيس الموسوم بـ "منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي"²، والذي أتشف اليوم بتقديم قراءة فيه وقبل الشروع في المقصود أقدم إقرارين بين يدي الكتاب.

الإقرار الأول: ومفاده أن هذا الكتاب فريد في موضوعه، وفي منهجه، وفي نتائجه.

فمن حيث الموضوع مازالت الأبحاث تترى عن الشاطبي وموافقاته ولكن أغلب هذه الأبحاث اتجهت إلى الجانب المعهود في المقاصد وأقسامها ومراتبها فكأن هذه الدراسات اتجهت إلى النتائج وأغفلت الأسس التي تم عليها البناء المقاصدي.

وفي هذا الكتاب اتجه الأستاذ المؤلف إلى البحث في المنطلقات والأسس النظرية والمنهجية والدلالية لعلم المقاصد عند الشاطبي، فالقول بأن مقاصد الشارع على ثلاث مراتب، أو الكليات الضرورية خمس، هي نتيجة انتهى إليها الشاطبي بعد جهد فكري ومنهجي أعمل فيه آليات علمية دقيقة، إذ قيمة عمل الشاطبي لا تكمن في النتائج المتوصل إليها فحسب، وإنما في المنهج والمسلك الذي سلكه للوصول إلى ذلك، وهو المجال الذي بحث فيه صاحب الكتاب، ويمكن القول إن بحثه كان في طريقة تفكير الشاطبي وفي منهج ترتيب أفكاره واستدلالاته.

ومن حيث المنهج فلكون الأستاذ المؤلف استفاد من الشاطبي في صياغة مشروعه، فقد نهج منهجه في استخراج طريقته في الدرس الدلالي وهو المنهج الاستقرائي، حيث لم يتعامل المؤلف بانتقائية مع فكر الشاطبي وإنما بالجمع والتتبع والتحليل حتى أضحت عنده معالم منهج الشاطبي واضحة ناصعة، وقد التزم في هذا الموضوعية العلمية إلى حد كبير إذ لم يؤطر دراسته بنظرية مسبقة، وإنما ترك المجال للاستقراء للنطق بالنتائج متفادياً بذلك بعض ما يقع فيه كثير من الباحثين من تحميل المتقدمين مقولات ونتائج هم منها براء.

2 - هذا الكتاب طبعته ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سنة 1422 هـ الموافق لـ 2001م، ويقع في 542 صفحة من الحجم الكبير.

ومن حيث النتائج، فالكتاب تضمن عصارة ما انتهى إليه الشاطبي بعد قرون من التطور في المباحث الأصولية، فاستحق بذلك أن يتخذ مرجعا أساسا في دراسة الجانب الدلالي عند الشاطبي، وهو ما وقع بالفعل، فمن خلال اطلاعي الشخصي فإن مجموعة من الجامعات والمؤسسات العلمية اعتمدته مرجعا دراسيا في ذلك المجال ومنذ سنوات، فالتائج التي أفضى إليها أبرزت بشكل جلي إسهام الشاطبي الكبير في الدرس الدلالي سواء في بعده اللغوي أو في بعده المقاصدي.

الإقرار الثاني: هو أن قراءته محفوفة ببعض الصعوبات،

فالكتاب ولأنه صيغ بطريقة علمية منهجية، ولغة أصولية متخصصة، فهو مستعجم إلا على الراسخين من أهل الذوق في علم المقاصد، لذلك بداية أستسمح أستاذنا على أي تقصيد مني يلحق كلامه من خلال هذه القراءة التي حاولت فيها قدر الإمكان المحافظة على قصد المؤلف في مؤلفه.

وبعد هذين الإقرارين، سأعرض هذه القراءة عبر محورين:

- الأول: مقومات الفكر الأصولي عند الإمام الشاطبي
- الثاني: الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي بين اللفظي والمقاصدي

المحور الأول: مقومات الفكر الأصولي عند الإمام الشاطبي

هذه المقومات هي تلك الأسس النظرية والعلمية والمنهجية التي أقام عليها الإمام الشاطبي بناءه الدلالي والمقاصدي، وقد تتبعها المؤلف واستخرجها وصاغها بحسب مجال انتهائهما ووظيفتهما البنائية، وسنتحدث عنها كالاتي:

1. المقومات النظرية:

هي تلك المنطلقات الفكرية المبدئية التي انطلق منها الإمام الشاطبي في صياغته لمشروعه وأوردها المؤلف على شكل دعوات للشاطبي، وهي:

- أولا: دعوة الشاطبي إلى استقلال المباحث الأصولية: ومؤدى هذه الدعوة هو ضرورة تنقية المباحث الأصولية مما علق بها من القضايا الكلامية والمنطقية واللغوية... مع الاكتفاء بأخذها مسلمة من أهلها.

- ثانيا: دعوته إلى قطعية الأدلة الفقهية: وقد تطرق المؤلف للخلاف الحاصل بين الأصوليين في هذه المسألة، واكتفاء أغلبهم باشتراط القطع في الأصول العقديّة دون الفقهية، أما الشاطبي فكانت رحلته طويلة لطلب القطع في الأصول الفقهية، فهو وإن سلم بإمكان تطرق الظن إلى بعض آحاد الأدلة والفروع الفقهية، إلا أنه تمسك بتحقيق القطع عبر نظم الأدلة الجزئية في سلك الكليات الاستقرائية.

• ثالثاً: دعوته إلى تبني النظرة الشمولية للشريعة على مستوى الفهم وعلى مستوى التنزيل، واستحضار عموميتها على جميع المكلفين وفي جميع الأوقات، وكون أدلتها ينبغي أن تؤخذ كالصورة الواحدة بالجمع بين كلياتها وجزئياتها..

2. المقومات العلمية:

في المقومات العلمية وبعد التسليم بالشروط الأصولية للاجتهاد، أكد الشاطبي على شرطين أساسيين للتمكن من العلم بالشريعة.

• أولهما: الإمام بالمقاصد الشرعية، وجعلها شرطاً للرسوخ العلمي في الاجتهاد، قال الشاطبي: "إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين أحدهما فهم مقاصد الشريعة على كمالها والثاني التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها"³.

• الثاني: العلم باللغة العربية، وفي هذا الصدد أكد المؤلف أن النتيجة التي انتهى إليها هي أن درجة علم المجتهد باللغة العربية، مقياس لفهم المسائل الشرعية، وفي هذا قال الشاطبي "فإذا فرضنا مبتدئاً في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطاً فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، كان فهمه فيها حجة"⁴.

3. المقومات المنهجية:

وتدور على الأساس المنهجي المرتكز عليه في صياغة مشروع الشاطبي العلمي، وقد قسم المؤلف بحث الشاطبي عنه إلى مرحلتين، أولاهما اتسمت بالجمع والتتبع الاستقرائي والتحليل، وجاءت ثمرة لمعاناته في البحث عن البديل.

والمرحلة الثانية تقوم على استثمار ما جمع وما استقرئ ونظمه في أصول كلية حاکمة على جزئياتها.

وقد أفضى تأسيس البناء المنهجي إلى تقرير مبدأ التكامل بين الأصلي والفرعي، وبين الكلي والجزئي المنتظم فيه، وبين التضلع من العربية والإمام بالمقاصد لأنها يمثلان نظاماً مترابطاً في فكر الشاطبي الأصولي.

ومن مقتضيات هذا النظام المترابط استخرج المؤلف مجموعة من المتقابلات الراجعة إلى التقابل بين الدلالة اللفظية والدلالة المقاصدية:

3 - الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، تعليق عبد الله دراز، ط: د.ت، دار الفكر العربي: 105/4.

4 - المصدر السابق: 115/4.

ففي الدلالة هناك تقابل بين ما هو أصلي وما هو تبعي، وفي الأدلة هناك تقابل بين ما هو برهاني عقلي وما هو نقلي، وبين ما هو كلي وما هو جزئي، وبين ما هو قطعي وما هو ظني.

وفي إجراء الأدلة هناك تقابل بين الاقتضاء الأصلي والاقتضاء التبعي، وبين الاقتضاء العقلي والاقتضاء الخارجي، وبين الاقتضاء الحالي والاقتضاء المآلي.

وفي الدلالة اللفظية هناك تقابل بين اللفظ والمعنى، وفي الألفاظ هناك تقابل بين المحكم والمتشابه، وبين النص والظاهر، وبين المبين والمجمل، وبين المطلق والمقيد...

وفي المعنى هناك تقابل بين المعنى الإفرادي، والمعنى التركيبي.

وفي الدلالة المقاصدية، هناك تقابل بين مقاصد الشارع ومقاصد المكلف.

وفي مقاصد الشارع هناك تقابل بين المقاصد الأصلية والمقاصد التبعية.

وفي مقاصد المكلف هناك تقابل بين قصده وعمله، وبين قصده الحالي والظاهر، وقصده المآلي الباطن.

وفي السياق هناك تقابل بين ما هو حكمي مقاصدي وبين ما هو لغوي.

وفي الاجتهاد هناك تقابل بين ما ينقطع منه وما لا ينقطع، وبين الاجتهاد البياني والاجتهاد المصلحي.

وبعد جرد هذه المتقابلات الشاطبية، استنتج الدكتور عبد الحميد العلمي أنه برصد "تدرج هذه المتقابلات في المدار الدلالي نصل إلى فضائين متكاملين يجمعهما مبدأ التقابل بين الدلالة اللفظية والدلالة المقاصدية، وهذا يؤدي إلى قانون واحد وموحد مؤداه كما قرر الشاطبي أن "مأخذ الأدلة عند الراسخين إنما هو أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها ومحملها المفسر يبينها إلى ما سوى ذلك من مناحيها".

4. قواعد السير المنهجي:

وهي قواعد منهجية ذات بعدين: بعد نظري بموجبه تتأصل القضايا الشرعية في الخطاب الشرعي، وبعد إجرائي بمقتضاه تنتزل هذه القضايا على محالها في الواقع، وقد بين الأستاذ المؤلف هنا ثلاث قواعد هي أساس السير المنهجي عند الشاطبي:

الأولى: أخذه بالكليات الشرعية، والثانية: التزامه مبدأ الأخذ بالأولويات، والثالثة: تمسكه بأصل النظر في المآلات.

فأما في الأخذ بالكليات الشرعية: فقد بين المؤلف أهمية الاستقراء في بناء هذه الكليات، ومفهوم الكلي عند الشاطبي، ونوعي الكليات عنده النصية والاستقرائية، مفضيا إلى ترتيب العلاقة بين الكليات والجزئيات المبنية على مبدأ التقابل الذي تأسس كما سبق أنفا.

وأما فيما يتعلق بقاعدة الأخذ بالأولويات فإن الأستاذ المؤلف قرر أيضا أنها مرتبطة بقانون التقابل الذي عده ظاهرة مطردة في الكون، وقد أخذ به أهل التخصصات العلمية من مناطق ولغويين ومتكلمين وأصوليين، إلا أن الشاطبي قد تعمق في الأخذ به "فقد استطاع أن يجعل منه فيصلا لحل الغوامض وتمييز الدقائق والفوارق"⁵.

وقد اعتمد الأصوليون مبدأ التقابل في إيراد الأدلة، فتحدثوا عن النقلي والعقلي، وعن الأصلي والتبعي، وعن المتفق عليه والمختلف فيه... والشاطبي اختار ضابطين لترتيب العلاقة بين الأدلة أحدهما نشد القطعية وهذا لا يتأتى عنده إلا بالاستقراء، والضابط الثاني: الأخذ بالمقاصد الشرعية. فلما كانت دلالة الألفاظ في مجملها محتملة لتوقفها على مقدمات ظنية، والمقاصد في عمومها قطعية لاستنادها إلى كليات استقرائية، فقد استقر النظر عند الشاطبي على جعلها حكما في تحديد المطالب وتعيين المراد⁶، كما سيأتي.

وأما فيما يتعلق بالتمسك بأصل النظر في المآل:

فبعدما أورد صاحب الكتاب مذاهب الأصوليين قبل الشاطبي في اعتبار المآل بين أخذ به ومتحفظ تجاهه ورافض له، أبرز ما انتهى إليه الشاطبي من اعتبار النظر في المآل شرطا أساسا في الاجتهاد، ف"النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل"⁷.

وبناء على هذا الأصل استنتج المؤلف بعد إمعان النظر في القواعد المتفرعة عنه، أنها جامعة لطرفين وواسطة فأما الطرفان فلهما تعلق بالقصدين: قصد الشارع وقصد المكلف، وأما الواسطة فلهما تعلق بما يعترض سبيل نيل الحظوظ واقتناص المصالح إذا حفت بها أمور طارئة.

ففي الطرف الأول أي حماية قصد الشارع أورد قاعدتي سد الذرائع ومنع الحيل.

5 - منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي، د. عبد الحميد العلمي، ص: 130.

6 - المرجع السابق، ص: 139.

7 - الموافقات: 194/4.

وفي الطرف الثاني أي حماية مصالح المكلف أورد قاعدتي الاستحسان ومراعاة الخلاف.
وفي الوسطة أي اقتناص المصالح والحظوظ أورد قاعدة التحفظ في جلب المصالح.
وبهذه القواعد انتظم أصل اعتبار المآل عند الشاطبي كما برهن على ذلك الأستاذ المؤلف.

المحور الثاني: الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي بين اللفظي والمقاصدي

بعدما عرض لتصور الأصوليين للدلالة اللفظية وأقسامها، انطلق عمل أستاذنا في بيان منهج الشاطبي في مجال الدلالة من بيان مفهوم الدلالة عموماً، وتوقف كثيراً عند مفهوم الدليل عنده، فبعدما قرر أن الشاطبي لم يعن بتعريف خاص للدليل وإنما ورد عنده في الموافقات بإطلاقات متعددة⁸ تجمعها معاني الإرشاد والهداية إلى المطلوب. تتبع المؤلف هذه المعاني واستنتج أن الدليل عند الشاطبي يشمل كل ما يمكن التوصل به إلى القدر الذي يحقق معنى الهداية إلى المدلول، فدخل فيه ابتداء ما كان أصلياً أو تبعياً، نقلياً أو عقلياً، كلياً أو جزئياً، ليشمل الأصول الفقهية، والنصوص النقلية، والمعاني المصلحية، وبعض الأدلة الأخرى كالاستقراء والإقرار والقرائن وغيرها.

إلا أن ضابط الأمر عند الشاطبي حسب المؤلف هو أن اعتبار الدليل رهين بتلمس القطعية في المطلوب وهذا لا يتأتى إلا بتصوره في كليات معتبرة، والكليات هنا لها مسلكان:

أحدهما: الدليل النصي المعضد بشهادة أبواب الشريعة بالانتشار والتكرار⁹ مع انتفاء النسخ أو التقييد أو التخصيص.

الثاني: طريق الاستقراء المنتظم من آحاد النصوص النقلية، أو من آحاد الأدلة الخاصة ببعض صور الأقيسة وأخبار الآحاد، أو من معان شرعية ثبتت ملائمتها لجنس ما هو معتبر في الأصول¹⁰.

وبناء على مبدأ التقابل المعتمد عند الشاطبي، استقام منهجياً أن يدرس صاحب الكتاب الدلالة عبر المقابلة بين قسميها العظيمين: الدلالة اللفظية والدلالة المقاصدية، وإذا كان الأصوليون قد درسوا جيداً القسم الأول حيث كان محور أبحاثهم الدلالية، فالمؤلف سوف يستنتج أبعاداً أخرى عند الشاطبي لا تخلو من جديد ولا سيما تلك المتعلقة بالقسم الثاني أي الدلالة المقاصدية.

1. الدلالة اللفظية بين الأصوليين والشاطبي:

تطرق المؤلف إلى هذا الموضوع من خلال متعلقات الدلالة اللفظية، كصلة اللفظ بالمعنى، وعلاقة اللفظ بسياقه التقابلي الدلالي.

8 - منهج الدرس الدلالي: 196.

9 - منهج الدرس الدلالي: 196.

10 - المرجع السابق: 197.

ففي صلة اللفظ بالمعنى ناقش الأصوليون في هذا الباب علاقة اللفظ بالمعنى وطبيعة المناسبة بينهما، بينما اتجه اهتمام الشاطبي إلى اللفظ من جهة إفادته مقاصد المتكلم أي باعتباره عنصراً في التواصل الدلالي، إذ "أن مقصود الخطاب ليس هو التفقه في العبارة بل التفقه في المعبر عنه وما المراد به" لذلك كانت عناية الشاطبي بالمعاني التركيبية لإفهامها المقصود من الخطاب.

وفي هذا الصدد اتجه صاحب الكتاب إلى دراسة علاقات اللفظ المختلفة في إفادته للمعنى، منها علاقته بالسياق، وهو من المباحث الجديرة بالدراسة عند الشاطبي، وقد استنبط عدة أنواع من السياق منها السياق اللغوي، وسيق التخابر، وسيق التنزيل، وسيق المقاصد، وسيق الاستقراء.

كما درس اللفظ في علاقته بما هو شرعي أي موقع الألفاظ في إفادة الأحكام الشرعية، وفي الإفصاح عن المقاصد الشرعية.

بينما في علاقة اللفظ في سياقه التقابلي الدلالي كان درسه دائراً على التقابل بين المحكم والمتشابه وبين المبين والمجمل، وبين الظاهر والمؤول، وبين العام والخاص.

وهنا لا بد من التنويه إلى أنه بالرغم من خلو فهرس الموافقات من هذه التقسيمات، إلا أن صاحب الكتاب بذل جهداً كبيراً في استخراجها وجمعها عن طريق الاستقراء والتتبع، فبعد عرضه لتقسيمات الأصوليين لهذه المتقابلات والمختلفة بين المتكلمين والأحناف، أورد طريقة الشاطبي المتميزة في كل متقابلة من هذه المتقابلات، فبناءً على منهجه القاضي بتوجيه جميع المباحث الدلالية لإفادة المقصود الشرعي، أفضى إلى اكتشاف امتدادات دلالية جديدة، منها مثلاً في متقابلة العام والخاص، تجاوز منظور الأصوليين في الاختصار على العموم اللفظي إلى الحديث عن العموم المعنوي المنتظم من الاستقراء لمواقع المعنى ليتحصل من ذلك الكلي القطعي الحاكم على ما تحته من الجزئيات.

كما أفضى منهجه إلى حل كثير من الإشكالات في باب الدلالة حيث ميز بين المتشابه الحقيقي والمتشابه الإضافي وبين العموم الوضعي والعموم الاستعمالي، كما وفق بين أعمال الظواهر وأعمال المعاني والمقاصد إلى غير ذلك من التوفيقات والموافقات التي استنتجها المؤلف من خلال تتبعه لصنيع الشاطبي في الباب.

2. الدلالة المقاصدية:

في مقابل الدلالة اللفظية برزت عند الشاطبي الدلالة المقاصدية ويعد أستاذنا أول من أسس لهذا الاصطلاح بناءً على صنيع الشاطبي، وتعني الدلالة المقاصدية ذلك الامتداد الدلالي المعنوي

لألفاظ لا من جهة الصيغة ولكن من جهة العلل والمقاصد، وهو الامتداد الذي أبدع فيه الشاطبي، وحل به معضلات أصولية وفقهية كثيرة، بل هو صلب بنائه المقاصدي، وقد بنى المؤلف معالجته لهذا القسم من الدلالة على اقتضائين، أحدهما تعليلي، والثاني: استدلالي.

• الاقتضاء التعليلي وينبني عنده على جملة أمور منها:

أولاً: التسليم بإمكان التعليل بناء على أن " القاعدة المقررة أن الشرائع إنما جيء بها لمصالح العباد..."

ثانياً: تحديد مصطلح العلة وتعيينه في المصلحة أو في المفسدة.

ثالثاً: ميله إلى الأخذ بالعلل الكلية عند النظر والاستنباط دون إهماله للجزئية منها.

قال المؤلف: "المقاصد بهذا التوجيه هي الكليات التي تنتهي إليها العلل، وتتنظم في سلوكها المصالح والحكم..."¹¹.

وضابط المسألة عنده أن البحث الدلالي رهين بانتظامه في منهجه العام القاضي بتوخي القطع في الأحكام لذلك قرر "أن الأدلة المستعملة هنا هي الاستقرائية المحصلة بمجموعها القطع بالحكم".

• الاقتضاء الاستدلالي:

قال عنه صاحب الكتاب: "هو عمدة الموضوع وغاية المجموع به تتضح أصول النظرية في أبعادها التطبيقية" وقد نظر إليه من ثلاث جهات: جهة الشارع وجهة المكلف وجهة المجتهد. فمن جهة الشارع بتحكيم المقاصد الكلية في إجراء الأدلة الجزئية والأحكام التكليفية. ومن جهة المكلف بإخضاع فعله وقصده لموافقة القصد الشرعي، وتفادي الحظوظ الهادمة للكليات.

ومن جهة المجتهد بالتحقق مما يصدق عليه أنه دليل، وبإعمال هذا الدليل بما يليق من استحضار أحوال النازلة في ضوء ما تبين من قصد الشارع وجعله حكماً فيما يصدر عن المكلفين فهما وامثالاً. مع مراعاة الحال والمآل عند الإعمال.

3. وحدة المنهج وتوجيه المباحث الأصولية:

استنتج المؤلف أن منطلق هذه الوحدة هو تصور الشاطبي لأصول الشريعة وأدلتها بكونها كالصورة الواحدة حيث قال: "مأخذ الأدلة عند الراسخين إنما هو أن تؤخذ كالصورة الواحدة

11 - منهج الدرس الدلالي: 342.

بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بينها إلى ما سوى ذلك من مناحيها"¹².

وقال المؤلف: "وقد ألبس الشاطبي منهجه لباس هذه الوحدة ورتب نظره ومنهجه على وفاقها، وأكد في مواضع أن "الشريعة كالإنسان الصحيح السوي، فكما أن الإنسان لا يكون إنساناً حتى يستنطق فلا ينطق باليد وحدها ولا بالرجل وحدها، ولا بالرأس وحده، ولا باللسان وحده، بل بجملته التي سمي بها إنساناً، كذلك الشريعة لا يطلب منها حكم على حقيقة الاستنباط إلا بجملتها لا من دليل فيها أي دليل كان، وإن ظهر لنا لبادئ الرأي نطق ذلك الدليل فإنما هو توهمي لا حقيقي"¹³.

ولما برهن على وحدة المنهج عند الشاطبي استخرج الأستاذ المؤلف جهات استثمار هذه الوحدة، ومنها:

الجهة الأولى: جهة الفهم أي النظر في الخطاب بقصد الاستنباط، وضابط المسألة هنا "أن فهم القرآن الذي هو أصل الأصول ينبغي أن يؤخذ كوحدة لا تستنطق إلى بمجموعها، وتتبع مساقاتها، والتميز بين الاستعمال العربي والاستعمال الشرعي، والسياق اللغوي والسياق المقاصدي ونظم الجزئيات في الكليات..." إلى غير ذلك مما ذكر آنفاً من التمييز أو التوفيق بين المتقابلات.

والجهة الثانية هي مباحث الحكم الشرعي التكليفي والوضعي منه، فالتكليفي تم توجيهه بضرورة رعي المقاصد فيه ف"الأحكام الخمسة إنما تتعلق بالأفعال والتروك بالمقاصد، فإذا خليت من المقاصد لم تتعلق بها"¹⁴.

كما لم يكتف الشاطبي بتقرير الأحكام الخمسة كما وردت عند الأصوليين قبله، وإنما أخضعها لمتقابلة الكلية والجزئية، كما استعرض ذلك الأستاذ المؤلف.

أما الحكم الوضعي فقد أخضعه الشاطبي لوحدة منهجه فحسب الأستاذ المؤلف فإن الشاطبي استحضر القصد في الأسباب والشروط وحكم المقاصد في مبحث الصحة والبطلان، أما مبحث الرخص والعزائم فقد أولاه عناية ملحوظة وأخضعه لميزان المقاصد في ضوء التقابل بين الكلي: العزيمة، والجزئي: الرخصة.

12 - الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الطبعة: الأولى، 1412هـ - 1992م، الناشر: دار ابن عفان، السعودية: 311/1.

13 - المصدر السابق.

14 - الموافقات: 149/1.

والجهة الثالثة التي أخضعها الشاطبي لمنهجه الموحد هو مبحث الاجتهاد، حيث اشترط في المجتهد فهم المقاصد، والتمكن من آليات الاستنباط، وأن ذلك مفض إلى التوفيق ورفع الخلاف عن أنظار المجتهدين فضلا عن رفعه عن التشريع.

والجهة الرابعة التي أخضعها الشاطبي حسب المؤلف لوحدة المنهج هي مجال التقعيد العلمي، وهنا برع الشاطبي في أعمال الاستقراء لتحصيل القطع بالكليات المقاصدية وتنزيلها على الأدلة والأحكام وباقي مسائل الاجتهاد...

وختاماً:

إن عمل الشاطبي مشروع علمي دقيق، يستحق الدراسة والاستثمار، وقد جاءت دراسة المؤلف لتقريب منهجه ونتائج عمله، ولا سيما في باب الدلالة وهو أصل الأبواب الأخرى، وقد تمكن صاحب الكتاب من ضبط الاصطلاحات ورصد المقومات العلمية والمنهجية، كما بوأ ما استفاده من الشاطبي في رسم آفاق واسعة للبحث في الدلالة المقاصدية التي هي موئل الاجتهاد الأصولي والفقه المعاصر والمستقبلي، فبتلك الكليات المقاصدية يمكن للمجتهدين الراسخين الاستغناء عن ظنية آحاد الأدلة والقياسات الجزئية، وأخيراً لا يسعنا إلا أن ندعو جمهور الباحثين إلى مزيد من البحث والدراسة في منهج الشاطبي، فكثيرة هي البحوث عن الشاطبي ولكن قليلة ونادرة تلك التي تمس جوهر ولب ما بوأ له مشروعه العلمي، وهو التجديد المنهجي في علم الأصول وما انبثق عنه من مباحث الدلالات والمقاصد وغيرها.

ديوان العدد

اهناً أيا عرش المعالي

الشاعر: عبد الحميد بن زينة
الرباط

عرش الأماجد مرحبا بك ههنا
تمشي الهوينا زاهيا في نشوة
هذي الشعوب تراك مجدا فاحرا
والمغرب الحر الأبى مباهيا
سكناك في قلب الأحبا كلهم
وكذا العيون تراك شمسا في السما
فاهناً أيا عرش المعالي والنهى
اهناً به قد جاء يحمل فرحة
أكرم به عيدا تلاً تاجه
يا سائلا اقرأ تجد تاريخنا
يحكي بإسهاب عزيز جهوده
أباؤنا كانوا الجنود لعرشهم
ضحوا جميعا بالدم والموتجى
كانوا بناة أبدعوا في صنعهم
كانوا ملوكا للمعارف كلها
سارت بذكرهم المراكب والسهى
شادوا بهذا منجزات في الرؤى
أعطوا مثالا في الفضائل والصفاء
أولاء أبناء البلاد جميعهم
هذا حفيدهم الذي يحمى الحمى
هو سادس الأنجاد سبط المصطفى
فأدمه ربي في الحياة معظما

وسط الورود البيض تلبس سوسنا
تختال في عز العوالي مدمنا
تحتل فيها نجمها المتزينا
يرعاك يدعو أن تظل المحصنا
يبقى عرينا في العلى متمكنا
تهدي وتعطي نورها المتفتنا
بالعيد مصباح الثريا مفتنا
تنساب شعرا في الشاعر مؤذنا
أكرم به بدرا بدا متينا
يشرح بفخر شأوه المتحصنا
ليظل مغربنا منيعا مذننا
صنعوا به صرحا سميكاً مزمننا
ليرى المواطن في الدنى متيئنا
رفعوا بعرشهم القضا المتمدنا
للفقه والتفسير كانوا الممعنا
أبلوا بجدهم البلاء المحسنا
كتبوا وكانوا في العلوم المقرنا
لم يسرفوا في الفكر كانوا المرصنا
بنسائهم صانوا وصاروا الأعينا
في شخصه الغالي لمسنا المؤمنا
أكرم به دوما نراه المسكنا
يعلو السفينة قائدا مترينا

واشدد قراه بالرشيد المرتضى ❁
واحفظ ولي العهد من كل الأذى ❁
هو والأميرة نرتجي أن يركبا ❁
واحفظ بلادي حرة بتخومها ❁
فهي الحبيبة في الفؤاد وفي الحشا ❁
اجعله رداءا في المباني والبنات
من جاءنا حبا عزيزا مثننا
عز المراكب سودا متفتنا
من كل ختار حسود مفتنا
وهي التي في المبصرات المعدنا

فهرس العدد

افتاحية 7

ملف العدد

ذكرى عيد العرش المجيد

إمارة المؤمنين تأصيل الشرعية ومقاصد الإقامة

د. إلياس بناني 11

التأطير الديني بين الأمن الروحي والأمن القومي

د. عبد الهادي الخمليشي 29

إمارة المؤمنين في افريقيا من الأمن الروحي إلى الأمن الاجتماعي والاستقرار السياسي

عبد الفتاح الفاتحي 45

خطبة المناسبة الوطنية، بين الحدث التاريخي والتأصيل الشرعي

د. عبد المغيث بصير 61

الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية من خلال عقد البيعة في الإسلام

د. أحمد الأزمي 75

المبادرة الوطنية للتنمية البشرية : توجيه ملكي ورافعة لبناء العمل الجماعي

د. لحسن جنان 91

مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف في ربوع إفريقيا

103..... ذ. محمد طابخ

المرأة والتنمية البشرية في منظومة إمارة المؤمنين

121..... دة. حكيمة الخطري

تقييد يضم تأليف

العلامة ابن الحاج

تقييد للعلامة محمد الطالب بن الحاج في مؤلفات وتقايد والده الشيخ حمدون

133..... د. أحمد العراقي

قراءة في كتاب:

"منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي"

منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي

141..... د. عبد الرزاق وورقية

ديوان العدد :

قصيدة: اهنأ أيا عرش المعالي

155..... ذ. عبد الحميد بنزونية

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

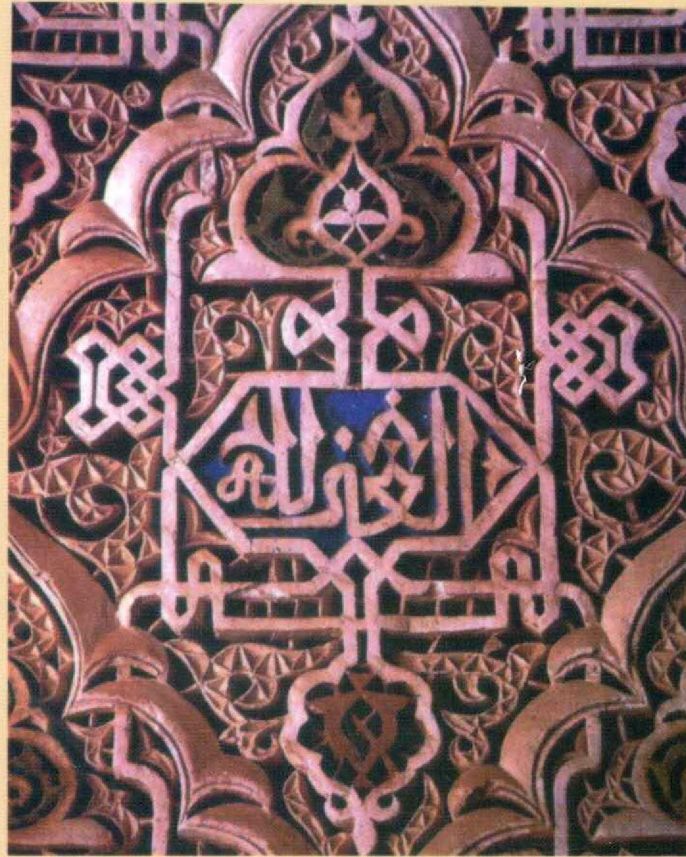
- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- البريد الإلكتروني هو : alami.hamid49@gmail.com
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاور الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية:

1. إمارة المؤمنين والبعد الإفريقي
2. جهود المغرب في تكوين القيميين الدينيين
3. التصوف السني والامتداد الإفريقي





دعوة الحق

مجلة شهرية نعتنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعمر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية